

سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

الزَّهراء الْقِدْوَة

إعداد
حسين أحمد الخشن

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل - هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٨٢١٣٩٢ - فاكس: ٠١/٣١٤٨٢٤
ص.ب ١٥٨ / ٢٥ الغبيري - Int: www.dar - almalak.com. / Email: dam @ dar - almalak.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.. فقد بدأت حياتي والسيدة الزهراء(ع) في عقلي وقلبي وحياتي، لأنها السيدة الطاهرة النقية التي كانت كل حياتها لله ولرسوله ولعلي وللإسلام كله، وللإنسان كله في سمو الروح وشموخ العقل وطهارة الحس وقوة المنطق وصلابة الموقف، كما عاشت عمق المأساة، فكانت دموعها دموع الرسالة على الإنسان الذي أبعدوه عن الخط المستقيم، مع كونه القيادة العظيمة المعصومة المجاهدة المنفتحة على العقل كله والروح كله والإنسان كله، من خلال انفتاحها على الله في كل رحاب قدسه وآفاق عظمته وحركة دينه، كانت اهتماماتها في حجم الرسالة لا في حجم الذات، وكانت صرختها في خط القضية لا في لوعة الألم.

لقد نظمتُ - قبل العشرين من عمري في النجف الأشرف - العراق - قصيدة في وفاة الزهراء(ع)، وبقيت هناك وتحدثت عنها في أكثر من

محاضرة ومقابلة وحوار وقصيدة، حديث العشق الروحي والمحبة الفكرية والتقديس القلبي، فلم أترك فضيلة أو منقبة أو موقفاً أو روحانية إلا وتحدثت عنها... وامتد ذلك إلى تحليل كلماتها، ومنها خطبتها -لأنني كنت أجد أن علينا أن نتعرف على الزهراء الروح والقلب والفكر والموقف، لتكون لنا الرائد الذي لا يكذب أهله، والقدوة التي نتابعها ونتبعها في حياتنا الإسلامية للرجال والنساء معاً.

وقد قام فضيلة العلامة الشيخ حسين الخشن حفظه الله بجمع وتنسيق هذه الكلمات وإعداد تلك الأحاديث بأسلوب شيق وتدقيق وتحقيق وتوزيع للموضوعات بالمستوى الرفيع، بحيث أصبح هذا الكتاب «الزهراء(ع) القدوة» يمثل كل فكري في سيدة نساء العالمين، راجياً له من الله الأجر، وللكتاب المزيد من النفع للقراء الذين سوف يجدون في هذه الكلمات إنساناً يتجلى في فكره عظمة الزهراء وقداستها وعظمتها، بدلاً مما يثيره الذين لا تقوى لهم أمام الغوغاء بما هو العكس في ذلك، سائلاً الله لهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٩٦ ع
٢١٤٩١

محمد
تفضل منه

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته
الطيبين الطاهرين .

[١]

الحديث عن العظماء مهمة جليلة وخطيرة في الوقت نفسه .

أمّا جلالتها ، فلأنّها تهدف إلى تقديم المثل الأعلى والقُدوة الصالحة لإنساننا
الثائ الخيران ، سعيّاً إلى إنقاذه من متاهات الخيرة والضياغ ، والأخذ بيده إلى
شاطئ السلامة وبرّ الأمان .

وأمّا خطورتها ، فلما قد يكتنف شخصية العظماء من غموض وضبابية
فرضتها العوامل التاريخية ، وأهمها أن صانعي التاريخ لا يروق لهم في كثير
من الأحيان أن تبقى صورة العظماء نقيّة جليّة ، فيعمدون إلى تشويهها وإثارة
الغبار حولها ، ما يحجب عن الأجيال الآتية وضوح الرؤية ، وربما يساهم
المحبّون في تشويه صورة عظيمهم عندما يندفعون إلى تضخيم شخصيته
وإحاطتها بهالة من الخرافات والأساطير .

وبقدر ما يكون الحديث عن شخصية العظماء والأبطال أمراً نافعاً ومفيداً إذا اتسم المتحدث بالموضوعية وترك ميوله وأهواءه العصبية جانباً ، بقدر ما يكون - هذا الحديث - ضاراً وخطراً إذا فقد المتحدث تلك الضوابط والأسس وخرج عليها .

[٢]

وإن تاريخنا الإسلامي لم يكن بدعاً من تاريخ الأمم والشعوب ، فقد لعبت الأهواء والعصبية دورها الكبير في تدوينه وكتابته ، وألقى الوضّاعون والقصاصون ما في جعبتهم من خرافات وأساطير ، فتلقفها كاتبو التاريخ على أنها الحق والحقيقة ، فكانت المحصلة ما عرف فيما بعد بـ «الموضوعات في الأخبار والآثار» و«الإسرائيليات» و«الأخبار الدخيلة» . . . وتزداد الصورة تعميماً وتعقيداً إذا تعلّق الأمر بتاريخ أهل البيت (ع) ، والسبب في ذلك أنهم رفضوا الاعتراف بشرعية السلطات المتصدية لخلافة رسول الله (ص) ، وشكلوا مع أشياعهم وأتباعهم الخط المعارض لتلك السلطات ، وتحملوا في هذا السبيل الظلم الكبير والقهر الطويل والأذى المتواصل .

وكان من أكبر الظلم الذي لحق بهم هو العمل على تشويه صورتهم الناصعة البيضاء ، لقتلهم معنوياً بعد أن قتل أكثرهم أو كلهم جسدياً ، وكثرت محاولات التعتيم الإعلامي لطمس دورهم الكبير في صيانة العقيدة الإسلامية وحراسة الشريعة المقدسة منبغي الجاحدين وشبهات الملحدّين وشذوذ المغالين .

وكان نصيب سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) من هذا التعظيم كبيراً ، وحظها من ذلك التشويه وافراً .

[٣]

لكن لأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ولأنّ على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً ، كان لا بدّ لنور أهل البيت (ع) ، وهو نور الإسلام ، أن يشقّ الظلام مهما كان دامساً ، ولا بدّ لحقهم أن يرسل أشعته إلى كل الآفاق مهما كانت نائية وبعيدة ، ولم تستطع ولن تستطيع كل محاولات التشويه والتعظيم أن تحجب ذلك النور ، أو تمنع الفجر من الظهور ، وكما قالت عقيلة بني هاشم زينب الكبرى وهي تخاطب يزيد بن معاوية : «فكدّ كيدك واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تدرك أمدنا ولا تبلغ غايتنا ولا تمحو ذكرنا» لماذا؟

لأن ذكر أهل البيت (ع) هو ذكر الإسلام وأمرهم أمر الإسلام ، وقد وعد الله أن يظهره على الدين كلّ ولو كره المشركون ، هذه هي سنة الله ومشيتته ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولا لمشيئته تبديلاً .

[٤]

ولأنّ الله أراد لستته أن تتحرك بالأسباب الطبيعية وليس بقانون المعجزات وخوارق العادات ، فقد قيّض لدينه رجالاً لا يزال يرعف بهم الزمان ويتقوى بهم الإيمان ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن قول الحق والعمل به ، تحمّلوا المشاقّ والأعباء في سبيل نشر الإسلام وبثّ تعاليمه في النفوس ، بهدف

إحيائها وإنقاذها من الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء ، ووقفوا بكل صلابة وقوة لا تأخذهم في الله لومة لائم ، بوجه كل من تسوّل له نفسه إطفاء نور الإسلام المتجسّد بالقرآن الكريم وسنة النبي وآله الطاهرين ، فحاضروا وخطبوا ووعظوا في مختلف المحافل ، وألّفوا الكتب والرسائل التي لا تحصى كثرة ، دفاعاً عن الحق وأهله ، وذوداً عن الدين وحماته .

[٥]

وهذا الكتاب الذي نقدمه إليك أيها القارئ الكريم ، يحوي أفكار واحد من أولئك الرجال الذين أعدّهم الله لنصرة دينه وأدّخرهم للذود عنه . . عنيت به سماحة سيدنا الأستاذ العلامة الفقيه آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله أطل الله في عمره الشريف .

وأهمية الكتاب أنه يقدم المثل الأعلى والقدوة الصالحة لإنسان عصرنا التائه الحيران ، لاسيّما المرأة التي لا يزال يُفرض عليها أن تفكر وتتحرّك كأنثى لا كإنسان ، ويتعامل معها على أنها عنصر إغراء لا عنصر إبداع ، والتي بدل أن تنطلق لتأخذ حريتها بنفسها وتشارك الرجل في صنع الحياة ، انتظرت أن يمنحها الرجل هذه الحرية ، وإذا به يعطيها تحرراً من كل القيم والأخلاق ، وبذلك بقيت تعيش على هامش الرجل ، الذي حولها إلى سلعة تجارية واستغل جسدها للإعلان والدعاية .

وانسجماً مع هذا الهدف - وهو تقديم النموذج والقدوة لإنسان العصر - فإن الكتاب لا يستغرق في التفاصيل التي تقلّ فائدتها ، وإنما يركّز على الدروس

العملية التي يعمّ نفعها ، والعبر والمواعظ التي يجب تعلّمها من سيّدة نساء العالمين ، ولهذا ترى إسهاباً في الحديث عن خصالها وأخلاقها ومواعظها وخطبها وجهادها وصبرها في كل المعاناة ومواجهتها لكل التحديات .

إنه يقدم الزهراء إنسانة رسالية ، لا تتحرك إلا في طريق الحق ولا يزعجها إلا الباطل ، والإسلام أكبر همها ومبلغ علمها ، بكأؤها للرسالة لا للذات ، وفرحها فرح الرسالة لا فرح العبث واللغو ، وغضبها غضب للحق لا للقراية والنسب ، وكل خطواتها تسير في خط الرسالة وعلى هدي الرسول (ص) ، وبهذا سادت نساء العالمين ، وتفوّقت على نساء المؤمنين .

[٦]

ونحبّ أن نلفت نظر القارئ الكريم ، إلى أنّ الكتاب بالأساس مجموعة من المحاضرات والخطب ألقاها سماحة السيّد في مناسبات عديدة على أكثر من منبر ، وتاريخ بعضها يعود إلى أكثر من ثلاثة عقود ، وكان دورنا وجهدنا الذي بذلناه ، هو تهذيب هذه المحاضرات والخطب وترتيبها وحذف المكرر منها ، فكان هذا الكتاب ، الذي إن كان لا يزال فيه شيء من الهفوات في سبكه وترتيبه ، فإن مردّ ذلك إلى طبيعة عملنا فيه ، وهو تحويل المحاضرات إلى كتاب مع وجود فارق كبير بين أسلوب المحاضرة ولغتها ، وأسلوب الكتاب ولغته .

ورجأؤنا من القارئ الكريم أن لا ييخل علينا بملاحظات التي تغني الكتاب وتثريه وتصوّبه .

[٧]

وحرصاً منا على توثيق الكتاب ، نذكر قائمة بالمصادر التي اعتمدنا عليها في إعدادهِ وتنسيقهِ :

١- محاضرة ألقاها في جمعية أسرة التآخي بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية، ١٣٨٦هـ، ١٠/٩/١٩٦٦.

٢- محاضرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٩٢.

٣- محاضرة ألقيت في كلية الحقوق بتاريخ، ٦/١٢/١٩٩٣، وكانت بعنوان «الزهراء قدوة الإنسان».

٤- محاضرة ألقيت في المعهد الشرعي الإسلامي في بيروت، الحوزة النسائية، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية، ١٤١٤هـ.

٥- محاضرة ألقيت في كلية الطب في الجامعة اللبنانية بتاريخ ٢٤/١١/١٩٩٤.

٦- محاضرة بعنوان «دور المرأة المسلمة إزاء التحديات المعاصرة» ألقيت في بدنايل-البقاع، بتاريخ ٩/١٠/١٩٩٤، في ذكرى ولادة السيدة زينب(ع) يوم الممرضة العالمي.

٧- محاضرة ألقيت في حسينية الزهراء(ع) بدمشق- الست زينب(ع) بمناسبة ولادة الزهراء(ع) وهي بتاريخ ١٩/١١/١٩٩٥.

- ٨ - محاضرة بتاريخ ٧/١٠/١٩٩٥.
- ٩ - محاضرة بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٩٥.
- ١٠ - محاضرة في دمشق بعنوان «كيف نعيش الزهراء (ع)»، ألقاها بتاريخ ٢٦/١٠/١٩٩٦.
- ١١ - خطبة الجمعة في بيروت، بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٤١٧ هـ، ٤/١٠/١٩٩٦.
- ١٢ - محاضرة ألقيت في حوزة المرتضى (ع) بدمشق بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٤١٨ هـ، الموافق ١٣/٩/١٩٩٧، بعنوان «نداء الزهراء كونوا للإسلام».
- ١٣ - خطبة الجمعة في مسجد الإمامين الحسنين (ع) في بيروت بتاريخ ٧ جمادى الأولى ١٤١٨ هـ، الموافق ١٩ أيلول ١٩٩٧ م، بعنوان «الزهراء الصابرة على الأذى والمظلومية».
- ١٤ - مقابلة مع صحيفة «دار الإسلام» الصادرة في لندن في جمادى الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، العدد الحادي عشر.
- ١٥ - خطبة الجمعة في بيروت بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية ١٤١٨ هـ، الموافق ٢٤ تشرين الأول ١٩٩٧، وهي بعنوان «الزهراء (ع) النموذج الأكمل للمرأة المسلمة».

١٦- محاضرة في حوزة المرتضى (ع) بدمشق بعنوان «فاطمة الزهراء
الرمز الإسلامي المقدس لدى جميع المسلمين» بتاريخ ١٧ جمادى
الأولى ١٤١٩ هـ، ٥/٩/١٩٩٨، وهذه المحاضرة مع المحاضرات الستة
الآتية بعدها تدور حول شرح خطبة الزهراء (ع).

١٧- محاضرة في دمشق أيضاً وفي حوزة المرتضى (ع) بتاريخ ٢١
جمادى الأولى ١٤١٩ هـ، ١٢/٩/١٩٩٨، بعنوان «أسرار النبوة
والبعثة والقرآن».

١٨- محاضرة في المكان السابق بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٤١٩ هـ،
١٩/٩/١٩٩٨، بعنوان: «أسرار التشريع الإسلامي ومراميه».

١٩- محاضرة في المكان السابق بتاريخ ٥ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ،
٢٦/٩/١٩٩٨.

٢٠- محاضرة في المكان السابق بعنوان الدفاع عن الحق والحقيقة
بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ، ٣/١٠/١٩٩٨.

٢١- محاضرة في المكان السابق بعنوان «منهجية قراءة التاريخ وفهمه».
أُقيمت بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة الموافق ١٠/١٠/١٩٩٨.

٢٢- محاضرة في المكان نفسه بعنوان «الاحتجاج بالقرآن أولاً» بتاريخ
٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٩ هـ، ١٧/١٠/١٩٩٨.

٢٣ - محاضرة في المكان نفسه بعنوان «عصمة الزهراء» أُلقيت في ١٧ جمادى الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٢٨/٨/١٩٩٩، وطُبعت في قم بعنوان الحزن الرسالي.

وهناك عشرات المحاضرات الأخرى لم نستطع تحديد تاريخها، منها:

٢٤ - محاضرة بعنوان: «الزهراء العابدة المسؤولة الزوجة».

٢٥ - محاضرة بعنوان: «كيف نعيش الزهراء(ع)».

٢٦ - محاضرة بعنوان: «حب الزهراء(ع)».

٢٧ - محاضرة بعنوان: «الزهراء والدفاع عن الحق».

٢٨ - محاضرة بعنوان: «الزهراء نموذج المرأة في الإسلام».

٢٩ - محاضرة بعنوان: «القدوة لماذا».

٣٠ - محاضرة بعنوان: «دور المرأة الرسالي في ذكرى السيِّدة الزهراء».

٣١ - ومن المصادر التي اعتمدنا عليها أيضاً كتاب «في رحاب أهل البيت(ع)»

الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م - دار الملاك - بيروت.

٣٢ - ومنها رد السيّد على الاستفتاءات الموجهة إلى بعض مراجع قم

المقدسة.

[٨]

وأخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الكتاب موضع رضاه، وأن يزيل به بعض الشبهات والالتباسات التي علقت في بعض الأذهان حول موقف سماحة السيّد في ما يرتبط بشأن السيدة فاطمة و قدسيتها وعصمتها ومظلوميتها..

ونسأله تعالى أن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يجعل سيدتنا فاطمة شفيعة لنا يوم العرض الأكبر، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

١٨ جمادى الأولى ١٤٢١ هـ

حسين أحمد الخشن

المركز الإسلامي الثقافي

الفصل الأول

■ الزهراء قدوة

- نحن والتاريخ
- أهل البيت (ع): مثل أعلى وقيمة مستمرة
- لماذا القدوة؟!
- في حركة القدوة لا فرق بين الرجل والمرأة
- الزهراء (ع) وحاجتنا للقدوة
- استعادة التاريخ والوحدة الإسلامية
- كيف نشير ذكرياتنا التاريخية؟!

نحن والتاريخ

قد يقول البعض: لماذا هذا الإلحاح على استعادة الذكريات الدينية في كل مناسبة والتركيز على شخصيات إسلامية معينة؟

وربما يتساءل آخرون: ألا يوجد في حياتنا الحاضرة الزاخرة بالأحداث المنطلقة أبداً نحو كل جديد، أليس فيها ما يشغل بال الإنسان ويستثير فضوله ويغنيينا عن تلمس الفكرة في أعماق التاريخ؟

لماذا كل هذا؟

هل هي قصة التقاليد التي تفرض علينا التعبير عن مشاعر القداسة وعواطفها في احتفالات تقليدية نمارسها كما نمارس عاداتنا المتكررة، من دون أن نحصل على شيء إلا ما يحصل عليه الإنسان الذي يعيش في ضباب الأحلام؟

وقد يتساءل بعض ثالث: لماذا نتوقف مع التاريخ والحياة تركض، والإنسان يصنع في كل يوم تاريخاً جديداً، قد يكون تاريخ المأساة وقد يكون تاريخ الفرح، قد يكون تاريخ النصر وقد يكون تاريخ الهزيمة، هل نحن بحاجة إلى أن نرجع إلى الماضي، والحاضر يشغلنا كل يوم بكل جديد،

بكل التحدياء التي تقفحمناففهز الأرض من فف ف أقدامنا؟ هل نحن نعود إلى الماضي لننسى الفاضر؟

ولنا أن نجيب عن هذه التساؤلات الفائرة والمشككة:

فاريخنا.. جذورنا:

١- إن الفاريخ بعناصره المشرقة، ونماذجه الفية، وصوره الرائعة يمثف جذورنا، والجذور يجب المفاظة عليها وفعميقها وفأصيلها على أساس الفق والفعل، لأن أمة بلا جذور هي أمة يمكن لأية ريح أن فسفأصلها بسهولة، هي أمة لا فسفم لا في معفر الفضاراء وفسدامها، ولا في حوارها وفلاقياها.

المثف الأعلى:

٢- إن الفصة ليست قصة فقاليد فابفة وعاءاء ففأصلة، وليسف قضية فعبير عن شعور مبهم بفقاسة الفاريخ والماضي، وإنما فسفنا نحن، جيل القرن العشرين، الذي افففم مثله الأعلى، ليشغل نفسه بأبطال الأفلام الإجرامية والفاطفية، ليقفدهم ما شاء من الفقليد، وليجري وراءهم في كل مجال فاركاً وراءه كل مثله وقيمه في عباءة فسفيرة صاخبة.

إنها قصة هذا الجيل الذي ضاع منه مثله الأعلى، لأن طبيعة الفياة المادية التي نعيشها بكل ما فيها من فسوة وجفود وحرمان، لم فعد فهيء له البطولات الروحية التي فسفهي الروح وفملك الوجدان والقلب.

إنها قضيتنا نحن الذين افتقدنا المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في واقعنا المعاصر، فرجعنا إلى التاريخ نتلمس فيه مثلاً أعلى الذي تتجسد فيه أريحية الإنسان، إلى جانب طهر الملائكة، وتتمثل في حياته الداخلية والخارجية أصدق معاني العقيدة وأسمى مواقف التضحية وأروع القيم الإنسانية التي تحتضن كل ما في الحياة من إشراق وصفاء.

وهكذا نلتقي بالذكريات التاريخية في شعور عميق بالحاجة إلى أن نتمثل ذلك الواقع الذي عاشت شخصياتنا الإسلامية في إطاره، ومثلته أصدق تمثيل.

ولهذا التقت حاجتنا إلى المثل الأعلى الذي نفتدي به ونسترشد بخطواته ونستنير بأنواره، بالصفوة الصافية من أهل البيت (ع)، لتكون حياتهم مثلاً أعلى لنا؛ يرفعنا بالحق، ويصونه بالروح، ويشد خطاه بالإخلاص.

الحق لا يؤرخ:

٣- إن رجوعنا إلى التاريخ ليس معناه أن نتجمد في التاريخ أو أن نعيش الماضي، لأنه وفي مدى التاريخ توجد محطات ليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، لأنها محطات الحقيقة ومحطات القيمة والحق والعدل الذي ليس له عمر محدد في الزمن، بل هي الزمن كله والحياة كلها، فالحق يعطي الزمن معناه ولا يعطيه الزمن تاريخه، لأن الحق لا يؤرخ.

فإذا سبرنا غور التاريخ، فلأن لنا في هذا التاريخ أكثر من قيمة، قيمة ترتفع بالروح فيشعر الإنسان أن معه روحاً تحلق لا يحس معها بشيء من

دَرَن المادّة وشوائبها، ولأن لنا في التاريخ خطأ لا بد لنا أن نسير عليه، ولأن لنا في هذا التاريخ الإسلامي رسالة ورسولاً وأئمة ونماذج حيّة، لنا أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

أهل البيت (ع): مثل أعلى وقيمة مستمرة

إننا عندما نقدر أهل البيت ونعظم شخصياتهم، فلأنهم باعترافنا المثل الأعلى للبشرية جمعاء، والقيمة المستمرة التي تمد الحياة كلها بالحياة والروح، وتملأها بكل المعاني السامية والأخلاق الرفيعة.

فهم في حياتهم كلها لا ينطلقون من صلتهم بالرسول الأعظم وحسب، وإن كانت هذه الصلة تمثل الشرف الرفيع في مقياس النسب وطبيعة الوراثة، وإنما ينطلقون من واقعهم الأصيل الذي تتمثل فيه كل معاني الرسالة وكل ملامح الرسول (ص).

وهم لا يريدون لنا أن نقنع بحبهم ولا يتهم عن العمل بسيرتهم والأخذ بتعاليمهم، بل يريدون لنا أن نعمل لنحقق بعملنا أهداف الإسلام الكبرى وغاياته المثلى.

من هنا كان الإلحاح على استعادة ذكرياتهم يمثل الإلحاح الواعي على استعادة القيم التي يمثلونها، والمعاني الحية التي يحملونها، والطهارة الصافية الخالية من كل دنس يشوه وجه الإنسانية ويلوث ضميرها، كما

أراد الله لهم أن يكونوا، وكانوا كما أراد ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولهذا فقصتنا معهم ليست قصة نبضة قلب وخفقة شعور، ولكنها قصة رسالة، قصة أناس يمثلون كل الحقيقة وكل النقاء والطهارة، ليس في شخصياتهم. كما تفيد الآية - أية شائبة فكر، وشائبة الفكر هي الباطل، وليست في شخصياتهم أية شائبة حركة، وشائبة الحركة هي الظلم، وليست في شخصياتهم أية شائبة انحراف، وشائبة الانحراف تعني الكفر والضلال والفسق والتمرد على الله.. إنهم يعيشون الفكر الطاهر فلا يقترب الخطأ والباطل إلى فكرهم، لأن الباطل قذارة، والخطأ فيه شيء من القذارة، ويعيشون طهارة الروح، فهم يخلقون مع الله، يعرفونه حق المعرفة «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»^(١). يحبون الله حباً يجعلهم يحسون باللوعة عندما يتصورن ألم فراقه: «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني يا إلهي صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك»^(٢).

هكذا يدعو علي (ع) الذي كان يعيش حب الله سبحانه، حتى أنه لا يرى في النار مشكلة إلا من خلال أنها تمثل لمن يدخلها فراق الله، وكانت كل حياته تتمحور في كلمة وحول كلمة واحدة هي «الله»، وعندما أحب رسول

(١) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج: ٤٠، باب: ٩٣، ص: ١٥٣، رواية: ٥٤. دار إحياء التراث

العربي، الطبعة الثالثة، بيروت. لبنان، ١٩٨٣ م.

(٢) دعاء كميل.

الله (ص) لم يحبه قريباً وابن عم، بل لأنه رسول الله ، وأقبل عليه يتعلم منه مما علّمه الله، ويتغذى من رسالته التي أرسله بها.. وهكذا صاغه رسول الله (ص) منذ طفولته صياغة جعلته نفسه في الروح ونفسه في الحركة ونفسه في السلوك، كما شهد الله بذلك في كتابه العزيز: ﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ [آل عمران: ٦١]، وعلّمه ممّا علّمه الله: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»^(١)، وقد باع عليّ نفسه لله حتى نزل فيه قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وهكذا كانت سيرة الصفوة الطاهرة من أهل البيت (ع)، يعيشون مع الله ولله وفي سبيل الله. وهذا ما جعلهم ينطلقون بعيداً عن ذواتهم، ليعيشوا الرسالة كلها في فكرهم.. في إحساسهم.. في حركتهم... في أحلامهم.. حتى كان كل واحد منهم قرآناً يتحرك في الحياة. ولهذا فإننا عندما نرجع إلى تاريخهم، فلأننا نريد أن يزورونا في حاضرنّا، لا أننا نريد أن نرجع إلى الماضي لنزورهم فيه، لأنهم لا يمثلون ماضياً. كان وجودهم في الماضي ولكن معنّاهم هو سرّ الحياة، فنحن بحاجة إلى أن يزورونا، أن تزورنا كلماتهم.. ووصاياهم.. ومواقفهم، من أجل أن نتحرك في خطهم ونسير على خطاهم، وبذلك نكون من المحبين والموالين لهم حقاً وصدقاً.

الفرق بين الحب والولاء:

إنّ حب الكبار وحب الرساليين ليس عاطفةً، ولكنه موقف، وهذا هو

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٠، باب: ٩٣، ص: ١٣١، رواية: ١٠٠، عن الخصال، ج: ٢، ص: ١٧٦.

الفرق بين أن تكون المحب وبين أن تكون الموالي؛ فالولاء موقف والحب عاطفة، ومن الطبيعي أن الموقف لا بد أن يعيش العاطفة ويتحرك بها، ولكنه يتجاوزها ليكون انفتاحاً على الرسالة كلها من خلال الانفتاح على الذين يحملون الرسالة ويمثلون الشرعية.

نعم، إن قيمة ما يقوله أهل البيت (ع) وقيمة ما يفعلونه أنه يمثل الشرعية كلها، فإن الإنسان عندما يأخذ كلاماً أو يقتدي بسيرة تخطئ وتصيب، فإنه يظل حائراً في شرعية ما رآه أو سمعه، ولكنه عندما يعتمد على نماذج معصومة طهرها الله من الرجز وأذهب عنها، فليس للباطل مكان في ما تفكر فيه، وليس للظلم مكان في ما تتحرك به، عند ذاك يكون قد أخذ الحقيقة من ينبوع الصافي الذي لا يعكر صفوه شيء، وقد قالها الإمام الصادق (ع): «حديثي.....» كل حديثه في ما أعطى من مفاهيم وفي ما حرك من خطوط وناقش من أفكار وأفتى من فقهٍ «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عز وجل»^(١).

ووال أناساً قولهم وحديثهم روى جدنا عن جبرائيل عن الباري

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، كتاب القضاء، باب: ٨، من أبواب صفات القاضي، الحديث: ٢٦،

مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم-إيران.

لماذا القدوة؟!

بعد أن عرفنا أنّ حاجتنا لأهل البيت (ع) هي حاجتنا إلى القدوة والمثل الأعلى، يبقى علينا أن نعرف سرّ الحاجة إلى القدوة، فلربّ إنسان يتساءل: لماذا القدوة في حركة الإنسان في الحياة؟

لم لا تكفي الفكرة التي تدخل في وعي الإنسان لتقوده نحو الحركة؟ لم يبحث الناس في كل حركة الإنسان في الحياة عن النموذج الكامل أو الأكمل للفكرة؟

وفي مقام الإجابة عن هذا التساؤل نقول:

إنّ حيوية الفكر وفاعليته لا يمكن أن تنكّس إلا من خلال التجربة الإنسانية، لأن الإنسان في كثير من الحالات، إذا أراد أن يعالج المسألة بطريقة فكرية عقلية تحليلية بعيداً عن التجربة والواقع، فإنه قد يغرق في متاهات الجدل الذي يمكن أن يُصوّر الفكرة بأكثر من صورة ويعطيها أكثر من لون، من دون أن ينزل إلى عمق الفكرة أو يتفاعل مع حيويتها، ولكن التجربة الحيّة تعطيك الواقع الذي أبدعته وتقدم لك الفكرة متجسدة في حياة الإنسان، ولذا فإنك لا تحتاج وأنت تؤصّل الفكرة في الوعي، إلا أن تقدّمها

وهي تعيش واقعاً حركياً متحركاً في الأرض من خلال الإنسان .

ونحن نعرف أن التجربة هي إحدى المنهجين في عملية المعرفة، فإذا كان العقل التأملي يمثل نافذة على المعرفة، فإن التجربة تمثل نافذة واسعة عليها، وربما لا يستطيع العقل أن يبدع الحقيقة إلا في تفاعله مع التجربة، كما أن التجربة لا تستطيع أن تحقق امتداداً للفكرة إلا من خلال العقل. ومن هنا، فإننا نعتقد أن المعرفة لا تتحرك في منهجين منفصلين، لأن هناك تمازجاً بين المنهجين العقلي والتجريبي .

إن المسألة هي أن الفكرة قد تبقى خيلاً لا يرى الناس فيها أي واقعية، وقد تنطلق لتوحي للناس في حالات من التساؤل والشك أنها لا تملك كل عناصر التطبيق في حركة الواقع الإنساني إذا كانت تملك بعض العناصر. لذلك كان الإنسان في كل تساؤلاته عن واقعية الفكرة وعن حركيتها يبحث عن تجسيدها في الواقع وعن أنسنتها في الإنسان، لأن الفكرة تبقى شيئاً في العقل، فإذا تحركت في الواقع صارت إنساناً يتحرك .

والذين يمثلون حركية الفكرة في الواقع، هم الذين يمنحوننا في حركتنا الفكرية الثقة بالفكرة كشيء يمكن أن يدخل في حركتنا في الحياة كما دخل في عقولنا في الوعي .

في حركة القدوة والقيمة لا فرق بين الرجل والمرأة

هل نستطيع أن نفصل في الحاجة إلى القدوة بين المرأة والرجل؟ وهل تجاوز الرجل مسألة الحاجة إلى القدوة حتى تقدّم المرأة كإنسان يركّز وراء هذه الحاجة؟ وهل نحن في كل ما يعيشه إنساناً ما من غنى في الفكر أو في الحركة أو في كل عناصر الشخصية، هل نستطيع أن نفصل بين هذا الإنسان وبين الإنسان الآخر ليكون نموذجاً لفريق دون أن يكون نموذجاً لفريق آخر أيضاً؟

إن المرأة عندما تختزن حيوية الفكرة الكبيرة في داخل شخصيتها، فإنها لا تنطلق من خلال شخصيتها كامرأة، ولكن من خلال شخصيتها كإنسان تحمل بعض العناصر التي تميزها عن الإنسان الآخر الرجل، ولكنها تشترك معه في القاعدة العامة التي تنتج الفكر وتنتج الحركة.

إن المرأة النموذج هي الإنسان النموذج الذي يمثل قدوة للرجل والمرأة على السواء، والرجل النموذج هو الإنسان النموذج الذي يمثل القدوة للمرأة والرجل على السواء.

إننا نجد أن المسألة التي تفرض نفسها علينا في كل واقعنا الفكري الذي يبحث عن أرض ينغرس فيها، أو عن إنسان يتجسد فيه، أو عن أفق ينطلق معه، هي أن الرجل والمرأة سواء في الحاجة إلى ذلك.

وانطلاقاً مما تقدم، نلاحظ أن القرآن الكريم الذي رسم الخطوط الإسلامية العامة عندما تحدث عن المسؤوليات العامة، لم يتحدث عن رجل فقط، وإنما تحدث عن رجل وامرأة، عن المؤمن والمؤمنة: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالمؤمن إلى جانب المؤمنة يتحركان في مسؤوليتهما أمام الله لتنفيذ تعاليمه ووصاياه ووصايا نبيه (ص) وأوامره ونواهيه... وهكذا عندما تحدث عن جهد الخير في الرجل وجهد الخير في المرأة فإنه خاطبهما معاً: ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالعامل لا يتميز فيه الرجل عن المرأة، بل ربما كان عمل المرأة أغنى وأسمى وأعمق وأكثر امتداداً في الحياة، من المستوى الذي عند بعض نماذج الرجال.

ولو تجاوزنا المسؤوليات والخطوط العامة إلى التفاصيل، لوجدنا أن القرآن لا يفرق بين الرجل والمرأة في كل التفاصيل الإسلامية التي تتمحور حول عناوين الخير والعمل الصالح وعناوين الفضائل، فنحن نقرأ مثلاً في سورة الأحزاب عن النتائج الأخروية الإيجابية لدى الرجل والمرأة: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقات

والصابرين والصابرات والخاصعين والخاصعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴿الأحزاب: ٣٥﴾.

إذاً ليس هناك فرق في حركة القيمة؛ قيمة العقيدة وقيمة العمل الصالح وقيمة الموقع والموقف بين رجل وامرأة، لأن إنسانيتهم معاً هي التي تستطيع أن تغني الحياة بالإسلام والإيمان والصدق والقنوت والصبر والصيام وذكر الله والعفة وما إلى ذلك من المعاني والفضائل السامية.

المرأة قدوة للرجل والمرأة معاً:

وقد لاحظنا أيضاً أن القرآن الكريم جعل المرأة في واقعها السلبي وفي واقعها الإيجابي، مثلاً للرجال والنساء معاً، لم يجعل المرأة مثلاً للمرأة ليجعل الرجل مثلاً للرجل، لأنهما لا يفترقان في عناصر الإنسانية العميقة التي تعيش في كل حركيتهما في الحياة.

ففي الجانب السلبي الذي يريدنا الله الابتعاد عنه، يضرب لنا القرآن المثل الآتي:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ [التحريم: ١٠].

فالإنسان عندما يتحرك في خط الانحراف والخيانة - خيانة الرسالة وخيانة المسؤولية - فسوف يجازى بعمله ولا يجزى عنه غيره، لأن

المسؤولية في الإسلام فردية، والله لا يحابي إنساناً يعيش الكفر لمصلحة إنسان يمثل الإيمان، ولذلك جعل امرأتي نوح و لوط (ع) مثلين للرجل والمرأة معاً، ليعلمنا أن على الإنسان أن لا يعتمد على علاقته النسبية أو السببية ببعض الكبار، فيفكر بأن الله سبحانه يغفر له ذنوبه أو يعفيه من المسؤولية التي جعلها للكافرين، لحساب هذا الإنسان الكبير أو ذاك الإنسان العظيم، لأن الله أعدّ الجنة لمن أطاعه ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ [الرعد: ٢٣]. فالزوج الصالح ينطلق مع الزوجة الصالحة إلى نعيم الله، أما الزوجة الكافرة عند الزوج المؤمن ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ [التحريم: ١٠]،

وفي الجانب الإيجابي الذي يريدنا الله الاقتراب منه ، يضرب لنا المثل الآتي: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [التحريم: ١١].

هذه الإنسانية عاشت في قلب مجتمع الكفر وفي أعلى مواقعه المتمثلة بادّعاء زوجها الربوبية، لكنها ورغم أن أبواب الحياة الرحبة كانت مفتوحة أمامها، ورغم تجمع كل الامتيازات والشهوات لديها، إلا أنها رفضت كل ذلك النعيم وانفتحت على عبادة ربها، فكانت الإنسانية القوية في إيمانها، القوية في موقفها، المتمردة على كل السلبيات التي تعيش في ساحتها، الراضية لكل الظلم الذي يمارسه زوجها الظالم في موقعه وفي موقفه وفي ممارساته ضد الناس المستضعفين .. وعندما كان الناس يحدّقون بزوجها في عظمتها، كانت تحدّق بالله في إيمانها، وكانت تتحرك على أساس أن تطلب من الله أن

يعطيها العون على أن تتحرّر من فرعون وعمله، وأن تتحرّر من كل المجتمع الظالم، وأن يرضى الله عنها، لأن قصتها في إيمانها هي أن يرضى الله عنها، ذلك هو وعي إيمانها، وليست المشكلة أن يرضى زوجها أو الظالمون عنها، لأن القضية هي أنها أخلصت لإنسانيتها في إخلاصها لإيمانها، ولم تشعر أن زوجيتها لهذا الإنسان الذي تألّه واستكبر تجعلها تعيش دور المنفصلة في كل أحوالها، ولكنها أرادت أن تكون بشخصيتها القوية قوة إيمانها، الإنسان الفاعل في حركته في الحياة.

وبذلك أثبتت أن المرأة عندما تعيش الإيمان العميق الذي يتحرك في عقلها وينبض في قلبها ويعيش في حركتها، لن تكون الإنسانية الهامشية اللاهثة وراء غرائزها وشهواتها، بل تكون الإنسانية المتحرّكة والفاعلة من خلال إرادة متصلب، ومن خلال موقف يثبت، ومن خلال قضية تنطلق.

﴿ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [التحریم: ١١].

إن الاستعانة بالله سبحانه وتعالى هي حركة قوة في الإنسان وليست حركة ضعف، لأن الله يريد من الإنسان أن يتحسس ضعفه بين يديه، لأن ضعفه أمام الله هو حقيقة وجوده، ولكن في الوقت نفسه يريد منه أن ينطلق ليستمد منه القوة والعزة، لأنه «القوي العزيز» ومنه العزة والقوة.

وبذلك نعرف أنّ موقف الضعف بين يدي الله لا يهدم معنى القوة في الإنسان، ولكنه يرجعه إلى طبيعته التي لا تملك كل عناصر القوة أمام النظام

الكوني وأمام كل الأشياء الخارجة عن القدرة، حتى إذا تحركت عناصر ضعفه تشده إلى الأسفل، انفتح على الله ليعطيه القوة الروحية ليرتفع بها إلى الأعلى.

إذاً فالله سبحانه ضرب امرأة فرعون (آسية) مثلاً للرجال والنساء معاً، لينطلقوا في الحياة في الخط الذي سارت عليه، فإذا طلبت الدنيا منهم أن يخضعوا للظلم على حساب إيمانهم وإسلامهم، أو زينت لهم بعض المظاهر والامتيازات الكبرى، فإن عليهم أن يستحضروا هذا المثل الإنساني الحي الذي يمثل قمةً في الالتزام وقمةً في الرسالية والروحانية، وهي امرأة فرعون التي رفضت الدنيا بكل زخارفها وتوسلت إلى الله أن ينجيها منها كما لو كانت مأزقاً تعيش فيه وكما لو كانت مشكلة صعبة تواجهها، وكما لو كان هناك سقوط في حياتها تريد أن ترتفع منه.

هذه هي المرأة التي يضربها الله مثلاً للذين آمنوا .. ويضرب لنا مثلاً آخر للعفة والطهر والنقاء، وهو مريم (ع) ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١٢].

مريم الإنسانية التي امتلأت روحها بكلمة الله قبل أن تأتينا كلمة الله، وامتلاً عقلها بحب الله وبكتاب الله قبل أن ينزل الكتاب على ابنها، والتي رعاها الله وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا وكانت تعيش مع ربها في المحراب ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧].

وهكذا عاشت مريم وصدّقت بكلمات ربها، وامتلأ بها عقلها وقلبها وروحها وكل حياتها، وكانت من القانتين الخاشعين لله المبتهلين له المستحضرين له في كل مجالات الحياة.

إن تجربة مريم بنت عمران(ع) هي تجربة حيّة عاشتها هذه الإنسانية التي جعلها الله مظهراً لقدرته، فحملت بدون زوج، وولدت طفلاً لأب له، ولم تعرف البشرية في كل تاريخها مثيلاً لهذه التجربة الحية التي تحدّت كل ضعف مريم، ضعف الإنسان في عناصر إنسانيتها، وضعف الأنثى في عناصر أنوثتها، ولذلك قالت: ﴿يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ [مريم: ٢٣].

ولكن عندما انطلقت كل ألطاف الله عليها، وعندما تلقت التعليمات الإلهية، استنفرت إيمانها، وسلّمت لأمر الله بكل اطمئنان المؤمن وصبره، ولما قيل لها: ﴿فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ [مريم: ٢٦]، وقفت لتعبّر عن موقفها بالصمت ﴿فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه . ﴿ [مريم: ٢٧ - ٢٩]، دون أن تهتز ودون أن تسقط ودون أن تضعف، أشارت إليه بكل عظمة الرفض لكل هذه الكلمات الجارحة، مطمئنة بأن كل كلماتهم اللامسؤولة ستتساقط أمام قوة إرادتها وصلابة إيمانها.

إنها مثلّ للرجال والنساء على السواء، لكلّ الذين ينطلقون من خلال إيمانهم لينفتحوا على الله وعلى كل ألطافه ورسالته، وليتحركوا في الحياة

عندما يستمدون القوة من الله ليواجهوا صعاب الحياة بكل قوة.

إنه المثل الحي من خلال مريم لكل إنسان يملك البراءة مما يتهمه به الناس، ويملك الموقف الطاهر الأبيض مما يحاط به من تهاويل، أن يقف في قوة براءته وفي قوة طهارته ليواجه الموقف المضاد بكل ثقة واطمئنان.

الزهاء(ع) وحاجتنا للقذوة

وبعد هذا الحديث عن حاجة الإنسان للقذوة، وأن القذوة يمكن أن تكون أنثى كما يمكن أن تكون ذكرًا، نطلّ على حياة سيدتنا فاطمة الزهراء(ع) التي هي من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، ونلتقي بها في مرحلة يضجّ العالم فيه بقضية المرأة ليتساءل: ما هو دور المرأة في الحياة؟ هل هي إنسان من الدرجة الثانية؟ أو هي إنسان تمامًا كما هو الرجل إنسان؟ هل لها الحق في أن تخوض الصراع الاجتماعي والصراع السياسي؟ وأن تدخل في معركة الحياة لتتحدى أو لتواجه التحدي؟ أو أنها معزولة عن أي نشاط اجتماعي أو سياسي، لأن البيت هو مملكتها وليس لها أن تخرج من هذه المملكة؟ ما هو حقها في العمل؟ هل أن أجرها أقلّ من أجر الرجل عندما تعمل أو لا فرق بين عملها وعمله؟ ما الموقف من مسألة العنف الذي يمارسه الرجل ضد المرأة؟ سواء العنف في البيت الأبوي الذي يضطهد المرأة فيلغي لها إرادتها وشخصيتها، أو العنف في البيت الزوجي الذي يتحول فيه الزوج إلى سيّد للمرأة لا تملك معه أي خيار في أن تريد أو لا تريد؟

هذه أمور بدأت تهز العالم، وقد لا يكفي أن نرجم كل هؤلاء بأحجارنا؛

أحجار الكلمات الشاتمة أو المكفرة أو المزندقة، لأن ذلك لن يحل المشكلة، بل أخشى أن نكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال فلا ترى الصياد بينما الصياد يراها جيداً ويصوب إليها بندقيته. علينا أن نتعرف على كل الصيادين جيداً، الصيادين في الماء العكر، والصيادين في الماء الصافي، وإذا أردنا أن نكون واعين وأن نكون رساليين في مستوى الرسالة ونحمل رسالة الإسلام من أجل أن نطلقها للعالم كله، علينا أن ندخل المعركة بسلاح العقل والمنطق، فنجعل عقولنا تنطلق في ميادين المعركة، ونجعل ثقافتنا تتحرك في ساحات المعركة، لأن المعركة ليست معركة بندقية أو مدفع فحسب، ولكنها معركة فكر، فإذا لم نتسلح لها بالعلم والفكر والوعي لكل قضايا العصر، فلن نستطيع أن نحدث شيئاً في جدار العصر فضلاً عن أن ننسفه.

من هنا حاجتنا إلى الزهراء.. حاجتنا إليها هي حاجتنا إلى القدوة والمثل والنموذج، حاجتنا إليها هي حاجتنا إلى الشخصية التي جمعت كل العناصر الحية التي تتوازن وتتكامل فيها الشخصية.

الزهراء (ع) مظهر الفضائل ورمز الطهارة:

إن فاطمة الزهراء (ع) هي مظهر حيّ لفضائل أهل البيت (ع) في كل كلماتها وأعمالها، في زهداها وعبادتها، في أخلاقها ومشاعرها، في إيمانها وتقواها.

فاطمة (ع) هي الاسم الذي عندما نذكره أو نتذكره فإنه لا يوحى لنا إلا

بالطهارة كأصفي ما تكون الطهارة، وبالنقاء كأعذب ما يكون النقاء، وبالإسانية التي تعطي الإنسان قيمته، وبالعصمة التي تتمثلها فكراً في فكرها، وخلقاً في أخلاقها، وسلوكاً في كل حياتها، وشجاعة في الموقف مع الحق، شجاعة رسالية لا شجاعة انفعالية.. كانت وقفاتها وقفات من أجل الحق، وكان حزنها حزن القضية وفرحها فرح الرسالة، ومثلت عمق الإسلام في عمق شخصيتها، واختزنت في داخلها كل الفضائل الإنسانية الإسلامية، باعتبار أن كونها سيدة نساء العالمين يفرض أن تكون في المستوى الأعلى من حيث القيمة الروحية والأخلاقية.

سر الاهتمام بالزهراء:

هذا الذي يجعلنا نهتم بفاطمة الزهراء (ع)، لأننا عندما نذكرها نذكر قضية الرسالة ودور الزهراء فيها، ونذكر حركة الإسلام في القضايا المتحركة التي كانت الزهراء عنصراً حيوياً فيها، إننا نذكرها في ذلك كله، وبذلك نشعر أنها معنا في كل قضاياها وأنها حية تعيش بيننا، فإن أشخاصاً في التاريخ ينتهون عندما يموتون، لأن حياتهم تختصر في مدى عمرهم، وهناك أشخاص يبقون في الحياة ما دامت الحياة، ليبقوا ما بقيت رسالتهم وبقي أناسٌ يفتحون على رسالتهم.. وفاطمة الزهراء (ع) تقع في قمة هؤلاء الأشخاص، ذلك أنك لا تستطيع أن تذكر رسول الله (ص) إلا وتذكرها، لأنها صنيعته وروحه التي بين جنبيه، ولا تستطيع أن تذكر علياً إلا وتذكرها، لأنها شريكته في الحياة والمعاناة، ولا تستطيع أن تذكر الحسن والحسين

وزينب (عليهم السلام) إلا وتذكرها، لأنها سرّ الطهر في طفولتهم وشخصيتهم على مدى الحياة.

هذا هو سر فاطمة (ع) الذي يفرض علينا أن نبقيها في عقولنا وقلوبنا رسالة وفكراً لا دمعة فحسب، فإننا وإن كنا لا نملك إلا أن ننفتح عليها بدموعنا، ولكن الأهم من ذلك أن ننفتح عليها برسالتها، لأنها عاشت كل دموعها وكل حياتها للرسالة ولم تعشها لنفسها طرفة عين، وهذا هو سر كل أهل البيت (عليهم السلام)، أنهم عاشوا للإسلام كله وقدموا حياتهم فداءً للإسلام والرسالة.

ومن هنا، فإننا وبكل فخر واعتزاز نقدم الزهراء (ع) إلى المسلمين جميعاً، كنموذج حي ومثل أعلى جسدت الرسالة الإسلامية أسمى تجسيد، وعاشت في شخصيتها شخصية رسول الله (ص) بعناصرها المميزة والمهمة والمسداة.

استعادة التاريخ والوحدة الإسلامية

وقبل أن ندخل في تفاصيل حياة سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) ومعاناتها وظلاماتها وكلماتها اللاذعة ومواقفها الغاضبة واحتجاجاتها القوية.. نحب أن نجيب عن سؤال يفرض نفسه في هذا المجال، وهو أن قائلاً ربما يقول: لماذا تثيرون مثل هذه الأحاديث وأنتم من دعاة الوحدة الإسلامية؟ والوحدة الإسلامية تفرض أن نغفل التاريخ الذي ينكأ الجراح ويثير الحساسيات، ولذلك فإن الحديث عن الوحدة الإسلامية والإصرار على استعادة التاريخ الذي يمتلئ بالمشاكل بين المسلمين لا يلتقيان؟!

وفي الإجابة عن ذلك نطرح عدة نقاط:

١ - الوحدة لا تمنع من دراسة التاريخ بطريقة علمية:

إننا لا نتصور أن شعار الوحدة الإسلامية يعني دعوة الشيعة إلى أن يتنازلوا عن التزاماتهم الثقافية العقيدية في ما يستنبطونه من التاريخ، أو أن يتنازل السنة عما اقتنعوا به من القضايا التاريخية، وهكذا الشأن في القضايا الفقهيّة والعقائدية، بل إن مسألة الوحدة الإسلامية تنطلق من المنهج

الموضوعي الذي يدرس الواقع التاريخي الإسلامي بطريقة علمية، بحيث يدرس المثقفون والعلماء كل ما بأيدينا من نصوص الكتاب والسنة دراسة بعيدة عن الحساسيات والعواطف، لأن مشكلتنا أننا ندرس الكثير من نصوص التاريخ أو نصوص القرآن الكريم على أساس مشاعرنا لا على أساس عقولنا، ولهذا ترى الكثيرين قد يأخذون موقفاً مسبقاً من مختلف القضايا، فإذا كان النص يتفق مع موقفهم أخذوا به، وأما إذا كان لا ينسجم مع ما توارثوه فإنهم يعملون على تأويله وإبعاده عن ظاهره وعن سياقه، ولذا فقد أصبحت عملية استظهار النصوص خاضعة للذهنيات المسبقة التي تحملها، وغدونا نفرض الكثير من هذه الذهنيات على القرآن نفسه، حتى صار القرآن صورة لما نفكر به، بدل أن يكون ما نفكر به صورة للقرآن، والأمر نفسه حصل بالنسبة للمسائل التاريخية التي تتصل ببعض الخطوط الفكرية والثقافية والعقيدية، فإن البعض يختار من النصوص التاريخية ما يناسبه ويرفض منها ما لا يروق له، أو أنه يحاول أن يرتب التاريخ على حسب مزاجه ومذاقه الفكري، لا أن يجعل مزاجه الفكري خاضعاً لنتائج البحث العلمي التاريخي.

تحكم العاطفة في حركة البحث:

إن مشكلتنا أننا عاطفيون، وعواطفنا هي التي تحكم الكثير من حركة البحث عندنا، ولسنا عقلانيين موضوعيين ندرس الأمور على أساس الكتاب والسنة انطلاقاً من القواعد التي يتلاقى عليها الناس في فهم النص العربي، ولا نخضع تفكيرنا للنتائج المستفادة من الكتاب والسنة، حتى إذا جاءنا

شخص وقال إن الكتاب ظاهر في أمرٍ ما، أو السنّة ظاهرة في حكم ما مما لا يتفق مع المؤلف والمتوارث، نادينا بالويل والثبور وعظائم الأمور، وتحركت حملات التكفير والتضليل والتفسيق.

إن الذين يتبعون هذه الأساليب فيتهمون من خالفهم في اجتهاداتهم بالكفر والضلال والفسق والانحراف، ضعفاء في ثقافتهم كما هم ضعفاء في حجّتهم، لأن من يملك الحجة لا يشتم، ومن يملك البرهان الساطع لا ينطق بالكلمات غير المسؤولة.

اعتماد العقل القطعي:

وعندما ندعو إلى قراءة التاريخ بموضوعية، ندعو قبل ذلك إلى تنمية الذهنية الموضوعية التي تتحرك بدون أفكار مسبقة، بل تلاحظ ما يقوله العقل القطعي لتأخذ به، وليس كل ما يعتبره البعض حكماً عقلياً فهو في الحقيقة حكمٌ عقلي لا بدّ أن نعتمده ونؤول النصوص على ضوءه، بل إن تصوراتهم قد يعتبرونها حكماً عقلياً. ثم إذا امتلكنّا الذهنية الموضوعية نأتي إلى دراسة النصوص التي بأيدينا والتي تمثّل الأساس الفكري عندنا، دراسة من لا يحمل فكراً مسبقاً موروثاً أو مكتسباً من المحيط والبيئة بحيث يحاكم النص ويفهمه على ضوءه.

ونحن نعتقد أن الدراسة الموضوعية لا تنتج حساسيات ولا تخلق مشاكل تؤثر على وحدة المسلمين، لأنها تقوم على أسس علمية تخاطب في الإنسان عقله بدل أن تحرك غريزته وعصبيته، وإنما الذهنيات الغرائزية هي

التي تحاول أن توجه العقل بغرائزيتها ولا تحاول أن تخاطبه بعقلانيته.

٢ - التاريخ جزء من ثقافتنا فلا يمكن إلغاؤه:

إن التاريخ حقيقة لا نستطيع إلغاؤها ولا رميها خلف ظهورنا، لأنه يشكل ثقافتنا وفكرنا، وإن أهملناه في موقع فإنه سيفرض نفسه علينا في مواقع أخرى، لذلك لا بد أن تكون لنا شجاعة دراسة التاريخ بالطريقة الموضوعية العقلانية.

كيف ندرس التاريخ؟

سبق أن كتبت قبل ما يقارب الأربعين سنة في مجلة (الأضواء) التي كانت تصدر عن جماعة العلماء في النجف الأشرف حول «منهج الدراسات الإسلامية بين السند والمتن»^(١)، وقلت: إن علينا أن ندرس النصوص التاريخية كما ندرس القضايا الفقهية على أساس ملاحظة السند والمتن معاً، وهذا المبدأ هو الذي ركّزه القدماء من العلماء وإن فصل المتأخرون بينهما.

فلقد كان العلماء القدامى إذا جاءهم نص نبوي أو إمامي يدرسونه من خلال السند والمتن معاً، أما السند فيدرس من جهة أن الرواة الذي رواوا هذا الحديث أو ذاك هل هم ثقة أم لا؟ فإذا كان رواة الحديث معروفين بالوثاقة والصدق والضبط اعتمدوا روايتهم، وأما إذا كانوا مجهولين لديهم أو معروفين بالكذب والوضع أو لم يكونوا معروفين بالوثاقة، فإن حديثهم

(١) راجع: قضايانا على ضوء الإسلام، ص: ٥٧، دار الملاك، بيروت، ١٩٩٦م، ط: ٧.

يُطرح ما لم تقم بعض القرائن التي توجب القطع أو الوثوق بالصحة من جهة أخرى. ثم إذا فرغوا من السند وثبت لهم وثاقة رواته، انتقلوا إلى دراسة المتن والمضمون من ناحية معناه ولغته وموافقته لحكم العقل أو الشرع الثابت، فإن كان موافقاً لحكم العقل أخذوا به وإلا أولوه، وإن كان موافقاً لكتاب الله عملوا به وإلا طرحوه عرض الحائط، لأن كتاب الله هو الحجة الأساس في توثيق الروايات، كما جاء عن رسول الله (ص) والأئمة المعصومين من أهل البيت (ع): «ما خالف كتاب الله فهو زخرف»^(١).

أما الذي نواجهه مؤخراً، فهو أن هناك قوماً يكتفون بكون سند الحديث مقبولاً دون أن يحاكموا مضمونه، وهناك أناس آخرون - كما هو المشاهد في الدراسات التاريخية لدى المحدثين - يأخذون بمضمون النص دون دراسة السند، وكلا هذين المنهجين قد خلقا لنا الكثير من المشاكل الفكرية والاستنتاجات الخاطئة.

ونحن نعتقد أن المنهج الصواب هو الذي يعتمد دراسة النص ومحاكمته من جهتي السند والمتن معاً.

٣ - الوحدة ليست بإنتاج إسلام بلا مذاهب:

إن شعار الوحدة الإسلامية لا يعني أن نعمل على إيجاد «إسلام بلا مذاهب»، أي إسلام لا لون له ولا طعم ولا رائحة، لأنه لا يمكن أن يكون هناك إسلام بلا مذاهب، لا لأن المذهبية أساسية في الكيان الإسلامي أو في

(١) الوسائل، ج: ١٨، ص: ٧٨، كتاب القضاء، الباب: ٩ من أبواب صفات القاضي، الحديث: ١٢ و ١٤.

شخصية الإسلام، بل لأن المذهبية انطلقت في كثير من خطوطها على أساس اختلاف الفهم وتنوع الاجتهادات فيما يجتهد به هذا بحسب العناصر الاجتهادية الموجودة عنده، وفيما يجتهد به ذاك بحسب العناصر المتوفرة لديه، ولهذا فالحل لا يكمن في إلغاء المذاهب، بل في تحويل هذه المذاهب إلى حركة فكرية في فهم الإسلام، فإن المذهبية الفكرية تغني اجتهاداتنا الإسلامية بخلاف المذهبية العشائرية والعصبية والطائفية المعقدة، فإنها تؤدي إلى مزيد من الأحقاد والثغرات، ومشكلة المسلمين هي أنهم لا يعيشون المذهبية الفكرية بقدر ما يعيشون المذهبية العصبية الممختنقة داخل ذاتها وغير المستعدة أن تنفتح على الآخر لترى ما عنده، وغير المستعدة أن تجد للآخر ولو كلمة حق أو نقطة ضوء، بل تراه ظلاماً دامساً وليلاً داجياً، هذا مع أنه ليس من الضروري أن يكون الشخص الذي تختلف معه شراً كله، ولا أن يكون الفكر الذي يحمله الآخر فكراً باطلاً بأجمعه، بل ربما كان فيه شيء من الحقيقة، ولو أننا ملكنا جرأة الاعتراف له أن في فكره شيئاً من الحق، فإننا سوف نفتح عقله وقلبه أمام فكرنا، وهذا هو المنهج القرآني الذي علينا اتباعه.

بعدنا عن المنهج القرآني:

ولعل من أهم المشاكل التي تمزقنا هي أننا أسقطنا المنهج القرآني من نفوسنا وابتعدنا عنه من خلال عصبياتنا، فالله سبحانه يقول في كتابه: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨]، أي عليك أن تكون عادلاً حتى مع خصمك، فإذا كان لديه بعض الحق فأعطه حقه،

وإذا لم يكن لديه شيء من الحق فحاول إقناعه ومناقشته بالحسنى.

وقد قال الله سبحانه وهو يعلمنا أن نقول كلمة الحق ضد الأقربين إذا لم يكونوا مع الحق : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ [النساء: ١٣٥].

إن معنى ذلك هو أن نكون مع الحق ولو لم يكن الحق معنا بل كان مع غيرنا، وقد ورد في الحديث: «إن سيّد الأعمال إنصاف الناس من نفسك»^(١)، وقد يعتبر البعض أن هذا مجرد مسألة أخلاقية، لكننا نقول إنها تمثل الجانب الأخلاقي في مناهج البحث والجدال مع الآخر أو الصراع معه، فإذا كنّا مسلمين فعلينا أن لا نظلم عدوّنا، لا أن تقتصر على أن لا نظلم صديقنا فقط، وهذا ما عبّر عنه إمامنا زين العابدين (ع) - هذا الإمام القمّة في الروح والقمة في الفكر كما كان الأئمة كلهم قمماً في ذلك، ولكن لكل ورد رائحة - عندما قال في صحيفته السجادية - التي أوصي دائماً أخواني المؤمنين بما أوصي نفسي بأن تكون رفيقهم في كل وقت، لأن فيها الغذاء الروحي والأخلاقي والعقائدي والاجتماعي، والتي تفتح عقل الإنسان وقلبه - وهو يدعو الله سبحانه ، قال (ع): «وارزقني التحفظ من الخطايا والاحتراز من الزلل في حال الرضا والغضب، حتى أكون بما يرد عليّ منهما بمنزلة

(١) الكليني، الكافي، ج: ٢، ص: ١٤٥، رواية: ٧، باب الإنصاف والعدل، دار الأضواء، بيروت. وبحار الأنوار، ج: ٧٢، باب: ٣٥، ص: ٣١، رواية: ٢٤.

سواء، عاملاً بطاعتك، مؤثراً لرضاك على ما سواهما في الأولياء والأعداء، حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري، ويأس ولي من ميلي وانحطاط هواي»^(١)، أي اجعلني يا ربي أعيش على طبق منهج أخلاقي، بحيث لو عاش عدوي معي لقال إن فلاناً مسلم حقاً لا يمكن أن يظلمني أو يجور علي، لأن المسلم لا يظلم ولا يجور حتى على أعدائه، وإذا عاش معي أصدقائي لقالوا إن فلاناً رجل حق وعدل فلا يمكن أن يحابيننا على حساب الحق ليعطينا ما لا حق لنا فيه.

وهذا المنهج هو منهج إسلامي لا يقتصر على المعاملات المادية، بل هو شامل لكل العلاقات الإنسانية، لأنك قد تظلم شخصاً في ماله وقد تظلمه في حوارك معه، فتأخذه بالحق والباطل لتسكته، مع أن المنهج الإسلامي يقول: لا يكن همك أن تسكت خصمك إلا في حالات الضرورة، بل ليكن همك أن تقنع خصمك، ولهذا انتقد الإمام الصادق (ع) بعض أصحابه الذي كان يحاور شخصاً في الإمامة وأتبع معه أسلوباً غير سليم، فقال له الإمام (ع): «إنك أخذته بالحق والباطل وقليل الحق يغني عن كثير الباطل»^(٢)، أي ما الفرق بينك وبينه، فأنت مثله، جدد حقاً وجددت أنت حقاً آخر، هو جدد الحق في النتائج وأنت جددت الحق في المقدمات، ولا فرق بين من يجدد الحق في منهج البحث ومفرداته وبين من يجدد الحق في النتائج.

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء: ٢٢.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج: ٢، ص: ٩٨، مؤسسة آل البيت (ع)، قم، إيران، ١٤١٣.

كيف نثير ذكرياتنا التاريخية؟

للذكريات التاريخية التي ترتبط بحياة أي عظيم من عظمائنا طريقتان في الإثارة:

- هناك طريقة يعيش فيها الناس في الماضي بحيث تنتقل الأمة إلى التاريخ لتسكن فيه وتنفصل عن حاضرها لتعيش مع من عاشوا في التاريخ. وهناك طريقة أخرى وهي أن ننقل التاريخ إلى الحاضر لنجعله يتفاعل معه ويعطيه من إحياءاته ومن أفكاره ما يجعل منه قوة تتحرك لصنع المستقبل.

وفي الطريقة الأولى لن تستفيد الأجيال شيئاً من التاريخ ومن عظمائه، وإنما تتحول المسألة إلى حالة تقديس للتاريخ وعبادة لعظمائه، بحيث يصبح همُّ الناس ذكر فضائل هذا العظيم أو ذاك، ويستغرقون في شخصيته وينسون دوره وتعاليمه ومبادئه. وهذه هي طريقة الكثيرين الذين عاشوا مع العظماء في التاريخ ولكنهم لم يستفيدوا منهم شيئاً، كما نلاحظ في الكثير ممن يحتفلون بميلاد السيد المسيح (ع) ويقدمونه ويؤلهونه ولكنهم لم يأخذوا منه شيئاً يفيدهم في حياتهم، وهكذا الذين

ينصبون للسيدة العذراء مريم(ع) تماثيل في كل مكان ويتعبدون للتمثال ويخضعون أمامه بكل مشاعرهم وأحاسيسهم، ولكنهم ليسوا مستعدين أن يقتربوا من روح مريم ومن طهرها خطوة واحدة، هؤلاء يتعبدون لمريم ولا يعيشونها.

وهكذا نجد الكثيرين من المسلمين يحتفلون بالنبي محمد(ص) في يوم مولده، ولكن لا يسمحون لمحمد(ص) أن يأتي إلى بيوتهم ليصلحها، أو يدخل إلى عقولهم ليحركها، أو قلوبهم ليطهرها، أو ساحاتهم ليدفعها نحو الجهاد والعمل في سبيل الله.

والحال نفسها نجدها في احتفالاتنا بذكرات أهل البيت(ع)، فترى الكثير يذكرون علياً وحسناً وحسيناً وفاطمة، ويكونهم، ولكن شرط أن يبقوا في أمكنتهم في التاريخ، لأنهم إذا ما جاءوا إلى حياتنا الحاضرة فإنهم يخرّبونها علينا ويفسدونها من خلال تعاليمهم التي ترفض ما نحن عليه من ضلال وانحراف..

وأما الطريقة الثانية، فهي أن ندعو عظماء التاريخ إلينا، نقول للسيد المسيح(ع) ولأمّه العذراء(ع): تعالوا وزورونا في واقعنا، لا زيارة الجسد ولكن زيارة الفكر والأخلاق والروح، ونقول لرسول الله(ص) وأهل بيته(ع): تعالوا إلينا وادخلوا بيوتنا ونوادينا وكل ساحاتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، حتى نستطيع أن نستلهم منكم كل القيم والمعاني السامية.

ونحن نعرف أن العظماء في عظمتهم لا يمثلون جسداً حتى يقال إن الجسد قد أصبح تحت التراب وغاب عن أنظارنا، وإنما يمثلون روحاً والروح خالدة، ويمثلون رسالة والرسالة خالدة، من هنا يصح لنا دعوتهم إلينا لنستمد من روحهم روحاً، ومن رسالتهم رسالة، ومن حركتهم حركة في واقعنا الذي يحتاج إلى الكثير من ذلك.

وفي هذا الجو، فإننا عندما نتحدث عن فاطمة أو نحتفل بذكرها، فهدفنا من ذلك هو أن ندعوها إلى زيارتنا، فيزورنا روحها وخلقها ونورها وعبادتها ومناجاتها لله وحركيتها في توجيه المجتمع.

الفصل الثاني

■ صفحات من حياة سيدة النساء

● ولادة الزهراء (ع) مولد المرأة المسلمة

● الزهراء (ع) في بيت النبوة

● وفي بيت الزوجية

● تربية أولادها

● حياتها والمعاناة

● ظلماتها

ولادة الزهراء (ع) مولد المرأة المسلمة

نلتقي في العشرين من جمادى الثانية^(١) مع ذكرى عطرة أنعشت قلب سيد الخلق محمد المصطفى رسول الله (ص)، وهي ولادة ابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة.

وإذا كنا نريد أن نجري على ما جرى عليه الناس من تقاليد بأن جعلوا لكل عنوان من العناوين الحية في الواقع الإنساني يوماً معيناً (يوم الأم) أو (يوم العمال) أو (يوم المرأة)، فإن أفضل يوم نجعله عنواناً للمرأة المسلمة هو يوم ولادة فاطمة الزهراء (ع). وهذا ما تنبّه له الإمام الخميني (قده) عندما اقترح اعتبار يوم مولدها يوماً للمرأة في العالم.

ولأننا نعرف أن ما جرى عليه الناس في المناسبات والتقاليد

(١) كما صرح به المفيد في مساره ونقل عن حدائقه، وصرح به الشيخ في مصباحه ورواه الطبري الإمامي عن الصادق، ولم نقف له على مخالف صريح (تواريخ النبي وآل للمحقق التستري، ص: ٣٤).

وفي الخبر الصحيح عن الباقر (ع): «ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعث رسول الله بخمس سنين وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً» (الكافي، ج: ١، ص: ٤٥٧، رواية: ١٠).

والذكريات التي يتخذونها أعياداً أو أياماً مميزة يستمد عنوانه من خلال امرأة هنا أو عامل هناك أو .. فإن السؤال الذي يلح علينا ويفرض نفسه، لماذا هي في يوم المرأة العالمي؟ لماذا فاطمة وهي التي لم تتعدّ فترة الشباب؟

والجواب:

١- إننا في يوم المرأة العالمي نريد أن نقدم نموذجاً يستجمع كل العناصر الحيّة التي تمثل كل نشاط المرأة في حياتها الخاصة كبنت وزوجة وأم، وحياتها العامة كمسلمة عاملة منفتحة على قضايا الإنسان في الحياة.

وإننا نجد في الزهراء (ع) الإنسانية المثل والنموذج والقدوة للإنسان المسلم.

وهي وإن لم تتعدّ فترة الشباب، إلا أننا نجد في حياتها طفولة مليئة بالمعاناة والروحانية المؤثرة مما قد لا نجده في أية طفولة أخرى، وشباباً قصيراً، لكنه غني بالقيم والعبر، فحياتها (ع) لم تكن طويلة، لكنها كانت حياة عريضة متسعة، وقيمة حياة الإنسان ليست في الامتداد الذي تتلاحق فيه ساعات الزمن، بل في العمق الذي يعطي للزمن القيمة والحركة والفكر والانفتاح بالمستوى الذي نشعر فيه أنّ ساعة من الزمن تعادل سنوات طوال، فكم ساعة من ساعات الذين اكتشفوا والذين أنتجوا وأثروا بأعمالهم الحياة، تعادل بعطائهم العميق ألف سنة من أعمار الكسالى والخاملين. فالمسألة إذاً ليست في امتداد الحياة على مستوى الطول بل في امتدادها على مستوى العمق.

نعم، إننا نقدم فاطمة الزهراء (ع) لأنها تمثل النموذج الأكمل للمرأة في عقلها الذي كان قطعة من عقل رسول الله (ص)، وفي روحها التي كانت نبضة من نبضات روح رسول الله (ص)، ولأنها تمثل النموذج للمرأة في عملها وحركتها الثقافية، وللمرأة في حياتها الزوجية وحياة الأمومة وحياة الإنسانية التي عاشت حركية المجتمع في كل قضاياها. كانت البنت كأفضل ما تكون البنات، وكانت الزوجة كأفضل ما تكون الزوجات، وكانت الأم كأفضل ما تكون الأمهات، وكانت المسلمة المسؤولة المتحركة بثقافتها ومواقفها كأفضل ما تكون المسلمات، فهي تجمع كل هذه العناوين الإنسانية في شخصيتها الفريدة.

٢- وإننا نقدم فاطمة (ع) لأنها سيدة نساء العالمين، لا بنسبها بل بفضائلها وإنسانيتها، ولذا لو انطلقنا معها لعلمتنا كيف يكون الحب الإنساني للإنسان كله، وكيف يكون العطاء الإنساني للإنسان كله، وكيف تكون المسؤولية الثقافية أمام الناس كلهم، وكيف تكون المواجهة في ساحات التحدي لتقف المرأة أمام كل ظالم ومستكبر وكل من يصنع المعاناة للناس.

لماذا فاطمة (ع)؟ لأنها تقول للمرأة: كوني إنسانة ولا تكوني مجرد أنثى تتحرك بأنوثتها لتسقط إنسانيتها، كوني إنسانة مع الله ومع الناس، كوني إنسانة في المعنى الروحي والعقلي والحركي، ولا تكوني إنسانة في الجسد والشكل.

٣- وإننا نختار فاطمة (ع) في يوم المرأة العالمي لنقول إن الإسلام

يرفض كل هذا الظلم الذي تعرضت له المرأة ولا تزال؛ فالتاريخ كان تاريخ الرجل ولا يزال، الرجل الذي اختصر حياة المرأة في دائرة ضيقة، ولم يطلق لها الأفق الرب لتنتج فكراً كما أنتج هو فكراً، ولتعطي المجتمع من لطافة الحنان والعطف ما يرفع مستوى العطف والحنان فيه، فلا يقتصر حنانها على ابن يعيش في أكنافها وأحضانها، وإنما يفتح ليعطي الحب والحنان للإنسان كله والحياة كلها.

ولم يفسح المجال للمرأة من أجل أن تنتج الحياة وتفجر طاقاتها المكبوتة، فكان دورها دوراً هامشياً، حتى صارت شأناً من شؤون الرجل ولم يعترف بها كإنسان.

ولذلك جاء الإسلام ليخاطب المرأة والرجل حول كل المسؤوليات، ولينوع الأدوار بينهما بما يملكان من عناصر التنوع التي تتكامل في الدائرة الإنسانية. هذا التنوع الذي لم يكن تفضيلاً فيما يعنيه الفضل الإنساني في معناه العقلي والروحي والحركي، ولكنه كان تمايزاً من خلال الخصائص التي تمثل التنوع الإنساني عندهما.

الزهراء (ع) في بيت النبوة

إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ:

الزهراء (ع) ابنة رسول الله (ص) ومنها وحدها كان نسله، وقد جاء في بعض التفاسير أن قريش قالت عن النبي (ص) إنه أبتّر لأعقب له، فنزلت سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

أعطيناك الكوثر أي أعطيناك الخير الكثير الذي يمتد في كل حياتك وفيما بعدها، فتوجه إلى ربك بالصلاة فلن ينقطع ذكرك ولن يفنى نسلك، بل إن الذين يقفون ضدك هم الأولى بهذه الصفة. وبما أن أسباب النزول تشير إلى أن السورة نزلت في أجواء الكلمات التي أثارها بعض سفهاء قريش - كالعاص بن وائل، وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وكعب بن الأشرف - من أن النبي أبتّر لا ذرية له من الذكور وذلك بعد موت ابنه القاسم، فمن المناسب أن يكون الخير الكثير - الكوثر - فيه إشارة إلى الذرية الكثيرة التي للنبي محمد (ص) من ابنته فاطمة (ع)، ليكون ذلك بمثابة الرد على هؤلاء في ما أرادوه من إضعاف معنوية النبي (ص) بهذه الكلمة التي كانت تمثل مدلولاً

سلبياً في ذاك المجتمع القائم على اعتبار الامتداد في الذرية لوناً من ألوان القيمة الذاتية للإنسان ، ويقول صاحب تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي تعليقاً على ذلك وتأكيذاً له :

«ولولا ذلك، لكان تحقيق الكلام بقوله : ﴿إن شئتُك هو الأبر﴾ خالياً عن الفائدة»^(١).

أخوات فاطمة:

ولكن هل كان للنبي (ص) بنات غير فاطمة (ع)؟

إنَّ من المعلوم تاريخياً أنه قد ولد لرسول الله (ص) عدة ذكور، لكنهم ماتوا صغاراً، وأما البنات فمن المعلوم تاريخياً أيضاً، بل هو المشهور والمتسالم عليه بين محققي الفريقين ومؤرخيهم^(٢)، أنه كان للنبي (ص) من البنات زينب وأم كلثوم ورقية، وأنهن عشن وتزوجن. وإن ذهب شاذٌّ من المعاصرين تبعاً لشاذٌّ من المتقدمين إلى نفي كون هؤلاء من بنات النبي، مدّعياً أنهنَّ ربائب له!! وهذا من أغرب الآراء وأعجبها، كونه مخالفاً لصريح

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج: ٢٠، ص: ٤٢٩، منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان، ط: ٢، ١٩٧٤م.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج: ٢، ص: ٢٧٣، دار الكتب العلمية، بيروت. وبحار الأنوار، ج: ٢٢، ص: ١٥٠. والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج: ١، ص: ٦٥٥، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٨٩م. والسيرة النبوية ابن هشام، ج: ٢، ص: ٢٠٢، قم - إيران، وهي مصوَّرة عن النسخة المصرية المطبوعة سنة ١٩٢٦م.

القرآن الكريم^(١) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ [الأحزاب: ٥٩].

طفولتها الرسالية:

كيف عاشت فاطمة الزهراء طفولتها؟

عندما ندرس حياة الزهراء (ع)، نجد أن التاريخ لا ينقل لنا الكثير من تفاصيل طفولتها وعلاقتها بأبيها محمد رسول الله (ص) من حيث المفردات الحياتية، لكننا نعرف من خلال ما وصلنا، أنها وهي في سن الطفولة لم تعش طفولة الأطفال الذين يلهون ويلعبون ويعبثون، كانت طفولتها لا تحمل أية فرصة للعب واللهو والعبث، بل كانت طفولة تختزن طاقة نلمح آثارها في ما نقل لنا عنها من مواقف، ولم تكن طاقتها طاقة طفل يعيش براءة الطفولة وبساطتها، بل طاقة طفل يختزن في نفسه إحساسه بالدور المنوط به في تلك المرحلة من حياة الرسول (ص) ومعاناته وآلامه التي كان يواجهها، كانت طفولة تتقمص شخصية الأم وتعيش روحيتها وتقوم بدورها .

فها هي، ومنذ أن فتحت عينيها على الحياة، رأت أباه رسول الله (ص)

(١) أقول: بل هو مخالف لصريح الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) من قبيل الخبر التالي عن أبي عبد الله (ع) قال: «ولد لرسول الله من خديجة القاسم والطاهر، وهو عبد الله، وأم كلثوم ورقية وزينب وفاطمة...» وعنه (ع): «عن رسول الله (ص) - في حديث - : وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً وهو عبد الله وهو المطهر، ولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب...» الخصال للصدوق، ص: ٤٠٤ طبعة قم.

يأتي بين وقت وآخر مثقلاً بما يلاقيه من ضغوط وأعباء وأذى من المشركين، فتقوم باحتضان أبيها، وتخفف عنه آلامه وترعاه بكل عطف وحنو.

فذات يوم رأت أباها (ص) في المسجد الحرام وقد وضع المشركون الأوساخ والأقذار على ظهره بينما كان قائماً يصلي لربه، فما كان منها إلا أن تقدمت لتزيل عنه الأوساخ بيديها الصغيرتين، معبرة عن حزنها ومواساتها له (ص) بالدموع، وهذا ما جعلها تنفتح على المسؤولية وهي في طفولتها الأولى، لتقف إلى جانب أبيها لترعاه وتحنو عليه، وهو الذي فقد أمه منذ أمدٍ طويل، وفقد زوجته الحانية، وقفت إلى جانبه وهو يتحدى بالرسالة ويواجه التحدي من خلال الرسالة، هذا يسببه وذاك يتهمه بالجنون أو السحر وثالث يلقي عليه الحجارة والأوساخ، وعمه أبو لهب يصرخ «جزماً سحركم محمد»^(١). . . وتثقله آلام الدعوة وهو يتحملها بصبر، وعندما يعود إلى البيت يرى حنان فاطمة وعاطفتها ورعايتها التي لم تكن رعاية طفل يبكي دون وعي، بل رعاية وعي ينفتح ويبكي من أجل أن يواسي ويخفف الآلام عن رسول الله (ص)، فقد كانت تتحسس أن آلامه آلامها، فتختزن في طفولتها آلام الرسالة، وآلام الرسول؛ ومن يختزن في وعيه الطفولي المبكر آلام الرسول وآلام الرسالة، لا يسمح له الوقت أن يعبث أو يلهو أو يلعب، إن اللعب واللهو والعبث يتحرك في حياتنا من موقع الفراغ، فنحاول أن نملأه بالملاهي، أما الإنسان الذي يشعر بأن هناك فكراً يملأ عقله، وعاطفة تملأ

(١) تفسير نور الثقلين، العلامة الحويزي، ج: ٤، ص: ٦٦، قم- إيران، ١٤١٢ هـ، الناشر إسماعيليان.

قلبه، وواقعاً يملأ حياته، فلا يجد فرصة للهو والعبث واللعب.

وهكذا نشأت الزهراء (ع)، لا كما ينشأ الأطفال... نشأت رسالية في مشاعرهما وعواطفها ومواقفها وكل حركتها.

وإننا نستوحي من هذا الحنو وتلك العاطفة التي ملأت بها فاطمة (ع) قلب أبيها وإحساسه، أن تكون تربيتنا لأطفالنا قائمة على أساس تنمية العاطفة وتقوية الحنان لديهم، ما يعطينا كآباء وأمّهات رصيذاً من حنان الأبناء والبنات عندما نحتاج إلى ما يخفّف متاعبنا، وبذلك يتحول الطفل إلى أب وأم كما يتحول الأب والأم إلى أطفال مع أولادهم، عندما يلاعبونهم ويلطفونهم، وقد أكّد ذلك النبي الكريم (ص) بقوله: «من كان له صبي فليتصاب له»^(١).

أشبه الناس برسول الله (ص):

نقل ابن عبد البر في الاستيعاب - وإنما نحرص على النقل منه وهو من المصادر السنية لأنه يمثل مصدراً حيادياً، حتى لا يتهم الشيعة بأنهم يتحدثون بعاطفتهم - بأسانيده عن عائشة أنها قالت: «ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وسمتاً وهدياً ودلاً برسول الله من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكانت إذا دخل

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج: ٣، باب: ٤٨، ص: ٢١٢، رواية: ٢١، دار الأضواء - بيروت، ١٩٨٥. الوافي، الكاشاني، ج: ١٢، ص: ٢٨٨، أصفهان - إيران.

عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلتها وأجلسته في مجلسها»^(١).

عندما ندرس هذا النص الوارد عن عائشة في الاستيعاب، فإنه يوحى لنا بأمرين:

١- بالوحدة والاندماج الكامل بين شخصية فاطمة وشخصية أبيها، حيث كانت أشبه الناس به في كل شيء، حتى تأثرت به في طريقة مشيه، ولذا ورد في عدة روايات «أن فاطمة أقبلت ما تخطئ مشية رسول الله (ص)»^(٢). فقد كان رسول الله أباهما والمربي لها ومعلمها، يعطيها في كل يوم من أخلاقه خلقاً ومن روحه روحاً ومن عقله علماً ووعياً، كانت معه في مكة وجزءاً من حياتها في المدينة، في الليل والنهار، يناجيها وتناجيه، وتتلمذ على يديه، وتستمد من علمه وأخلاقه.

٢- ويوحى لنا أيضاً بعمق العلاقة الروحية بين رسول الله (ص) وابنته فاطمة (ع)، لأن رسول الله (ص) لم يفعل ذلك إلا مع فاطمة، يقوم لها كلما دخلت عليه، ويقبلها ويجلسها في مجلسه، وكذلك كانت تفعل هي كلما دخل عليها، وهذا ما يؤكد أن الاندماج بينها وبينه لم يكن شكلياً فحسب، بل كان اندماجاً روحياً معمقاً.

(١) نقلاً عن: أعيان الشيعة، تأليف السيد محسن الأمين العاملي، دار التعارف، بيروت، ج: ١، ص: ٣٠٧.
(٢) مسند الإمام أحمد، ج: ٧، ص: ٥٤٠١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣ م. وأعيان الشيعة، ج: ١، ص: ٣٠٧.

أحب الناس لرسول الله (ص):

روى الحاكم في المستدرک - وهو الذي استدرک على الصحيحين - بسنده عن أبي ثعلب قال: «كان رسول الله إذا رجع من غزاة أو سفر أتى المسجد فصلى فيه ركعتين شكراً لله على أنه أرجعه من سفره، ثم ثنى فاطمة ثم يأتي أزواجه»^(١).

وهذا يعني أن فاطمة تقع في المركز الأول بعلاقة النبي بالناس، حتى في علاقته بزوجاته.

وزوى في المستدرک أيضاً: «أن النبي (ص) كان إذا سافر كان آخر الناس به عهداً فاطمة...».

أي أن آخر من يلتقيه فاطمة، لتبقى صورتها في باله، وليبقى حنان فاطمة وعاطفتها التي كانت تفيضها عليه معه في سفره، يعيش في ذاكرته فيرتاح له.

ويضيف الحاكم: «... وإذا قدم من سفر كان أول الناس عهداً به فاطمة»^(٢).

(١) نقلاً عن: أعيان الشيعة، ج: ١، ص: ٣٠٧. وفصائل الخمسة من الصحاح الستة، الفيروز آبادي، الدار الإسلامية، إيران، ١٤٠٨ هـ، ج: ٣، ص: ١٣٢، وقد نقله الأخير عن صحيح أبي داود وعن المستدرک وغيرهما. وفي مسند الإمام أحمد، ج: ٦، ص: ٢٧٠، روى بسنده عن ثوبان مولى رسول الله (ص)، قال: «كان رسول الله (ص) إذا سافر آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة. وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة...».

(٢) م. ن، ص: ٣٠٧.

لأنه كان يعيش الشوق إليها كما لم يعيش الشوق إلى أي إنسان آخر، ولذلك كان يعبر عن حرارة هذا الشوق باللقاء بها أول من كان يلتقيه من الناس.

وفي الاستيعاب بسنده: «سئلت عائشة أم المؤمنين: أي الناس كان أحب إلى رسول الله؟ قالت: فاطمة. قلت: من الرجال؟ قالت زوجها، إن كان ما علمته صوّماً قوّاماً...»^(١).

وهذه شهادة مهمة من عائشة لفاطمة وعلي عليهما السلام.

مراقبتها وملاحقتها للرسول(ص):

وأحست بمسؤوليتها تجاه أبيها وهو ينهض بعبء قيادة الدعوة الجديدة إلى النصر، فمضت تعطيه كل ما تملك من حنان الأمومة والنبوة، وترعى حياته بروحها وقلبها ومشاعرها الرقيقة الفياضة، وبالإضافة إلى هذا الدور الصامت الذي قامت به فاطمة في رعايتها لأبيها وهو في أشد الأوقات حرجاً وأعظمها قسوة، كانت أيضاً تشعر أن أباهما يمثل كل شيء في حياتها، ولذا أحست أن عليها أن تبذل له كل شيء من حياتها ووجودها.

(١) نقلاً عن: أعيان الشيعة، ج: ١، ص: ٣٠٨. ورواه الترمذي في صحيحه كما في عوالم سيدة النساء، ص: ١٢٣. وفي أمالي الشيخ الطوسي بسنده عن جميع بن عمير قال: دخلت مع أمي على عائشة فذكرت لها علياً، فقالت: ما رأيت رجلاً كان أحب إلى رسول الله (ص) منه، وما رأيت امرأة كانت أحب إلى رسول الله من امرأته» (راجع عوالم الزهراء، ص: ١٢٤).

كانت وهي الطفلة كما مرّ آنفاً، تتابع أباهما وهو يتحرك في دعوته، تشعر بمسؤوليتها عنه كما هي مسؤولية الأم عن أولادها، وقد جاء في السيرة أنه عندما «ألقت قريش سلا الجزور على ظهر النبي وهو ساجد، فجاءت فاطمة وطرحته عنه»^(١).

وما نستوحيه من هذه القصة - مضافاً إلى ما استوحيناه منها سابقاً من أن الزهراء كانت تحتضن أباهما وتخفف عنه الأعباء والآلام وهي ما تزال طفلة - أنها كانت تتحرك معه وتلاحقه عندما كان يذهب إلى المسجد، وقد تكون هذه قصة صغيرة، ولكنها توحى بالاهتمام البالغ الذي كانت توليه لأبيها، بحيث كانت تتابع وضعه وكل ما يقوم به المشركون ضده.

وكانت أيضاً تراقب انفعالات وجهه وخلجات نظراته وتفهم منها كل ما يريده وما لا يريده دون أن يقول لها شيئاً أو ينهاها عن شيء، فتبادر إلى امتثال ما استوحته من أوامره ونواهيها دون إبطاء أو تردد، مدفوعة إلى ذلك بعامل المحبة له كأب، والتقديس لشخصه كنبي ورسول.

(١) أعيان الشيعة، ج: ١، ص: ٣١٠. وفي صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين، روى بسنده عن ابن مسعود قال: «بينما رسول الله (ص) يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله (ص)، والنبي (ص) ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة (ع)، فجاءت وهي جويرة، فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم...». ورواه البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب بدء الخلق، باب ما لقي النبي وأصحابه من أذى المشركين، ونقله عنهما في فضائل الخمسة، ج: ٣، ص: ١٣٠.

انفتاحها على قلبه:

وهذا ما تحدثنا به سيرتها في أحاديث متنوعة تحكي لنا كيف كانت تدرس ذهنية رسول الله من خلال دراستها لرسالته، لتتعرف على ما يحبه وما يبغضه، وما يفتح قلبه أو يغلقه، ومن هنا رأيناها عندما أقبل رسول الله (ص) ذات يوم من سفر ودخل بيتها وحدق قليلاً ثم انصرف، تعرف بسرعة أن شيئاً أثقل رسول الله (ص)، وفكرت في الأمر، فرأت أن هناك كساءً في بيتها على بابها وسوارين قد لبستهما في يديها، فنزعت الستار عن بابها وخلعت السوارين من يديها وبعثت بهما مع ولديها وقالت لهما: أقرئاً أبي عني السلام وقولا له ما أحدثنا بعدك غير هذا، فشأنك به اصنع به ما شئت، فانفجرت أسارير الرسول وهزته هذه الأريحية والالتفاتة الرائعة والروحانية من ابنته، وهذه الاستجابة الواعية لدعوته، فما كان منه إلا أن قسم ذلك بين الفقراء الذين لا يملكون ثوباً ولا يجدون قوتاً، وقال (ص): «قد فعلت، فداها أبوها، فداها أبوها، فداها أبوها، ما لآل محمد وللدنيا فإنهم خلقوا للآخرة»^(١).

وفي حديث آخر أنه وجد في عنقها قلادة فأعرض عنها فقطعتها ورمت بها فقال لها: «أنت مني اثنتيني يا فاطمة»^(٢)، ثم جاء سائل فناولته القلادة.

(١) البحار، ج: ٤٣، باب: ٤، ص: ٨٦، رواية: ٨، ومسنند فاطمة للبطاردي، ص: ١٠٦، إيران. وعوالم الزهراء، الشيخ عبد الله البحراني، ص: ٢١٣ و ٢٦٣، قم-إيران، ط: ٢، ١٤١١ هـ.
(٢) م، ن، ج: ٤٣، باب: ٤، ص: ٨٤، رواية: ٦. ومسنند فاطمة، ص: ١٠٧.

إننا نستوحي من هذه القصة ومن أجواء العلاقة بين فاطمة وأبيها :

١. أن الزهراء (ع) كانت إنسانة تشعر بالحاجة إلى أن تتعمق في الانفتاح على قلب أبيها والانفتاح على مسؤوليته في ما يخص مسؤوليتها، بأن تجسد المثل الحي لأهل بيت الرسول في نظرة الناس إليهم.

وهذا ما يجب أن تتعلمه كل بنت رسالية الفكر عندما يكون أبوها رسالي الخط والمسؤولية، وكذلك كل امرأة تتصل بإنسان يعيش بعداً رسالياً في حياته، عليها أن تتعلم أن لا تستغرق في ذاتياتها، بل أن تنفتح على مسؤولية أبيها أو زوجها أو أخيها أو ابنها لتتكامل معه في حركة المسؤولية، حتى لا تثقل مسؤوليته، لأننا قد نجد الكثير من العظماء في الماضي والحاضر يثقلهم الناس الذين يحيطون بهم عندما يفكرون هم رسالياً ويفكر من حولهم ذاتياً، فتشعر البنت أنها بنت الزعيم فتتعاظم على الناس، أو تشعر الزوجة أنها زوجة فلان العظيم فتتكبر على الآخرين، وتشعر الأم أنها أم الإنسان الذي يملك موقعاً متقدماً فتتعالى على غيرها من النساء.

٢. كما ونستوحي أيضاً أن الزهراء (ع) في وعيها وموقعها الرسالي المتقدم، كانت الإنسانية التي تتمرد على حاجاتها الشخصية مهما كانت بسيطة في سبيل طموحاتها الرسالية، وكانت الإنسانية التي تدخل في موازنة بين المبدأ والذات ليتغلب المبدأ عندها على حاجة الذات، وهذا ما ينبغي أن نتعلمه، لأن الكثيرين منا رجالاً أو نساءً يسقطون عندما تكون المسألة هي الخيار بين متطلبات المبدأ ومتطلبات الذات، فيفضلون الثاني على

الأول. بل ربما يجعلون المبدأ في خدمة الذات، فيثقلون المبدأ بحاجاتهم الشخصية، ويسخرون الناس الذين ارتبطوا بهم ارتباطاً مبدئياً لحاجاتهم الخاصة.

شخصيتها من شخصية أبيها:

إن ما تقدم من شواهد تاريخية عن علاقة الزهراء بأبيها وشبهها به ومحبه لها .. يعطينا الدليل تلو الدليل على أن شخصية الزهراء (ع) منطبقة بطابع شخصية النبي (ص)، فليس بينها وبين أن ترفض بعض مظاهر الدنيا البسيطة التي يحتاجها كل إنسان، إلا إشارة النبي ورغبته لها في الترفع والرقي إلى أعلى المستويات الروحية والابتعاد عن كل ما يربط أو يشد نحو الدنيا.

وهكذا وجدناها منسجمة كل الانسجام روحياً وعاطفياً مع الخط الإسلامي الأصيل الذي انطلق من خلال تعاليم القرآن وسنة النبي (ص)، ولذا لم تستسلم إلى صلتها الوثيقة بالنبي أو تسكن لهذا الشرف العظيم، لأنها أرادت أن تكون ابنة محمد روحاً وأخلاقاً وتقوى وعبادة وصلة بالله سبحانه وانسجاماً مع تعاليمه، قبل أن تكون ابنته جسداً وقربة.

أحبت أن يرى أبوها في بيتها المتواضع زهد الرسالة وروحانية الإيمان وبساطة العيش وقناعة النفس وصفاء الروح، لتعطي مثلاً حياً للبيت المسلم بأن يعيش الأجواء الإسلامية الخالصة من أجل أن تنمو الأجيال الإسلامية وتتغنى في جو إسلامي خالص.

وباختصار: كانت في كل حياتها مع رسول الله لا تحس بالتعددية ولا تشعر بالانفصال، شاركتة في فضائله إلا في النبوة التي لا يقترب منها أحد

مهما كان قريباً من رسول الله (ص)، لتبقى هذه المنزلة الإلهية بما تتضمنه من معاني الوحي والرسالة خاصة به، ويبقى للآخرين القريبين منه مشاركته في كل صفات الكمال الأخرى: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدي»^(١).

دمعة وابتسامة:

كانت الزهراء (ع) ذات فرادة وتميز في كل تصرفاتها وأفعالها، حتى في حزنها وبكائها على أحبائها، لاسيما فراقها لرسول الله (ص).

ينقل المؤرخون أنها دخلت عليه وهو في حال الاحتضار واحتضنته، فهمس في أذنها همسة أبكتها، ثم همس همسة أخرى أضحكتها، فقبل لها ما أسرع الضحك إلى البكاء؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله في حياته، ولما سئلت عن ذلك بعد وفاته قالت: «إنه همس في أذني أولاً أنه سيلاقي وجه ربه وأنه نعت إليه نفسه فبكيته، ثم همس في أذني ثانية أنني أول الناس لحوقاً به من أهل بيته فضحكت»^(٢).

تصوروا شابة في مقتبل العمر وريعان الشباب زوجة وأمّاً، والحياة تقبل عليها وتفتح لها أبوابها على أجنحة الأمل، عندما يحدثها أبوها أنها أول بيته لحوقاً به تبتسم وتكفكف دموعها !!

(١) الإرشاد، ج: ١، ص: ١٥٦. صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧، بيروت، دار إحياء التراث العربي

١٩٩١م. البحار، ج: ٢، باب: ٢٩، ص: ٤٨٦، رواية: ٣.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٩٠. و بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٣، ص: ٢٥، رواية: ٢٢. ومسند

الإمام أحمد، ج: ٨، ص: ٤٠١، ينقل القصة عن عائشة.

هل تجدون فتاةً ومهما كان حبها لأبيها تفرح إذا أخبرها بأنها ستموت بعده؟ وأنها أول أهل بيته لحوقاً به؟

الزهراء (ع) فرحت بذلك بقدر بكائها عليه، لماذا؟ لأنها تشعر أن الفراق لن يدوم طويلاً، فعمماً قليل ستلاقي أباهما في جنة عدن عند مليك مقتدر، وتعيش معه في الجنان كما عاشت معه في الدنيا.

أية علاقة أعمق من هذه العلاقة، وأي اندماج أقوى من هذا الاندماج؟! من هنا نعرف عمق حزنها على أبيها وأنه يختلف عن حزن أية ابنة لفقد أبيها، فهو في الوقت الذي كان حزن المسلمة الرسالية على فقد رسولها، كان حزن البنت على فقد أبيها الذي امتزجت روحها بروحه وحياتها بحياته وعقلها بعقله.

ولهذا يقول الإمام الصادق (ع) في ما رواه الكليني بسنده الصحيح عنه: «عاشت بعد رسول الله (ص) خمسة وسبعين يوماً لم تر كاشرة ولا ضاحكة، تأتي قبور الشهداء في كل أسبوع مرتين، الاثنين والخميس، فتقول: ههنا كان رسول الله، وههنا كان المشركون»^(١).

وفي رواية أخرى عن الصادق (ع) أنها كانت تصلي هناك وتدعو حتى ماتت^(٢). وهذا المقدار من الحزن والبكاء يليق بمكانة الزهراء (ع)، ولا غضاضة فيه، لأنه حزن القضية الذي لا يلغي قيمة الصبر.

(١) الكافي، ج: ٤، ص: ٥٦١. بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ١٩٥. وعوالم الزهراء، ص: ٤٤٧.

(٢) الكافي، ج: ٤، ص: ٥٦١.

وأما ما أفاضت به بعض المرويَّات^(١) - التي يقرأها بعض قراء العزاء - والتي تُصوِّر الزهراء وكأنها لا شغل لها إلا البكاء، فهذا ما نرسم حوله بعض علامات الاستفهام، لأنني لا أتصور الزهراء(ع) إنسانة لا شغل لها في الليل والنهار إلا البكاء، ولا أتصور الزهراء، وهي المنفتحة على قيم الإسلام وعلى قضاء الله وقدره، إنسانة ينزعج منها أهل المدينة لكثرة بكائها. كما تصوِّر هذه الروايات - حتى لو كان الفقيه على مستوى رسول الله(ص)، فإن ذلك لا يلغي معنى الصبر، لأن الصبر قيمة إسلامية تجعل الإنسان يتوازن ويتماسك في أشدِّ الحالات قساوة وصعوبة. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن حزن فاطمة(ع) كان حزن القضية وحزن الرسالة أكثر مما هو حزن الذات، لأنها كانت تستشعر بفقدائها أبيها محمد(ص) أنها فقدت الرسول الذي انقطعت بموته أخبار السماء، كما جاء في بعض كلماتها^(٢).

مشروعية البكاء وحدوده:

وزيادة في توضيح هذا الأمر، ودفعاً لبعض الالتباسات والاعتراضات نقول: إن فراق رسول الله(ص) لم يكن بالأمر الهين، لا سيما على ابنته السيدة الزهراء(ع)، التي أحست أكثر من غيرها بعظيم الفادحة

(١) جاء في مرفوعة محمد بن سهل البحراني عن أبي عبد الله(ع) في حديث «الباؤون الخمسة»: «...وأما فاطمة، فبكت على رسول الله(ص) حتى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر - مقابر الشهداء - فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف»، عوالم الزهراء، ص: ٤٤٨.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢٠٧. وجاء فيها: «يا أبتاه انقطع عنا خبر السماء».

وثقل المصيبة التي ألت بالمسلمين بوفاة رسول الله .. ولهذا كان حزنها عليه أعظم الحزن، وبكاؤها عليه أعظم البكاء، وكانت تخرج إلى قبره الشريف مصطحبة ولديها الحسنين (ع) لتبكي أباهما، وكل الشهداء الذي سقطوا معه، لتذكر المسلمين من خلال ذلك برسول الله (ص)، حتى لا ينسوه في غمرة الأحداث الكبيرة التي عاشوها، ولكنها لم تكن تستغرق وقتها في الليل والنهار في البكاء، ولا أنها كانت كل هذه المدة «يغشى عليها ساعة بعد ساعة»^(١)، وذلك:

١- لأن الصبر - كما أشرنا - قيمة إسلامية كبرى، ومن الطبيعي أن تمثل الزهراء (ع) أعلى درجات الصبر من خلال مقامها الرفيع عند الله، فهي ككل أهل البيت (عليهم السلام) قدوتنا في الصبر، كما كان رسول الله (ص) قدوة الناس كلهم في هذا المجال، وكما كان الرسل من قبله ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهذا هو معنى التأسي بهم، فالحزن على المصاب، لاسيما إذا كان أليماً، له دوره في رقة القلب، ولكن للصبر عليه درجة عظيمة لا مخصص لها.. فإن قوله تعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٦] وقوله: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦]، لا يقبل التخصيص والتقييد، فهو من العمومات الآبية عن ذلك، وكذلك قول الصادق (ع): «الصبر رأس الإيمان» وقوله الآخر: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب

(١) كما جاء في بعض الروايات، راجع: بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ١٨١. وعوالم الزهراء، ص: ٤٥١.

الصبر ذهب الإيمان»^(١). فإن هذا اللون من البيان يأبى التخصيص والتقيد، كما يقول علماء الأصول.

٢- ولأن الزهراء(ع) كانت مشغولة في معظم وقتها بالدفاع عن حق علي(ع) في الخلافة، ومن أبرز مظاهر تحركها خطبتها في المسجد، وكلامها مع نساء المهاجرين والأنصار ورجالهن، وإذا صح الحديث بأن علياً(ع) كان يطوف بها على بيوت المهاجرين والأنصار أو جموعهم - كما جاء في بعض الروايات - فهذا يعني أنها كانت تتحرك بشكل يومي نحو تحقيق هذا الهدف الكبير، مما لا يترك لها مجالاً واسعاً للانصراف إلى البكاء والاستغراق فيه.

٣- إننا لا ننكر مشروعية البكاء إسلامياً، فقد بكى رسول الله على ولده إبراهيم^(٢)، وبكى يعقوب على يوسف(ع)^(٣). ومن الطبيعي أن تبكي الزهراء(ع) لأنها بشر، والبشر من طبعه البكاء عند فقد الأحبة، لكننا ننكر أن يتحول البكاء إلى حالة من الجزع أو ما يشبه الجزع بحسب الصورة التي تتلى في المجالس، ومفادها «أن أهل المدينة ضجّوا من كثرة بكائها»^(٤)، وأنهم شكوا الأمر إلى علي(ع) وقالوا له: «إما أن تبكي أباهاً ليلاً أو نهاراً»، لأن هذه الصورة لا تليق بمكانة الزهراء في الواقع العام، ولا تنسجم مع عصمتها وعظمتها. كيف والجزع مذموم شرعاً وعقلاً. يقول أمير المؤمنين لبعض أصحابه وقد فقد ولداً: «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن

(١) أصول الكافي، ج: ٢، ص: ٨٧.

(٢) إقناع اللائم على إقامة المآتم، ص: ١١٤. مؤسسة المعارف الإسلامية، قم - إيران، ١٤١٨ هـ.

(٣) م. ن، ص: ٨٦.

(٤) تقدم الحديث في الهامش رقم ١ من الصفحة ٦٤.

جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور»^(١). وقال أيضاً وهو يلي غسل رسول الله وتجهيزه: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء... ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤون»^(٢).

وأما ما جاء في بعض النصوص، مثل ما روي عن أمير المؤمنين عندما وقف على قبر رسول الله (ص) ساعة دفنه أنه قال: «إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وإنه قبلك وبعدك لجليل»^(٣)، فمحمول على شدة الحزن وعظيم الفادحة والمصيبة، وإلا فحسن الصبر وقبح الجزع لا يقبلان الاستثناء والتخصيص كما أشرنا.

٤- إن هناك وصية خاصة من رسول الله لابنته فاطمة في هذا الخصوص، وهي ما رواه الصدوق بإسناده عن عمرو بن أبي المقدام، قال: سمعت أبا الحسن وأبا جعفر (ع) يقول في هذه الآية: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ [الممتحنة: ١٢]، قال: «إن رسول الله قال لفاطمة (ع): «إذا أنا مت فلا تخمشي عليّ وجهاً، ولا ترخي عليّ شعراً، ولا تنادي بالويل ولا تقيمي عليّ نائحة». ثم قال: هذا المعروف الذي قال الله عز وجل في

(١) الوزر: الإثم، بحار الأنوار، ج: ٧٩، ص: ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٣٥. والشؤون منابع الدمع في الرأس.

(٣) بحار الأنوار، ج: ٧٩، ص: ١٣٤.

كتابه: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾^(١). ونستوحي من هذا الحديث التحفظ عما نسب إلى سيدتنا فاطمة الزهراء من الحزن الذي يقرب من الجزع، لأن هذه الوصية تدل على أن النبي (ص) أراد لها أن تبتعد عن مظاهر الحزن الشديد.

٥- إن الزهراء (ع) نفسها أمرت نساء بني هاشم اللاتي جئن يساعدها عند وفاة أبيها (ص) بأن يقتصرن على الدعاء، ففي الكافي بإسناده عن أبي عبد الله (ع) عن أمير المؤمنين قال: «مروا أهاليكم بالقول الحسن عند موتاكم، فإن فاطمة (ع) لما قبض أبوها (ص) أسعدتها بنات هاشم فقالت: اتركن التعداد وعليكن بالدعاء»^(٢)، ونستوحي من هذا الحديث أن الزهراء (ع) كانت متوازنة إبان وفاة أبيها، رغم فداحة المصيبة.

وأما ما قد يقال: بأنها كانت تبكي إظهاراً لمظلوميته ومظلومية زوجها، وتنبيهاً على غصب حق أمير المؤمنين (ع) في الخلافة، وحزناً على المسلمين بعد انقلاب جملة منهم على أعقابهم، فيرد عليه:

أولاً: إن إظهار ذلك لا ينحصر بالبكاء، بل يتحقق في خطبتها في المسجد وفي أحاديثها الصريحة مع المسلمات والمسلمين، وفي حديثها مع أبي بكر وعمر اللذين تحدثت معهما عن غضبها عليهما من خلال غضبهما فدكاً وغضبهما للخلافة^(٣).

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص: ٣٩، منشورات جماعة المدرسين قم - إيران ١٣٧٩ هـ.

(٢) الكافي، ج: ٣، ص: ٢١٧، رواية: ٦، ورواه الصدوق في الخصال، ص: ٦١٠، رواية: ١.

(٣) عوالم الزهراء، ص: ٤٤٥.

وثانياً: إن الأحاديث الواردة في كلامها أو التي تحدّثت عن بكائها استهدفت ذكرى رسول الله (ص).

إننا نرى أن أهل البيت (عليهم السلام) قمة في العطاء والصبر، وفي مقدمتهم السيّدة الزهراء (ع)، التي تمثل القدوة في الصبر حتى في طريقة بكائها، فهي تبكي بكاء الصابرين الرساليين الشاكين إلى الله سبحانه وتعالى.

نعم، إن بكاء علي بن الحسين (ع) كان إظهاراً لمظلومية أبيه الإمام الحسين (ع)، لأن زين العابدين (ع) كان يتحدث عن مظلومية أبيه وهو يبكيه، لكي يتذكر الناس الواقعة ويدفعهم ذلك إلى الثورة على بني أمية.

الحزن الرسالي:

ومحصل ما نريد قوله: إن الزهراء (ع) لم تعرف الفرح في الفترة القصيرة التي قضتها بعد وفاة رسول الله (ص)^(١)، لكن حزنها كان حزناً إسلامياً.. لم يكن جزعاً ولا ابتعاداً عن خط التوازن. والرواية التي يمكن الوثوق بها في هذا المقام هي التي تقول: إنها كانت تخرج في الأسبوع مرة أو مرتين إلى قبر النبي (ص) وتأخذ معها ولديها الحسن والحسين (ع) وتبكيه هناك وتذكر كيف كان يخطب هنا، وكيف كان يصلي هناك، وكيف كان يعظ الناس هنالك^(٢).

(١) وقد مرّ أنها لم تراكشة ولا ضاحكة... البحار، ج: ٤٣، ص: ١٩٥، والكافي، ج: ٤، ص: ٥٦١.

(٢) م.ن.

وأرادت بذلك أن تعيد للأمة الغارقة في متاهات الدنيا رسول الله (ص) في معناه الرسالي، ولذا لم تتحدث عنه (ص) - في ما نقل في الروايات الموثوقة - حديثاً عاطفياً شخصياً، لأنها كانت الرسالة مجسدة.

الصدّيقة: صلة الوصل بين النبوة والإمامة:

امتازت الزهراء (ع) بأنها المرأة الوحيدة التي ربطت بين النبوة والإمامة وكانت صلة الوصل بينهما، فهي زوجة أول إمام وأم الأئمة الباقين من نسلها ونسل زوجها أمير المؤمنين علي (ع)، وقد اختصها الله بهذه الميزة والفضيلة لأنها كانت المرأة الأكمل والنموذج الأرفع طهراً وقدساً وعبادة وزهداً وخلقاً.

وفيما يلي نسلط الضوء على حياتها مع الإمام أمير المؤمنين ودورها في الدفاع عن حقه، ومن ثم نتحدث عن دورها في إعداد ابنيها الإمامين الحسنين عليهما السلام، وكذلك ابنتها العقيلة زينب (ع)، لنستلهم من ذلك الدروس والعبر، فتكون مواليتنا للزهراء (ع) في أفعالنا قبل أقوالنا، ومحبتنا لها في مواقفنا قبل شعاراتنا.

في بيت الزوجية

قصة زواجها بعلي(ع):

تكلم الكثيرون من الصحابة مع النبي(ص) في شأن الزواج من ابنته فاطمة الزهراء(ع)، لكنه كان يصدّهم بلطف قائلاً إنّي أنتظر أمر ربي^(١)، لأن في فاطمة خصوصية لا توجد في بناته الأخريات، ولأن في فاطمة(ع) سرّاً لا يعلمه إلا الله سبحانه، كما كان في عليّ سر لا يعلمه إلا الله.

وقيل لعلي: لم لا تخطب فاطمة وكان يستحي من ذلك، ولكنه أخيراً جاء إلى رسول الله(ص) وكلمه بشأن الزواج من فاطمة، وهنا انشروحت أسارير النبي(ص)، فكأنما كان ينتظر ذلك بل يعدّ له، فقال لعلي(ع): وما تملك من مال؟

وهو يعرف ما عنده وما يملكه، لأنه هو الذي رباه، وكان علي(ع) معه في حلّه وترحاله، في ليله ونهاره، في سلمه وحربه، فهو من يعرف

(١) عن تذكرة الخواص: «إنّي أنتظر بها القضاء». (راجع فاطمة الزهراء في الأحاديث النبوية، عبد المحسن علاوي السراوي، بيروت ١٩٩٤، ص: ٨٦ و ٩٢. وفي عوالم الزهراء، ص: ٣٨٠. «... إلا فاطمة، فإن تزويجها نزل من السماء». وراجع دلائل الزهراء للطبري الإمامي، ص: ٤٤، إيران، ١٤١٥هـ، إعداد مؤسسة البعثة.

ميزانيته المالية كما يعرف فضائله العلمية وخصاله الروحية، ومع ذلك سأله - وكم من سائل عن أمره وهو عالم - «ما معك؟ قال: معي درعي وسيفي وهذه الثياب التي ألبسها، قال (ص): أما سيفك فلا تستغني عنه لأنه السيف الذي تذب به عن الإسلام وتجلو به الكرب عن وجه رسول الله (ص)، ولكن أعطني درعك»^(١). وبيع الدرع بـ ٥٠٠ درهم، وكان ذلك مهر الزهراء التي رضيت بعلي زوجاً وعاشت معه حياة هنيئة لكنها مليئة بالجهد والتعب والمشقة، وعانت في حياتها ما لم تعانه امرأة سواها.

لا كفو لفاطمة غير علي:

وأهم ما يلفتنا في هذا الزواج هو ما جاء في الحديث المروي في كشف الغمّة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) - وفي غيره روي عن النبي (ص) - قال (ع): «لولا أن الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين (ع) لفاطمة، ما كان لها كفو على وجه الأرض»^(٢).

فما هي هذه الكفاءة التي يقصدها الحديث الشريف؟

بالتأكيد ليست هي كفاءة النسب، لأنّ هناك أكثر من ابن عم للرسول (ص)، وإنما هي كفاءة الروح وكفاءة العقل والفكر والإيمان، فقد كانت فاطمة من خلال إيمانها وعقلها وفكرها وروحها وطهرها وجهادها

(١) البحار، ج: ٤٣، ص: ١٢٧، ١٤٠. ودلائل الزهراء، ص: ٤٦.

(٢) كشف الغمة، الأربلي، ج: ١، ص: ٤٦٣، مكتبة بني هاشم، قم - إيران، ١٣٨١. والبحار، ج: ٤٣،

ص: ١٤١. وعوالم الزهراء، ص: ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١.

وزهدها، كفؤاً لعلّي(ع)، عليّ الذي كان في المستوى الأعلى من كل هذه الصفات والمعاني والقيم والآفاق التي تحلّق مع الله سبحانه. لقد أمر الله رسوله (ص) بأن يزوّج الكفؤ بالكفؤ والطهر بالطهر، لأن هناك أكثر من نقطة يلتقيان عليها، كيف وقد تربّيا على يد رسول الله، ونهلا من معينه علماً وأخلاقاً وروحاً، وعاشا معه بما لم يعيشه أي صحابي أو صحابية من أصحابه، فقد كانا معه في الليل والنهار، وكان(ص) ينطلق ليربيهما ويصنعهما على صورته استجابةً لنداء الله سبحانه ﴿وأنذر عشيرتك الأقرين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وحتى عندما انكفأت عنه عشيرته وكل الناس، كان أقرب الناس إليه روحاً وإيماناً فاطمة وعلي(ع). ومن هنا لاحظنا - من خلال التاريخ الواصل إلينا - أن ما عاشه علي من روح ومن انفتاح على الله ومن معرفة بالله، كانت تعيشه فاطمة(ع). ولو أننا درسنا عبادة علي وعبادة فاطمة لوجدنا أنهما يعيشان في المستوى نفسه من القرب لله والانفتاح عليه، والمعرفة بكل أسرار قدسه وصفاته وأسمائه.

وهنا يكمن سرّ قوله (ص): «لولا علي لما كان لفاطمة كفؤ». وبالالتفات إلى ذلك نفهم سرّ تمنّع رسول الله من تزويجها من أكابر الصحابة. وقد روى «الصدوق» في (عيون أخبار الرضا(ع)) بسنده عن أبي الحسن الرضا(ع) عن أبيه موسى الكاظم(ع) عن آبائه عن علي(ع) - وهذه هي سلسلة السند التي قال عنها الإمام أحمد بن حنبل: «إنها لو قرئت على مجنون لأفاق»^(١)، لأنها من إمام إلى إمام إلى إمام إلى علي(ع) إلى رسول

الله (ص) - أنه قال : «قال لي رسول الله (ص) : يا علي ، لقد عاتبني رجال من قريش في أمر فاطمة وقالوا خطبناها إليك فمنعتنا وزوجتها علياً ، فقلت لهم : والله ما أنا منعتكم وزوجته ، بل الله منعكم وزوجه ، فهبط عليّ جبرئيل فقال : يا محمد ، إن الله جلّ جلاله يقول : لو لم أخلق علياً لما كان لفاطمة ابنتك كفؤ على وجه الأرض آدم فمن دونه»^(١).

قصة خطبة علي (ع) ابنة أبي جهل:

ويهمنا هنا ونحن نتحدث عن زواج علي (ع) بفاطمة وكفاءة أحدهما للآخر ، أن نعرّج للتعليق على قصة ذكرها الرواة تتعلق بخطبة علي (ع) امرأة أخرى غير الزهراء ممّا أثار غضبها . وإليك القصة كما جاءت في بعض الروايات المنسوبة إلى الإمام الصادق (ع) : « جاء شقي من الأشقياء إلى فاطمة بنت محمد (ص) فقال لها : أما علمت أن علياً قد خطب بنت أبي جهل ، فقالت : حقاً ما تقول ؟ فقال : حقاً ما أقول - ثلاث مرات - فدخلها من الغيرة ما لا تملك نفسها ، وذلك أن الله تبارك وتعالى كتب على النساء غيرة وكتب على الرجال جهاداً ، وجعل للمحتسبة الصابرة منهن من الأجر ما جعل للمرابطة المهاجر في سبيل الله ، قال : فاشتد غم فاطمة (ع) من ذلك ، وبقيت متفكرة هي حتى أمست وجاء الليل ، حملت الحسن على عاتقها الأيمن والحسين على عاتقها الأيسر وأخذت بيد أم كلثوم اليسرى بيدها اليمنى ثم تحولت إلى حجرة أبيها ، فجاء علي (ع) فدخل في حجرته فلم ير فاطمة (ع) ، فاشتد لذلك

(١) عيون أخبار الرضا (ع) ، وعنه عوالم الزهراء ، ص : ٢٨١ . وبحار الأنوار ، ج : ٤٣ ، ص : ٩٢ ، رواية : ٣ .

غمّه وعظم عليه، ولم يعلم القصّة ما هي، فاستحى أن يدعوها من منزل أبيها، فخرج إلى المسجد فصلّى فيه ما شاء الله، ثم جمع شيئاً من كتب المسجد واتكأ عليه، فلمّا رأى النبي ما بفاطمة من الحزن أفاض عليه الماء ثم لبس ثوبه ودخل المسجد، فلم يزل يصلي بين رакع وساجد، وكلّما صلى ركعتين دعا الله أن يذهب ما بفاطمة من الحزن والغم، وذلك أنّه خرج من عندها وهي تتقلب وتتنفّس الصعداء، فلمّا رآها النبي (ص) أنها لا يهنئها النوم وليس لها قرار قال لها: قومي يا بنية، فقامت، فحمل النبي (ص) الحسن وحملت فاطمة الحسين وأخذت بيد أمّ كلثوم، فانتهى إلى علي (ع) وهو نائم، فوضع النبي رجله على رجل عليّ فغمزه وقال: قم يا أبا تراب، فكم ساكن أزعجته...»^(١).

وتعليقاً على هذه القصّة المروية في مصادر السنّة^(٢) والتي تسربت إلى المصادر الشيعيّة، نقول إنها أسخف من أن يرد عليها، لأن أصابع الوضع والاختراع باديه عليها، ولكن مع ذلك نقول:

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢٠١.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٠٩٢. أقول: ذكر مسلم في صحيحه هذه الرواية أو مضمونها بعدة أسانيد، وأوردها في باب فضائل فاطمة، ولا أدري ماذا وجد في هذه الروايات المكذوبة من فضيلة لفاطمة حتى يوردها في فضائلها، والأعجب من ذلك أن هذه الروايات - بعد أن تذكر انزعاج النبي (ص) من علي (ع) وأنه (ص) كان يخاف على فاطمة من أن تفتن في دينها، تنسب إليه (ص) قوله: «فاطمة بضعة مني يؤذيها ما يؤذيها»، لتصور أن هذا الحديث وارد في حق عليّ لأنه آذى فاطمة (ع) بقصّة الزواج عليها؟! والظاهر أن هذا الحديث كان يشكل مشكلة عويصة ووصمة عار كبيرة لكل الذين أتوا الزهراء (ع) وهجموا على دارها حتى ماتت غاضبة عليهم، فأرادوا من خلال اختلاق هذه الروايات تبرئة أنفسهم والإساءة إلى الإمام أمير المؤمنين (ع)، ولكن هذه المحاولات تبقى مكشوفة مفضوحة عند أهل التحقيق والنظر.

١- إن علياً (ع) الذي ارتفع بروحه وإيمانه ومحبته لله ورسوله إلى أعلى مستوى من الارتفاع، والذي عرف الزهراء قبل أن يتزوجها، عرف قيمتها وعظمتها في فكرها وروحها وكل خصالها ومناقبها وفي كل قربها من الله ورسوله، وعلي (ع) الذي عاش مع فاطمة وامتزجت روحه بروحها وقدمت له كل ما يحتاجه ويريده، علي هذا لا يمكن أن يفكر في أية امرأة أخرى ما دامت الزهراء على قيد الحياة، لأن الزهراء (ع) كانت كفؤاً لعلي تملأ حياته بكل ما يحتاجه من محبة وسكينة واستقرار، وغير ذلك من الحاجات الروحية والمادية. لقد كانت الزهراء كل حياة علي (ع)، انصهرت روحه بروحها، ونستطيع أن نقرأ إحساس علي بمعنى الزهراء وقيمتها في كلمته التي أبّنها بها عندما فارقت الحياة، ولهذا لا يمكن لعلي أن يخرب حياته وبيته بيده، لاسيّما إذا كانت الإنسانية الأخرى بنت أبي جهل عدو الله ورسوله.

٢- ثم لو سلمنا بصحة الرواية، فلماذا تنزعج الزهراء وتغتم وتترك بيتها مع أولادها؟! هذا لا يمكن قبوله، لأن الزهراء أعظم من أن تتنكر للتشريع الإلهي الذي يسمح بتعدد الزوجات، وهي ليست امرأة كسائر النساء لنعقل صدور هكذا موقف منها، بل هي سيدة نساء العالمين، وهي الإنسانية المعصومة التي عاشت كل حياتها لله وفي سبيله، فلا يمكن أن تخالف تعاليمه وأحكامه.

٣- ثم كيف ينزعج رسول الله من علي (ع) مع أنه قام بعمل لا يخرج عن دائرة الشرع الإسلامي، بل هو موافق لنص القرآن، ولفعل النبي (ص)

نفسه، حيث إنه تزوج أكثر من امرأة، وإن خصّه الله بالزيادة على الأربع.

إن هذه القصة المخترعة أريد بها الإساءة إلى رسول الله (ص) أولاً وإلى الزهراء (ع) ثانياً وإلى علي (ع) ثالثاً، لا سيما من الذين لم يرتاحوا إلى تفضيل رسول الله (ص) علياً على بقية الصحابة عندما خطبوا ابنته فاطمة، فردّهم وخصّ بها علياً (ع). وفي ختام تعليقنا على هذه الرواية نقول: «حدّث العاقل بما لا يليق، فإن لاق له فلا عقل له»، ولأننا نملك عقولنا فلا نجد مناصاً من رفضها.

رعايتها لزوجها:

يحدثنا تاريخ الزهراء (ع) أنها عاشت مع زوجها كأفضل ما تكون الزوجة محبةً ووفاءً وطاعةً ورعايةً، ولذا يذكر التاريخ أنها وفي أيامها الأخيرة التي أوصت فيها علياً بوصاياها، قالت له (ع): «.. ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عرفتك» فقال لها: «أنت أبر وأتقى وأعرف بالله من أن أوبّخك في شيء من ذلك»^(١).

فقد كانت ترعى زوجها وهو مثقل بأعباء الجهاد ومسؤولياته التي جعلته يخرج من حرب إلى حرب أخرى من حروب الإسلام، ولم تتأفف من

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٧، ص: ١٩١، رواية: ٢٠.

ذلك مع كل ما يمكن أن يفرضه ذلك من ضريبة قاسية على نساء المجاهدين، لا سيما أمثال أمير المؤمنين (ع)، الذي كان ليث الحروب وأسد الله ورسوله، ينتقل من معركة إلى أخرى ومن غزوة إلى غزوة، وكانت مثقلة بتربية الأولاد وهموم البيت، ولكن ذلك كله لم يمنعها من أن تخلص لدورها في البيت كزوجة، وأن ترعى زوجها وأولادها كما ترعى أباهما كأفضل ما تكون الرعاية، وتهتم بهم أفضل الاهتمام.

الإخلاص والوفاء له:

وهكذا عاشت الزهراء حياتها وهي تخلص لزوجها في كل مسؤولياتها الزوجية، عاشت مع زوجها كآية زوجة مسلمة تعيش مع زوجها، فلم تميز نفسها من خلال أنها ابنة رسول الله (ص)، بل كانت مسلمة كأفضل ما تكون المسلمات في مسؤولياتها الزوجية، تطحن وتعجن وتخبز وتربي أولادها^(١) وهم يتتابعون، مع ما كانت عليه من الضعف منذ بداية حياتها كما ينقل الذين كتبوا سيرتها.

وهكذا أيضاً كانت الوفية كأوفى ما تكون الزوجات، وهذا ما شهد لها به علي (ع) وصدقَه بقولها: «ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عرفتك، قائلاً: «أنت أبر وأتقى وأعرف بالله من أن أوبخك في شيء من ذلك».

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٨٢.

وكيف يوبّخها وهي التي كانت تتطلع في عينيه فتفهم ما يريد، وفي قسّات وجهه فتعرف ماذا يحبّ أو يكره، وفي حركة فكره كيف يفكر؟!

أعطت الراحة والروح والسعادة لبّيت زوجها:

وعاشت مع علي(ع) الذي عاش معها روحه وعاش معها جهاده، ولم يكن البيت تقليدياً في رُوحيته وحيويته، وإن كان تقليدياً - في أقلّ مراتب التقليد - في أثاثه ومساحته. لقد جعلت من بيتها حضناً ومهداً للرسالة ومنزلاً إسلامياً يفيض بالخشوع والرحمة وتتألق فيه القيم الإسلامية، جعلته بيتاً لله، وللطهارة وللحق وللعدل والرحمة والمحبة، من خلال روحانيّتها وعبادتها وزهدا وفكرها وعقلها واستقامتها التي منحها لهذا البيت، فصار جوّه جواً إسلامياً متكاملأً، بحيث استطاع عليٌّ أن يجد فيه الراحة والسعادة والانطلاقة والانفتاح، لأنّ الدعاة الكبار يحتاجون عندما يعيشون مع المرأة المسلمة كزوجة، أن يتنفسوا في بيوتهم الإسلام ليعيشوا دوماً في أجواء الروحانية والرسالية، وقد وجد أمير المؤمنين ذلك كله في بيت فاطمة(ع)، بحيث كان يدخل البيت فيرى الإسلام يحيط به من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فصار يتنفس الإسلام في البيت مع ابنة رسول الله(ص) كما كان يتنفس الإسلام في المسجد مع رسول الله(ص). هذا من جهة أحد ركني البيت الزوجي، أعني فاطمة(ع).

وأما من جهة علي(ع) الركن الآخر له، فكان أيضاً الزوج المسلم، كان مع الحق وكان الحق معه، ولهذا أعطى فاطمة(ع) من عقله ومن روحه

واستقامته وعبادته وزهده، فصارت أيضاً تتنفس الإسلام في بيتها من خلال علي(ع)، فتكامل البيت بهما، وكانت ابتهالاتهما لله وعبادتهما له وسجودهما بين يديه وتنهداتهما في المحبة له والخوف منه، كانت تمتزج ببعضها البعض، وتتصاعد نحو الخالق متعانقة متماسكة.

عاشا(عليهما السلام) للإسلام:

قال علي(ع): «ما أغضبته مدة حياتي معها ولم تغضبني ولم تعصِ أمري مدة حياتها معي»^(١). كان الرضا يعيش معهما لأنهما عاشا رساليين، وكانت الرسالة أكبر همهما، تحدثه ويحدثها عن حركة الإسلام في حربه وسلمه، يتحدثان عن آية نزلت على رسول الله(ص) هنا وآية نزلت هناك، وما هو امتداد الآيات في الحياة وما هي حركتها في الواقع، لأن الآية عندما تنزل لا تكون مجرد حروف تمثل كلمة، ولا مجرد كلمة تتبعها كلمات، ولكنها أفق يفتح للإنسان الكثير من أبواب الروح وآفاق الإبداع، يجري مع كل جيل ويتحرك في كل زمان، كما قال الإمام الباقر(ع): «لو أن الآية نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السموات والأرض»^(٢) وعن الإمام الصادق(ع): «... إن القرآن تأويله يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر...»^(٣).

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ١٢٤.

(٢)، (٣)، مقدمة تفسير البرهان لأبي الحسن الشريف العاملي، ص: ٥، الناشر إسماعيليان، قم - إيران.

أنس الرسول ببیت فاطمة:

ولأن علياً وفاطمة عاشا للإسلام وانطلقا مع الرسول (ص) في كل آلام رسالته وانطلاقاتها، لذلك وجدناه (ص) يقضي أكثر وقته في بيتهما لما فيه من أجواء رسالية عابقة بالإيمان والأخلاق، فرغم أن للرسول (ص) أكثر من زوجة وبیت، لكنه كان يختار بیت فاطمة ليقضي فيه أكثر وقته، لأنه لم يجد عندهن ما وجده عند فاطمة من الأنس، وكان إذا سافر فأخّر الناس به عهداً هو فاطمة وبيتها، وإذا عاد من سفره فأول الناس به عهداً هو فاطمة وبيتها، لماذا؟ هل هي عاطفة الأب؟ أو هو وعي الرسول لمعنى الرسالة المتجسد في بیت هذه الإنسانية التي لا يوجد مثلها قدوة تمثل الطهر كله، لأنها النموذج الذي صنعه رسول الله بعد أن صنعها الله سبحانه ليقدّمها قدوة للمرأة، فيكون الرسول وأمير المؤمنين أسوة حسنة لكل الناس، وتكون الزهراء أسوة حسنة لكل النساء بل والرجال أيضاً.

الانسجام الكامل بينها وبين علي:

ومن الضروري أن نؤكد أن كل ما ينقل ويروى أو يتحدث به البعض مما يوحي بأن الزهراء (ع) كانت تتهم علياً بالتقاعس لأنه لم يرفع وتيرة الاحتجاج على القوم الذين سلبوها فدكاً، إن هذا النمط من الروايات مرفوض، لأن الزهراء (ع) تعرف قيمة علي (ع) ومنزلته عند الله، وتعرف أنه لا يمكنه القيام بردّ فعل قوي، لأن ذلك سيخلق مشكلة كبيرة تهزّ الواقع الإسلامي كله، وتعرف أنه كان موصى من قبل النبي (ص) بأن لا يقوم بأية

حركة مضادة لا يحتملها الواقع الإسلامي، وفوق ذلك كله، فإن الزهراء (ع) وعلي (ع) كانا معصومين مقدسين منفتحين على الرسالة لا على الذات، ويتحركان من مواقع رضا الله لا رضا أنفسهما، وقد قالها علي (ع) وهو يخاطب أصحابه: «ليس أمري وأمركم واحداً، إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم»^(١)، ولا يمكن للمعصومين أن يختلفوا فيما بينهم ما دام أنه ليس في فكرهم وعقلهم وقلوبهم وكل حركتهم شيء للذات.

الزهراء أكبر من أن تشتم علياً (ع):

ولهذا، ولأن الزهراء (ع) كانت الوفية والمخلصة لزوجها، المنسجمة معه روحاً وروحانية كما سلف، ولأنها كانت زوجة كأعظم ما تكون الزوجات وفاءً وإخلاصاً، «ما عهدتني خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتك»^(٢)، لهذا كله، لا يعقل أن يصدر عنها ما تسيء به إلى علي (ع)، ومن هنا فإنني أرفض بقوة أن تكون فاطمة (ع) قد قالت له: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين - المتهم -... ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي...»^(٣).

لأن هذه الكلمات شتائم، والزهراء أكبر من أن تشتم علياً (ع) أو تقول له ما فائدتك؟! إنك لم تغن شيئاً ولم تنفع شيئاً، إنك كالجنين، فقد «مات العمد».

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦.

(٢) مر ذكر المصدر.

(٣) عوالم الزهراء، ص: ٤٧٧.

تعني رسول الله - ووهن العضد^(١).

يعني أنك لا تمثل شيئاً ولا تستطيع أن تحميني ولا تستطيع أن تأخذ بحقي.. إن الزهراء أجل وأرفع من أن تقول ذلك!

تقاسم مسؤولية البيت:

كان علي وفاطمة (ع) يتحسسان مسؤولية البيت فاقتسماها، وفي أحاديثنا أن الزهراء تقاضت مع علي عند رسول الله (ص) - تقاضي المحبة - حتى يقسم العمل بينهما، فصار الاتفاق أن الزهراء تطحن وتعجن وتخبز وأن أمير المؤمنين يكنس البيت ويستقي الماء ويحتطب^(٢).

وفي ذلك درس للرجال والنساء معاً:

أما درس الرجال، فأن يتعلموا من علي أن لا يتكبروا على خدمة المنزل، فعلي كان يكنس ويستقي ويحتطب، والرجل منا لا يرضى لرجولته أن يكنس ويستقي، لكن علياً وهو سيد الرجال كان لا يرى بأساً في كنس البيت، لأن البيت بيته والزوجة زوجته، هي إنسان كما هو إنسان، والرجل مهما كان عظيماً ليس أكبر من أن يخدم أولاده وزوجته وأباه وأمه وأخوته ومن هو مسؤول عنه.

والدرس نفسه ينبغي أن تتعلمه النساء، بأن لا يعتبرن أن العمل في

(١) مسند فاطمة، ص: ٥٦٨. وعوالم الزهراء، ص: ٤٧٧.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٨١. وفي روضة الكافي، ج: ٨، ص: ١٤٥، يروي الإمام الصادق (ع) أنه قال: «وكان علي (ع) يستقي ويحتطب وكانت فاطمة تطحن وتعجن وترقع...».

البيت يمثل احتقاراً لهنّ، كما هي العقلية التي ولدت عند بعض النساء المسلمات مؤخراً، فالزهراء كانت تعمل وتطحن وتخبز، ونحن وإن قلنا مراراً إن الله لم يفرض على المرأة، ابنةً كانت أو زوجةً، أن تخدم في البيت، بيت أبيها أو زوجها، بالمعنى الشرعي للإلزام، ولكن الله أراد للإنسان عندما يعيش في أي موقع يتطلب المشاركة، أن يندفع طبيعياً بحسب طاقته، حتى يشارك في هذه الطاقة ويفجرها، والإنسان الذي يقف في موقع المسؤولية ويهمل ما أحبه الله له وإن لم يلزمه به، هو إنسان لا يعيش الإحساس بموقعه الإنساني تجاه الإنسان الآخر، فالله عندما لم يلزم المرأة بالعمل البيتي أو تربية الأطفال والإرضاع، لم يرد للمرأة أن تكون سلبية أمام ذلك، وإنما أراد لها أن تكون إنسانة العطاء لتقدّم من قلبها ومن طاقتها ومن جهداها بوعيا واختيارها، أن تقدّم ما لا يجب عليها عطاءً في سبيل الله ﷻ إنما نطمحكم لوجه الله ﷻ [الإنسان: ٩]، بحيث تستغل في بيتها وتخدم أولادها لوجه الله، كما تصوم وتصلي لوجه الله وتضحى لوجه الله.

إن بعض الناس يفكرون في حركة مسؤوليتهم في الحياة بالحسابات المادية، ونحن كمؤمنين ومؤمنات لا بد أن نفكر بالحسابات الإلهية إلى جانب الحسابات الدنيوية، نحن عبيد الله ونريد أن يحبنا الله، والله يحبنا إذا فعلنا ما يرضيه، سواء كان ما يرضيه مما أوجبه علينا أو ممّا استحبّه لنا، وإن ممّا استحبّه للمرأة هو خدمة بيتها وزوجها، حتى أنّه اعتبر ذلك جهاداً، ولذلك عندما قال النبي (ص): «**جهاد المرأة حسن التبعل**»^(١)، فلأنه يعرف شدة

(١) وسائل الشيعة، ج: ١٥، باب ٤٠، ص: ٢٣، حديث: ٢، من أبواب جهاد العدو، وقد ورد هذا الحديث

على لسان أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة، قصار الحكم ١٣٦.

المعاناة فيما تعيشه مع زوجها وفيما تصبر به على أذى زوجها^(١)، وما تتحمله من إحساساته التي قد تثقل إحساساتها، هذا إن لم تكن تعيش معه معاناة كبيرة، فإطلاق الجهاد على حسن التبعل لكون الجهاد يثقل المجاهدين حتى يأخذ منهم أرواحهم، وكذلك المرأة تعاني مع زوجها حتى تكاد تفقد روحها، فإذا صبرت صبر الواعي، وصبر الإنسانية التي تملك شرعاً أن تمتنع عن الخدمة، فإنها تعتبر من المجاهدات في سبيل الله، ويكون لها أجر المجاهدين.

باختصار، إن مسألة الخدمة - أن يخدم أحدنا الآخر في دائرة مسؤوليته - ليست مسألة تتصل بالكرامة لتعتبر المرأة أن العمل في البيت احتقار لشخصيتها أو يعتبر الرجل أن مشاركتها في العمل احتقار له أيضاً، وإنما هي مسألة تتصل بالإنسانية، وقيمة الإنسان في هذه الدنيا أن يخدم الإنسان ويخدمه الإنسان الآخر، وليس هناك إنسان خادم بالمطلق، وليس هناك إنسان سيّد بالمطلق، كل إنسان مئاً سيّد في دائرة وخادم في دائرة أخرى.

البيت بنظر الزهاء محضنٌ لا سجن:

إنّ ما نستوحيه ممّا وصلنا من سيرة الزهاء (ع)، أنها لم تكن ترى البيت مشكلة لها أو سجنًا، ولا الأمومة أو الزوجية عبئًا، كما ربما نلتقي الآن بنماذج نسائية في مجتمعنا ممّن يشعرون ومن خلال العنوان الفضفاض

(١) عن أمير المؤمنين (ع): «... وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته»، الوسائل،

للحرية، أن البيت أو الزوجية أو الأمومة تمثل عبئاً ثقيلاً، لا سيما إذا تحركت الظروف لتقسو عليهن بكثيرٍ من الأعباء والمشاكل والآلام، فيشعرن بالعبء الثقيل على أكتافهن، وبالضغط الروحي الذي يجعلهن يعشن العقدة إن لم يستطعن أن يعشن التمرد، لكن الزهراء(ع) كانت ترى أن البيت لم يختره لها أحد، وأن الزوجية ليست عنصر ضغط عليها، وأن الأمومة ليست خياراً صعباً في حياتها، فهي اختارت أن تكون زوجة ترعى زوجها ويرعاها، وهي اختارت أن ترعى شؤون البيت وأن تكون أمّاً تربي أولادها. وليس اختيارها حالة ذاتية مختنقة أو رهناً للعادات والتقاليد، ولكنها رأت -اختيارياً- أن تلك هي مسألة الحياة، فالزوجية قانون وسنة وعملية تكامل وليست عملية مصادرة إنسان لإنسان، والأمومة هي سرّ امتداد الإنسانية في الحياة، وإذا كان البعض ينظر إلى البيت على أنه سجن، فإن نظرة الإسلام له أنه المحضن الذي يربي الأجيال ويصنع الرجال العظام والنساء العظيمات.

إن بعض الناس ينظرون إلى جانب من الصورة فيسيئون الحكم عليها، ولكننا إذا نظرنا إلى الصورة من جميع جوانبها فلن تكون سلبية وسيئة بشكل مطلق يوحى بالسقوط، ولا إيجابية بشكل مطلق يوحى باللاواقعية. ولهذا فقصة أن تكون المرأة زوجة كقصة أن يكون الرجل زوجاً، وقصة أن تكون المرأة أمّاً كقصة أن يكون الرجل أباً، وإذا كانت الأمومة تضغط على المرأة من خلال ما تتحمله من صعاب جسدية ونفسية، فإن الأبوة تضغط على الرجل لما تفرضه من مسؤوليات عن البيت الزوجي تضطرّه إلى الهجرة والاغتراب سعيّاً وراء العمل وتأمين مستلزمات العائلة،

وإذا كانت المعاناة بينهما تختلف في طبيعة الشكل، فإنها تتفق في طبيعة الجوهر فيما هو الضغط وفيما هي الآلام والمعاناة التي تصنع الحياة.

حزن علي (ع) على البتول:

لقد عاش علي (ع) مع فاطمة (ع) مدة قصيرة في حساب الزمن ولكنها كبيرة في معنى القيم، فقد كانت تناغي بروحها روحه، وتضم عواطفها إلى عواطفه، وتعطيه المحبة وتشاركه الهموم وتخفف عنه الأحزان، كانت سلوته الوحيدة في الزمن الذي عز فيه الصديق وغدر فيه الزمان وقل فيه الناصر والمعين، كانت تجسد رسول الله أمام ناظريه في كل أقوالها وأفعالها، فكيف كان حال عليّ وهو يراها مسجاة أمامه وقد فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها؟ كيف كانت مشاعره وعواطفه وهو يوسدها في ملحودة قبرها؟

لقد كان علي يشعر بالسكينة والاطمئنان وهو إلى جانب رسول الله (ص)، فلما غاب الرسول (ص) بقي يعيش السكينة والطمأنينة الروحية مع الزهراء البتول، فلما غابت الزهراء (ع) وأفل نجمها، شعر عليّ بالغرابة وأحس بالوحدة وامتأ قلبه بالحزن الكبير، لا من جهة فقد قرابة هنا أو قرابة هناك، بل لأنه لم يعد يوجد إنسان يعيش معنى علي (ع) ويعيش علي (ع) معناه، لم يعد يوجد إنسان يلجأ إليه علي (ع)، كما كانت فاطمة (ع)، لأنها كانت كفؤاً لعلي (ع)، كما كان علي (ع) كفؤاً لها، كان عقلها وعقله وقلبها وقلبه، فهما صنيعة رسول الله وتلميذاه اللذان نهلا من معين علمه. ولهذا أحسّ عليّ بفقدائها أنه فقد كيانه، ومن يفقد كيانه فلا بد أن يشعر بالغرابة عن هذا العالم.

وداع الزهراء (ع):

ونستشعر وقع هذه الغربة وأليم الحزن ولوعة الفراق التي أصابت علي (ع) بفقد الزهراء من الكلمات الحزينة التي قالها (ع) في تأبين الزهراء ووداعها، فقد روى الشريف الرضي في نهج البلاغة عن الإمام الحسين (ع)، أنَّ مما ودَّع به علي (ع) زوجته فاطمة (ع) قوله: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك». وفي هذا إشارة إلى أنها دفنت إلى جوار رسول الله (ص)، كما سيأتي في الحديث عن موضع قبرها. والسريعة اللحاق بك.. قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري - فقد وصلت إلى حدٍّ أكاد أفتقد فيه الصبر، وهذه مبالغة فيما كان يتحسسه من ألم الفقد، وإلاَّ فإنَّ علياً (ع) هو الصابر الذي لا صبر كصبره - ورقَّ عنها تجلّدي - أي لم أستطع أن أتماسك - إلا أنَّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك - فلقد فارقتك وأنت الأعظم والأبرّ والأحبّ والأقرب - وفادح مصيبتك - لأننا فقدنا بفقدك الوحي الذي كان ينزل علينا من السّماء بألطافه كلها، كان لي في ذلك - موضع تعزٍّ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك - لأنه قام بتغسيله وتجهيزه وتكفينه ودفنه والقوم مشغولون في السقيفة - وفاضت بين نحري وصدري نفسك، فإننا لله وإنا إليه راجعون - فإن روحه الشريفة فاضت إلى بارئها وعلي (ع) يحتضنه ويضمه إليه .

فلقد استرجعت الوديعة - أي الزهراء التي كانت عند علي (ع) وديعة، وقد حافظ عليها أعظم محافظة، لا كما يقول البعض من أنه آذاها في بعض

الأعمال^(١).. وأخذت الرهينة، أما حزني - الذي يعيش في القلب حزناً رسالياً يتحسس معنى من فقد - فسرمد - أبدي - وأما ليلي - حينما أفتقدك يا رسول الله، يا من كنت أنس نهارى، وأفتقد ابنتك التي كانت أنس ليلي - فمسهّد - فلا تستطيع عيني أن تغفو وتنام، لأن ذكرياتكما تفرض عليّ اليقظة - إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم - فأنا وحدي، أعيش في الليل وحدي، وأسير في النهار وحدي وإن كان الناس كلهم معي، لأن العلاقة العميقة بين رسول الله (ص) وبين علي (ع) هي علاقة لا نظير لها، فرسول الله (ص) هو أبو علي بالتربية ومعلمه ومرشده وأخوه ورفيقه، ولذلك نمت بينهما علاقة لا فراغ فيها قطّ - وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها - في ما تعرّضت له من مظالم - فأحفظها السؤال - فقد حدثت لها ولأمتك كلها بعد رحيلك مشاكل كثيرة وحوادث أليمة - واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر - فلا يزال ذكرك يعيش فينا ولم يطل عهدنا بك، ومع ذلك حصل ما حصل - والسلام عليكمم سلام مودّع، لا قال ولا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين^(٢)، فلست جزعاً عندما أقف على قبرك وقبر ابنتك مودعاً، ولست متذكراً لقضاء الله وقدره، وأنا أعلم أن الدنيا لا تدوم لأحدٍ من الخلق، وأنه لا يبقى إلا وجهك الكريم، تعاليت عن الموت والفناء واختصصت بالعزّ والبقاء.

(١) كقصية زواجه من بنت أبي جهل التي تقدمت الإشارة إليها.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٢. وأصول الكافي، ج: ١، ص: ٤٥٨. وأمالى الطوسي، ص: ١١٠،

مؤسسة البعثة، قم - إيران ١٤١٤ هـ.

تربية أولادها

اتضح مما سلف أن فاطمة (ع) عاشت حياةً متعددة في وقتٍ واحد، وتحملت مسؤوليات كثيرة في آنٍ واحد، فمضافاً إلى مسؤوليتها مع رسول الله (ص) وعنه، حتى أنه لم يقبل أن تفترق عنه حتى بعد زواجها، ولذا لم يرض أن تسكن في بيت بعيد عنه، بل ضمّها إلى البيت الذي يقارب بيته بحيث يدخل من بيته إلى بيتها^(١)، ومضافاً إلى مسؤوليتها مع علي (ع) الذي أخلصت له كزوجة وهيأت له الجو الذي يحتاجه الزوج المسلم المجاهد في مستوى علي (ع).. مضافاً إلى ذلك كله، فإنها (ع) قد قامت مع علي (ع) بتأسيس بيت إسلامي نموذجي عاشا فيه الأبوة والأمومة، وأنتجا حسناً وحسيناً وزينب (ع)، وقامت الزهراء (ع) بدورها كأمٍ ترعى أولادها وتربّيهم وهم يتتابعون، وهي على ما هي عليه من الضعف، تربّيهم التربية الإسلامية الرائعة، وتعمق في شخصياتهم كل معاني الحب لله، وكل معاني السّير في

(١) في الكافي، ج: ٤، ص: ٥٥٥، وعنه البحار، ج: ١٠٠، ص: ١٩٤: بسنده عن القاسم بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «إذا دخلت من باب البقيع فبيت علي (ع) على يسارك.. وهو إلى جانب بيت رسول الله (ص)، وباباهما جميعاً مقرونان». وفي خبر آخر أنه كان بين بيته (ص) وبيت فاطمة كوة يطلع من خلالها على أخبارها. راجع: عوالم الزهراء، ص: ٣٧٢.

خط رسول الله، وكل معاني الجهاد في سبيل الله، وتعطيهم كل الطهر من طهرها، وكل الأمومة من أمومتها، وكل النقاء من نقائها، لأنها كانت تمثل غاية الطهر والصفاء، وكذلك كان أبوها وبعلمها، وهكذا ابناها.. كان الطهر يتفايض من عقولهم وقلوبهم وحياتهم، فلا يدنو الرجز منهم، ولأنهم كانوا كذلك أنزل الله فيهم قوله: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُم تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

لقد تحملت الزهاء سيدة نساء العالمين مسؤولياتها كربة بيت، وأجهدت نفسها في إدارة شؤون هذا البيت وإعداد أولادها إعداداً إسلامياً نموذجياً وتعليمهم معنى الجهاد في سبيل الله، سلماً كان الجهاد، كما في قضية ابنها الإمام الحسن (ع)، أو حرباً، كما في قضية ابنها الآخر الإمام الحسين (ع).

إن سر فاطمة (ع) - كما هو سر علي (ع) - يكمن في كل هذا الفيض الروحي والعطاء المعنوي الذي أعطته لأبنائها حتى صاروا يمثلون الكواكب المضيئة في الواقع الإسلامي كله، رغم المعاناة التي عاشوها كما عاشها من قبل أمهم وأبوهم وجدهم.. تلك المعاناة التي لم تكن معاناة شخصية وذاتية، بل كانت معاناة في خط الرسالة، وهذا ما جعلهم - أبناءها (عليهم السلام) - يتقبلونها بكل رحابة صدر، كما عبّر الإمام الحسين (ع) عن ذلك بقوله: «هُوَ مَا نَزَلَ بِهِ أَنَّهُ بَعِينَ اللَّهِ»^(١)، وعبرت عنها زينب (ع) بقولها: «اللهم تقبل منا

(١) الملهوف على قتلى الطفوف، ص: ١٦٩، دار الأسوة، إيران، ١٤١٤ هـ.

هذا القربان»، وقولها للطاغية ابن زياد: «والله ما رأيت إلا جميلاً»^(١). وكيف لا يكونون كذلك وقد شاهدوا أباهم وأمهم من قبل يظلمان ويعانيان ويتألمان من أجل الرسالة، ومع ذلك يقول أبوهم علي(ع): «لأسألكم ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة»^(٢).

فالقضية عند أهل البيت هي رضا الله، وأن تسلم أمور المسلمين، ولو تحمّلوا كل الظلم والجور والمعاناة وقدموا أنفسهم شهداء وقرايين لله الواحد الأحد.

إعدادها لابنتها زينب(ع):

أعدت الزهراء ابنتها زينب إعداداً رسالياً، وربتها على القيم والفضائل الإسلامية، ومن هنا رأينا أن دور زينب كان شبيهاً بدور أمها، جهاداً من أجل قضية الحق، وأن موقفها كان كموقف أمها في صلابته وقوته في الله، وأن تحدّيها كان كتحدّي أمها في مواجهة الظالمين، ولهذا فإن موقف زينب، كما موقف أمها من قبل، يمثل الشرعية لحركة المرأة المسلمة ومشاركتها في العمل الجهادي والسياسي بالطريقة الإسلامية، بأن تقف المرأة في وجه الانحرافات أو الانهيارات التي تحدث في الأمة، لتتحدث بوعي مسؤول ولتقف موقفاً مسؤولاً كما وقفت زينب(ع) - على خطى أمها الزهراء(ع) - خطيبة صادعة بالحق في قوة منطقها وحجتها، وصلابة في مواجهة التحديات والصّعاب، وشجاعة في كل المبادئ، وكل ذلك كان بفضل البذور التي زرعتها فاطمة في عقلها وروحها وقلبها وكل حياتها.

(١) الملهوف، ص: ١٦٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٧٤.

حياتها والمعاناة

قساوة عيشها:

نستطيع أن نصف حياة الزهراء من خلال ما حدثنا به التاريخ أنها كانت حياةً عادية لجهة طريقة العيش ووسائل الخدمة والقيام بأعباء البيت وتربية أولادها، فقد كانت (ع)، ورغم أنها سيّدة نساء العالمين وبنت أشرف الأنبياء والمرسلين وزوجة أمير المؤمنين وسيد الوصيين وأم الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، كانت تعيش بشكل طبيعي، تطحن وتعجن وتخبز وتطبخ وترعى أولادها وتقوم بكل الشؤون التي تتطلبها طبيعة مسؤولية ربة البيت في بيتها، وتغلّبت على المعاناة التي لازمتها من طفولتها واستمرّت معها كأقسى ما تكون وهي في بيت زوجها، وهذه المعاناة والمتاعب والصعاب التي تحملتها فاطمة (ع) كانت هي الفارق بين شخصيتها وشخصية غيرها من النساء، لأن بساطة عيشها وقساوة حياتها وخشونة مأكلاها وملبسها مما يندر أن تصبر عليه النساء، ولكنها (ع) صبرت على المعاناة كما صبر علي (ع) عليها.

وتحكي لنا سيرتها قصصاً معبرة ومؤثرة في هذا المجال، منها:

١- أنه لم يكن لديها إلا جلد كبش تستفيد منه كفراش، وقد قالت في ذلك لأبيها: «والذي بعثك بالحق نبياً، ما لي ولعلي منذ خمس سنين إلا جلد كبش نفترشه بالليل، ونعلف عليه بعيرنا في النهار، وإن مخذتنا حشوها ليف»^(١).

كانت تحدث أباهما بذلك وهي راضية مطمئنة قانعة بما قسم الله لها.

٢- وفي الحديث عن الإمام الصادق (ع)، أن رسول الله (ص) رأى فاطمة (ع) وعليها كساء من نوع رديء وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينها رسول الله (ص) وقال: «يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»^(٢).

٣- وقد شاهدها أحدهم وبين يديها شعير تطحنه وهي تقول: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾^(٣) [القصص: ٦٠].

ذكر الله خير من الخادم:

٤- وقد قال لها زوجها أمير المؤمنين (ع) ذات مرة وهو يرى آثار التعب والإعياء والمعاناة والمشقة عليها: ماذا لو جئت أباك لنطلب منه خادماً يريحك بعض الشيء ويخفف متاعبك، لكنها (ع) امتنعت أن تكون هي المبادرة لهذا، حياءً من رسول الله (ص)، ولذلك لما وصلا إلى الرسول كان المتحدث

(١) عوالم الزهراء، ص: ٢٦٤.

(٢) م.ن، ص: ٢٦٦.

(٣) م.ن، ص: ٢٦٣.

علياً(ع)، فقال وهو يخاطب رسول الله(ص): «إنها طحنت بالرحى حتى مجلت يداها - اخشوشنت - وأثر في صدرها، وكنست البيت - أو كسحت البيت - حتى اغبرت ثيابها - وكأنه قال: وهي تعاني من مشاق المنزل وما يرافقه من تربية الأولاد.. وطلب منه خادماً مما يأتيه من الأسرى، فقال(ص): ألا أعلمكما شيئاً إذا تعلمتماه كان خيراً من الخادم، إذا أخذتما منامكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين مرة، واحمداه ثلاثاً وثلاثين مرة، وسبحاه ثلاثاً وثلاثين مرة، فهو خير لكما من الخادم، فقالا: رضينا بالله»^(١).

قال النبي(ص) ذلك وهو يخاطب روحهما ليرتفع بهما إلى أعلى مراتب الكمال، وليربطهما بالله سبحانه، وليخفف عنهما، لا سيما فاطمة، ما يلاقيانه من متاعب ومصاعب، وربما كان الرسول(ص) لا يملك خادماً يقدمه لهما، أو كان يملكه ولكنه لا يريد أن يميز بيته وبيت ابنته عن بيوت بعض الفقراء الذين ربما لا يملكون خادماً. ولذا علمها ما هو خير من الخادم، وخلد بذلك ما عرف بتسبيح الزهراء(ع) الذي بقي وسيبقى ذكراً يتحرك به المؤمنون عقيب كل صلاة يصلونها وقبل أن يخلدوا إلى النوم كل ليلة من لياليهم، متذكرين بذلك قساوة عيش سيدتهم الزهراء التي ابتعدت عن متاعبها وتناست همومها وهي تجلس بين يدي ربها لتكبره وتحمده وتسبحه، وليتعلموا من خلالها(ع) كيف يكون العيش مع الله وكيف

(١) وسائل الشيعة، ج: ٦، ص: ٤٤٦. وصحيح البخاري بشرح الكرمانى، ج: ١٤، ص: ٢٤٤، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: ٢، ١٩٨١. ومسنّد أحمد، ج: ١، ص: ١٠٦. وعوالم الزهراء، ص: ٢٢٦.

يأنسون للخلوة معه ويتلمسون حلاوة ذكره عندما تداهمهم الهموم وتهاجمهم الصعاب والآلام.

إن النبي (ص) يريد من خلال هذا العطاء الذي قدمه لفاطمة بدلاً من الخادم، أن يقول لها ولعلي وللمؤمنين من خلالهما، اصبروا وليكن صبركم بالله وفي سبيله، فإن المعاناة في هذه الحياة إذا كانت في سبيل الله فإنها أحلى من العسل.

وفي رواية عن أمير المؤمنين (ع) وهو يتحدث عن معاناة الزهراء (ع) ويشير فيها إلى قضية التسبيح، أنه قال لرجل من بني سعد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة: إنها كانت عندي وكانت من أحب أهله - النبي - إليه، وإنها استقت بالقربة حتى أترفي صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها - اخشوشن جلدها من العمل بذلك - وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت النار حتى دكنت ثيابها - اغبر لونها - فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألته خادماً يكفيك ضرراً أنت فيه من هذا العمل، فأنت النبي (ص) فوجدت عنده حُدّاً، فاستحت فانصرفت، فعلم النبي (ص) أنها جاءت لحاجة، قال: فغدا علينا رسول الله ونحن في لفاعنا - لحافنا - فقال: السلام عليكم، فسكتنا واستحيينا لمكاننا، ثم قال: السلام عليكم فسكتنا، ثم قال السلام عليكم، فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك، يسلم ثلاثاً فإن أذن له، وإلا أنصرف، فقلت: وعليك السلام يا رسول الله، ادخل، فلم يعد أن جلس عند رؤوسنا فقال: يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس عند محمد؟ قال:

فخشيت إن لم نجبه أن يقوم، فأخرجت رأسي فقلت: أنا والله أخبرك يا رسول الله، فذكرت له ما كانت عليه فاطمة وما طلبت منها، فقال (ص): أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم، إذا أخذتما منامكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمداً ثلاثاً وثلاثين، وكبّراً أربعاً وثلاثين، قال: فأخرجت فاطمة رأسها فقالت: رضيت عن الله ورسوله (ثلاث مرات)^(١).

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٤، ص: ٨٢، رواية: ٥.

ظلاماتها

لقد امتلأت حياة فاطمة (ع) القصيرة التي لم تتجاوز العشرين سنة على بعض الأقوال بالمعاناة الكثيرة والمصائب الجليلة. وقد تحدثنا عن معاناتها وقساوة عيشها، وبقي أن نتحدث عما هو أمرٌ من ذلك وأدهى، أعني مصائبها وظلاماتها التي تعرضت لها بعد وفاة أبيها، مما يدمى له فؤاد الغيور، ويحترق لوقعه قلب المسلم، ويتفتت له كبد الرسول (ص)، ومما شكّل جرحاً نازفاً في الجسم الإسلامي أسس لجراحات مؤلمة أعقبته وكانت ناتجة عنه، وكان أفجعها وأمرّها قتل سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين وأهل بيته في صحراء كربلاء وسبي نسائه وأطفاله إلى الشام يساقون كما تساق الإماء. وهذه الظلمات رواها السنة والشيعة، ولا نجازف إذا قلنا إن الروايات التي تتحدث عن مظلوميته متضافرة ومستفيضة، بل تكاد تكون متواترة.

١- الهجوم على الدار:

ذكر المؤرخون ومنهم ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة»، أن القوم جاءوا - بعد وفاة الرسول وحادثة السقيفة - بالخطب ليجرقوا بيت علي

وفاطمة^(١)، تهديداً لهما ولمن يعتبرونهم معارضة قد اجتمعت في بيت علي(ع)، وقد قيل لقائد الحملة: يا هذا، إنَّ في البيت فاطمة، وفاطمة هي الإنسانية التي يلتقي المسلمون على حبِّها واحترامها وتعظيمها، لأنها البنت الوحيدة التي تركها رسول الله بعد وفاته، ولأنها بضعة منه يغضبه ما يغضبها ويؤذيه ما يؤذيها... فكيف تأتي بالنار لتحرق بيتها؟

ولكنه قال كلمته الشهيرة التي عبّر الشاعر المصري(حافظ إبراهيم) عن خطورتها بقوله:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرّقت دارك لا أبقى عليك بها إن لم تبائع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحاميتها

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص: ١٢، انتشارات الشريف الرضي، مصوَّرة عن الطبعة المصرية، قم-إيران، ١٩٦٩م. تاريخ الطبري، ج: ٢، ص: ٤٤٣، قم-إيران، مصورة عن الطبعة المصرية المطبوعة بتاريخ ١٩٣٩م. أنساب الأشراف، ج: ١، ص: ٥٨٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج: ٦، ص: ٥٠٠، وغيره، فراجع: عوالم الزهراء، ص: ٤٠٤ وما بعدها، فقد أشار إلى مصادر ذلك. وقد روى الحادثة صاحب الاحتجاج، ج: ١، ص: ١٠٥، على الشكل التالي: عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: «ثم إن عمر احتزم بإزاره وجعل يطوف بالمدينة وينادي: ألا إن أبا بكر قد بويع له فهلموا إلى البيعة، فينثال الناس يبايعون، فعرف أن جماعة في بيوت مستترون، فكان يقصدهم في جمع كثير ويكبسهم ويحضرهم المسجد، فيبايعون، حتى إذا مضت أيام أقبل في جمع كثير إلى منزل علي(ع)، فطالبه بالخروج، فأبى، فدعا عمر بحطبٍ ونار وقال: والذي نفس عمر بيده ليخرجن أو لأحرقنه على ما فيه، فقيل له إن فاطمة بنت رسول الله وولد رسول الله وآثار رسول الله(ص) فيه، وأنكر الناس ذلك من قوله، فلما عرف إنكارهم قال: ما بالكم أتروني فعلت ذلك، إنما أردت التهويل، فراسلهم علي أن ليس إلى خروجي حيلة، لأنني في جمع كتاب الله الذي قد نبذتموه وألهتكم الدنيا عنه، وقد حلفت أن لا أخرج من بيتي ولا أدع ردائي على عاتقي حتى أجمع القرآن...».

وهي قوله : «وإن».

ونحن نعتبر هذه الكلمة من أخطر الكلمات، لأنها تعني فيما تعنيه أنه لا مقدسات في هذا البيت، فلا مانع من أن يحرق على أهله !

إنّ هذه الكلمة تشير إلى روحية القوم وما كانوا يهيئون له، مع أنهم لو فتحوا باب الحوار الإسلامي من خلال الكلمات الطيبة، لرأوا أن علياً هو إنسان الحوار كما كان في كل حياته حتى بعد أن أصبح خليفة، ولوجدوا أن فاطمة هي إنسانة الحوار، لأن القرآن الذي كانت فاطمة أكثر الناس التزاماً به كان كتاب الحوار، لكن القوم كانوا قد تجاوزوا مرحلة الحوار عندما جمعوا الحطب لإحراق بيت الزهراء(ع)، وقال قائلهم تلك الكلمة جواباً لقولهم إن فيها فاطمة، فقال «وإن»، والتي تعبر عن أبشع الظلم الذي تعرضت له الزهراء(ع).

٢ - مظالم أخرى:

وهناك بعض الحوادث التي تعرضت لها ممّا لم تتأكد لنا بشكل قاطع وجازم، كما في مسألة حرق الدار فعلاً، وكسر الضلع، وإسقاط الجنين، ولطم خدها وضربها.. ونحو ذلك مما نقل إلينا من خلال روايات يمكن طرح بعض علامات الاستفهام حولها، إما من ناحية المتن وإما من ناحية السند، وشأنها شأن الكثير من الروايات التاريخية. ولذا فقد أثّرنا بعض الاستفهامات كما أثارها بعض علمائنا السابقين رضوان الله عليهم، كالشيخ

المفيد^(١) الذي يظهر منه التشكيك في مسألة إسقاط الجنين، بل في أصل وجوده - وإن كنا لا نوافقه على الثاني -، ولكننا لم نصل إلى حد النفي لهذه الحوادث - كما فعل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قده) بالنسبة لضربها ولطم خدها^(٢) -، لأن النفي يحتاج إلى دليل كما أن الإثبات يحتاج إلى دليل، ولكن القدر المتيقن من خلال الروايات المستفيضة، بل المتواترة تواتراً إجمالياً، هو الاعتداء عليها من خلال كشف دارها والهجوم عليه والتهديد بالإحراق، وهذا كافٍ للتدليل على حجم الجريمة التي حصلت.. هذه الجريمة التي أرقت حتى مرتكبيها، ولذا قال الخليفة الأول لما دنته الوفاة: «ليتنى لم أكشف بيت فاطمة ولو أعلن عليّ الحرب»^(٣).

ماتت غاضبة على ظالمها:

إن قضية الهجوم على دار الزهراء (ع) وتجميع الحطب على بابها وغير ذلك من المظالم التي لحقت بها مما تحدثت عنه المصادر التاريخية، لم يلق قبولاً لدى المسلمين بشكل عام، لما للزهراء (ع) من مكانة في نفوسهم جعلتهم يرون أن الإساءة إليها هي إساءة لرسول الله (ص)، ما اضطر للذين ظلموها أن يأتيها تحت تأثير الضغط العام والاستهجان الكبير لهذه

(١) الإرشاد، ج: ١، ص: ٣٥٥. وهكذا يظهر من الطبرسي في «إعلام الوري بأعلام الهدى»، ج: ١، ص: ٣٩٥، مؤسسة آل البيت، إيران، ١٤١٧ هـ.

(٢) جنة المأوى، محمد حسين كاشف الغطاء، ص: ١٣٥. دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٨ م.

(٣) شرح نهج البلاغة، ج: ٦، ص: ٥٠، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية، لبنان. ولسان الميزان، ج: ٤، ص: ١٨٩، وفيه: «وددت أني لم أكشف بيت فاطمة وتركته وإن أغلق على الحرب». كما نقله عنه في عوالم الزهراء، ص: ٤١٧.

الأعمال، وطلبا من علي(ع) أن يستأذن لهما بالدخول عليها ليسترضيها، فماذا كان موقفها؟

ينقل ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» أن عمر قال لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها، فانطلقا جميعاً، فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط، فسَلَّما عليها فلم ترد عليهما السلام، فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إليّ من قرابتي، وإنك لأحب إليّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوك أني متّ ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشفرك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله(ص)؟ إلا أني سمعت أباك رسول الله(ص) يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

فلم تعلق الزهراء(ع) على قضية الميراث، لأنها كانت قد عالجت هذه المسألة مفصلاً في خطبتها - التي سيأتي شرحها - لكنها أرادت أن تقيم الحجة عليهما في ما عرض لها من أذى وظلّامة وإساءة، فقالت: «أرأيكما إن حدثكما حديثاً عن رسول الله(ص) تعرفانه وتفعلان به؟ قالوا: نعم، فقالت: نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله(ص) يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ ابنتي فاطمة أحبني ومن أسخط فاطمة أسخطني، قالوا: نعم سمعناه من رسول الله(ص)، فقالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكوكما إليه، فقال أبو بكر: وأنا عائد بالله من

سخطه وسخطك يا فاطمة، وهي تقول: والله لأدعونّ عليك في كل صلاة أصليها»^(١). وفي رواية أخرى ينقلها العلامة المجلسي في بحار الأنوار أنها (ع) قالت لهما: «أنشدكما بالله، هل سمعتما النبي (ص) يقول: فاطمة بضعة مني وأنا بضعة منها من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذاها بعد موتي فكان كمن آذاها في حياتي، ومن آذاها في حياتي كان كمن آذاها بعد موتي؟ قالوا: اللهم نعم، فقالت: الحمد لله».

ثم قالت: «اللهم إني أشهدك فاشهدوا يا من حضرنني، أنهما قد آذيانني في حياتي وعند موتي»^(٢).

وهكذا وبكل قوة وشجاعة احتجت الزهراء (ع) عليهما وسجلت عليهما أنهما أغضباهما وأغضبا بذلك رسول الله (ص) ومن فوق ذلك أغضبا الله سبحانه وتعالى، وبقي غضبها (ع) جرحاً نازفاً في قلب أبنائها ومحبيها، وقد سئل عبد الله بن الحسن عن الشيخين فقال: «كانت أمنا صديقة ابنة نبي مرسل، وماتت وهي غضبي على قوم فنحن غضاب لغضبها».

أتموت البتول غضبي ونرضى ما كذا يصنع البنون الكرام^(٣)

دفنها ليلاً:

ولم يقف احتجاجها عند هذا الحد، بل إنها واصلت رحلة الاحتجاج إلى حين موتها، وكانت قمة احتجاجاتها بالحق أنها أوصت علياً (ع) أن يدفنها

(١) الإمامة والسياسة، ص: ١٤.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢٠٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج: ٦، ص: ٤٩ - ٥٠.

ليلاً^(١)، وأن لا يحضر جنازتها الذين ظلموها واضطهدوها وسلبوها حقها. ولقد أرادت أن تعبر عن معارضتها ومجابتها للعدوان والظلم حتى بعد الموت، كما عبّرت عن ذلك حال الحياة، وأرادته احتجاجاً غاضباً قاسياً لكنه واعٍ وبالأساليب الحكيمة والحجج المقنعة والمواقف القوية، لأن الناس سينطلقون بالتساؤل: لماذا تدفن بنت النبي (ص) ليلاً؟ لماذا أوصت بذلك؟ وما هي القضية، فهذا لم يسبق له مثيل في الواقع الإسلامي، والجميع كانوا ينتظرون المشاركة في تشييع بنت نبيهم، وإذا بها تشييع وتدفن ليلاً ويقال لهم إن ذلك كان التزاماً بوصيتها!

وهكذا يبدأ التساؤل ويكثر في أوساط المسلمين لماذا ولماذا؟ وهذا ما تريده الزهراء (ع)، لتستيقظ الضمائر ويعرف المغفلون طبيعة اللعبة ومجريات الأمور.

تسوية قبرها:

وكان من جملة وصاياها التي أوصت بها أمير المؤمنين (ع): أن يسوي قبرها ويخفيه، ليكون ذلك دليلاً وشاهداً على كل الظلم الذي لحق بها، والاضطهاد الذي تعرضت له، ولتخلّد بذلك احتجاجها على القوم الذين ظلموها^(٢). وعمل علي (ع) بوصيتها هذه، فدفنها ليلاً وعفى موضع القبر.

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢١٠ - ٢١١. وأشار إلى دفنها ليلاً كثير من المؤرخين وكثير من المصادر، كابن سعد في الطبقات، والحاكم النيسابوري في المستدرک، وسنن البيهقي، وتاريخ الطبري وغيرهم. راجع: قادتنا كيف نعرفهم، السيد الميلاني، ج: ٤، ص: ٣٧٧، مؤسسة آل البيت (ع)، قم - إيران، ١٤١٣ هـ. وعوالم الزهراء، ص: ٥٠٥.

(٢) عوالم الزهراء، ص: ٥١٩.

موضع قبرها:

وبقي موضع قبرها مجهولاً، ولم يستطع أحد التعرف عليه، وقد ورد تعيينه في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، ففي بعضها أنها دفنت في بيتها^(١)، وفي البعض الآخر أنها دفنت في الروضة، واختاره بعض العلماء وأيده بالرواية المعروفة: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢)، وهناك قول ثالث يرى أنها دفنت في البقيع، وهو مروى أيضاً^(٣).

(١) روي ذلك عن الرضا(ع)، أورد في البحار، ج: ٩٧، ص: ١٩٠ حديثاً عن عيون أخبار الرضا المصدوق بسنده عن البزنطي قال: سألت الرضا(ع) عن قبر فاطمة(ع) فقال: دفنت في بيتها فلما زادت بنو أمية في المسجد صار في المسجد، ورواه في أصول الكافي، ج: ١، ص: ٤٦١. وروى حديثاً آخر عن الإمام الرضا(ع) يدل على المعنى نفسه، راجع: البحار، ج: ٩٧، ص: ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٩٧، ص: ١٩٢، ١٩٦. عوالم الزهراء، ص: ٥٢٦، نقلاً عن ابن شهر آشوب وغيره من مصادر السنة والشيعية.

(٣) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢١٢.

أقول: القول الأول وهو أنها مدفونة في بيتها، اختاره جمع منهم المجلسي (بحار الأنوار، ج: ٩٧، ص: ١٩٣) والعلامة الأمين العاملي (أعيان الشيعة، م: ١، ص: ٣٢٢). قال الأول: «الأظهر أنها صلوات الله عليها مدفونة في بيتها، وقد قدمنا الأخبار في ذلك»، وقال الثاني: «ف قيل دفنت في بيتها وهو الأصح الذي يقتضيه الاعتبار». وكذلك اختاره الشيخ الصدوق فقال: اختلفت الروايات في موضع قبرها(ع)، فمنهم من روى أنها دفنت بين القبر والمنبر وأن النبي (ص) إنما قال: بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، لأن قبرها بين القبر والمنبر، ومنهم من روى أنها دفنت في بيتها فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد، وهذا هو الصحيح عندي» (راجع بحار الأنوار، ج: ٩٧، ص: ١٩٦).

وأما القول الثاني، وهو أنها مدفونة في الروضة، فقد اختاره الشيخ الطوسي (قده)، قال في التهذيب (راجع بحار الأنوار، ج: ٩٧، ص: ١٩٢): تأتي الروضة فتزور فاطمة(ع) لأنها مقبورة هناك عندي، وقد اختلف أصحابنا في موضع قبرها، فقال بعضهم: إنها دفنت في بيتها، فلما زاد بنو أمية في المسجد صارت من جملة المسجد، وهاتان الروايتان كالمقاربتين، والأفضل عندي أن يزور الإنسان في الموضعين جميعاً لأنه لا يضره ذلك، ويحوز به أجراً عظيماً، وأما من قال إنها دفنت في البقيع فبعيد من الصواب» =

٣- منعها فدكاً:

مما أسيء به إلى الزهراء (ع) منعها فدكاً التي هي حق من حقوقها، كما يؤكد ذلك التاريخ السني والشيوعي. فقد ذكر علماء الفريقين ومنهم السيوطي في «الدر المنثور» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَا الْقُرَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦]، أنه لما نزلت الآية، نحل الرسول ابنته فاطمة فدكاً التي كانت له ممّا صالحه اليهود عليه في حربه معهم^(١). والظاهر أن حق فاطمة (ع) في فدك كان معروفاً لدى المسلمين في الامتداد التاريخي، لذلك رأينا أن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة أموي، أرجع فدكاً إلى أهل البيت^(٢)، ثم أخذت منهم وجاء أبو العباس السفّاح أول خلفاء بني العباس وأرجعها إليهم، حتى إذا استولى المنصور على الخلافة أخذها ثم ردها المهدي ثم قبضها المهدي وهارون، فلم تنزل في أيديهم إلى أن ولي المأمون فردّها على الفاطميين^(٣). حتى قال الشاعر في ذلك:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

والأدلة على ملكية الزهراء لفدك كثيرة ولا تكاد تخفى، وقد شهد لها بذلك بعض المسلمين، ومنهم أمير المؤمنين (ع)، وأم أيمن، لكن شهادتهم لم

= وأما القول الثالث: وهو أنها مدفونة في البقيع، فقد جاء في المصادر السنية على الأغلب، كطبقات ابن سعد ومروج الذهب والاستيعاب وتاريخ الإسلام. راجع: عوالم الزهراء، ص: ٥١٧ - ٥٢٩.

(١) الدر المنثور، ج: ٤، ص: ١٧٧. ينابيع المودة، القندوزي الحنفي، ج: ١، ص: ١٣٨، دار الأسوة، إيران،

١٤١٦ هـ. راجع: قادتنا كيف نعرفهم، ج: ٤، ص: ٣١٩.

(٢) فتوح البلدان، ص: ٣٨، شرح النهج، ج: ١٦، ص: ٢١٦.

(٣) شرح النهج، ج: ١٦، ص: ٢١٦.

تقبل^(١)! ولم يكن من حجة معارضة إلا حديث رواه أبو بكر عن النبي (ص) يقول فيه: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»^(٢).

والمفارقة التي تقف أمام هذه الحجة مضافاً إلى معارضتها للقرآن الكريم - كما سيأتي تفصيله في شرح خطبتها (ع) :-

أولاً: أن هذا الحديث - «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» - قد تفرد أبو بكر بروايته، والزهراء (ع) تنفي صدوره عن النبي (ص) من خلال موقفها.

ثانياً: أن رسول الله (ص) الذي كان يحب فاطمة أعظم الحب، ويقبها من كل سوء، كيف لم يخبرها بهذا الحكم الشرعي المخالف لعموم القرآن، والدالّ - أي القرآن - على أن الأنبياء يرثون ويورثون؟ كيف لم يخبرها بذلك مع أن هذا الحديث يرتبط بها بشكل مباشر، بل هي مصداقه الأبرز! فكيف لا يخبر حبيبته ويجنبها المتاعب؟

ثالثاً: إذا كان المسلمون متفقين على أن فاطمة هي سيدة نساء العالمين أو على الأقل سيدة نساء عالمها^(٣)، فهل يمكن أن تتحدث سيدة نساء العالمين كذباً أو لغواً أو تخالف حديثاً صادراً عن أبيها رسول الله (ص)؟! أو ترتبط في موقفها من القيادة الإسلامية المتمثلة بأمر المؤمنين (ع) ارتباطاً عاطفياً يبتعد عن الحق؟!

(١) شرح نهج البلاغة، ج: ١٦، ص: ١٢٢.

(٢) صحيح البخاري، بشرح الكرمانلي، ج: ١٥، ص: ٤.

(٣) ستأتي مصادر هذا الحديث.

لو أنصف المسلمون أنفسهم لرأوا في موقف الزهراء (ع) الحجة البالغة التي يلزم الأخذ بها من دون نقاش، لأن سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء عالمها أو سيدة نساء المؤمنين، لا يمكن إلا أن تكون مع الحق ويكون الحق معها، ولقد قلنا هذا القول بالنسبة للإمامين الحسنين (ع)، فإن شرعية موقف الإمام الحسن (ع) في صلحه وحربه، وشرعية موقف الحسين (ع) في ثورته، يكفي عليها دليلاً أنهما وباتفاق المسلمين جميعاً سيدا شباب أهل الجنة، ولا يمكن لسيد شباب أهل الجنة أن ينحرف عن الخط الإسلامي، بل لا بد أن يكون موقفه وخطه هو الموقف الإسلامي والخط الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

رابعاً: أنه لم يردنا عن تاريخ كل الأنبياء أنهم لم يورثوا شيئاً وأن ما يتركونه فهو صدقة، مع أنه لو كان الأمر عند الأنبياء (ع) بأنهم لا يورثون كما نص هذا الحديث، لوصلنا شيء من ذلك، ولعرف ولو عند أهل الأديان الأخرى وذكر في كتبهم، مع أن ذلك لم يحصل.

خامساً: ثم أيعقل أن يخاصم علي (ع) في أمر فك ويتهم القوم بالظلم والخيانة^(١) محاباة لزوجته؟ كيف والنبي (ص) يقول: «الحق مع علي بن أبي طالب حيث دار»^(٢)؟ ويقول (ص): «علي مع الحق والحق مع علي»^(٣)، وكيف يخفى على أن النبي لا يورث وهو باب مدينة علم

(١) شرح نهج البلاغة، ج: ١٦، ص: ٢٢٩.

(٢) فرائد السمطين، ج: ١، ص: ١٧٧، نقلاً عن: قادتنا، ج: ٢، ص: ٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار، ج: ٤٨، ص: ٢٦.

الرسول وحكمته، والذي لازم الرسول بما لم يفز به غيره من الصحابة؟!

سادساً: يذكر المؤرخون - كما سيأتي - أن فدك كانت في يد الزهراء (ع)، وهي إنما طالبت في بداية الأمر بها على أساس أنها نحلة أبيها وهبها لها في حياته، فلا يشملها الحديث المزعوم لأبي بكر، لأنه ينفي الميراث وهي تدعي النحلة.

لماذا لم يسترجع علي (ع) فدكاً؟

ولكن قد يعترض على ما تقدم بأنه إذا كانت فدك حقاً لفاطمة (ع) فلم لم يسترجعها علي (ع) بعد تولي أمور المسلمين؟

وقد أجاب الإمام الرضا (ع) على هذا التساؤل وفي جوابه كفاية، وإليك الرواية كما أوردها الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا (ع)، حيث سألته الحسن بن علي بن فضال (ع) عن أمير المؤمنين: لم لم يسترجع فدك لما ولي أمر الناس؟ فقال: «لأننا أهل بيت إذا ولّنا الله عز وجل لا يأخذ لنا حقوقنا ممن ظلمنا إلا هو، ونحن أولياء المؤمنين إنما نحكم لهم ونأخذ لهم حقوقهم ممن يظلمهم ولا نأخذ لأنفسنا»^(١). فالإمام الرضا (ع) يقول لابن فضال إنه كان بإمكان الإمام علي (ع) استرجاع فدك، لكنه كان يرى أن مسؤوليته هي أن يأخذ للناس حقوقهم ممن ظلمهم ولا يأخذ حقه ممن ظلمه، وهذا أسلوب مميز لأهل البيت في مسألة التعامل مع حقهم المغتصب،

(١) عيون أخبار الرضا، ج: ٢، ص: ٨٦، وسيأتي في ملحق الأسئلة إجابتان أخريان لسماحة السيد على هذا التساؤل.

وحاصله أن مهمة الأئمة (ع) أن يطالبوا بحقوق الناس لا بحقوقهم، فإن الله تعالى هو الذي يأخذ لهم بحقوقهم من خلال الظروف التي يحققها لاسترجاعه، أما هم فلا يباشرون ذلك، ربما لكي لا يقول قائل إنهم اتخذوا الحكم وسيلة لتحقيق مطالبهم ومآربهم الخاصة.

فدك رمز الخلافة:

لم تكن الزهراء (ع) عندما وقفت تطالب بحقوقها في فدك تهتم بفدك من الناحية المالية، لأن الدنيا لا قيمة لها عند فاطمة التي تعودت على حياة التقشف والبساطة، وكما قال علي (ع) وهو يتحدث عن الدنيا: «... نعم، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلمت السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غدٍ جدت...»^(١).

لقد كانت فدك في نظر الزهراء (ع) جسر العبور إلى حق علي (ع) في الخلافة، وقد نقل أن هارون الرشيد عرض على الإمام موسى الكاظم (ع) أن يحدّ له فدكاً ليرجعها لورثة فاطمة، فحدّد الإمام فدكاً بحدود الدولة الإسلامية كلها^(٢).

وكانت الزهراء بمطالبتها بفدك تريد أيضاً أن تفضح الأكذوبة، لأن

(١) نهج البلاغة، من كتاب له لعثمان بن حنيف، رقم الكتاب: ٤٥.

(٢) ألح الرشيد على الإمام الكاظم (ع) أن يأخذ فدكاً، فقال له الإمام: «ما أخذها إلا بحدودها، قال الرشيد: وما حدودها؟ قال: الحد الأول عدن، والحد الثاني سمرقند، والحد الثالث أفريقية، والحد الرابع سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية، فقال له الرشيد: فلم يبق لنا شيء، فتحول في مجلسي، فقال له: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردّها». (فدك للسيد القزويني، ص: ١٦٧).

القضية ليست قضية مال تريد تحصيله، وإنما هي قضية اعتداء على حكم شرعي من أحكام الله: «أثرث أباك ولا أثرث أبي»^(١).. كان نقاشها في القاعدة وما تريده هو تثبيت الحكم الشرعي الذي عمل الحكم والخليفة على تجاوزه، وكانت أول خطوة قام بها هي خطوة إبعاد حكم من أحكام الله انقياداً للمصالح الضيقة.

٤ - ظلم التاريخ:

إن ما يبتلى به العظماء أن يظلمهم التاريخ والمؤرخون، فيعمدون إلى طمس أسمائهم وتهميش أدوارهم وعدم ضبط حياتهم الغنية بالدروس والعبر الحية التي تربي الأجيال على امتداد الزمان، والزهراء (ع) ابتليت بذلك، فإننا عندما ندرس سيرتها من خلال ما كتبه تاريخها، فإننا لن نستطيع أن نجد الكثير الكثير، إلا بعض اللقطات التي تتحدث عن حياتها مع أبيها رسول الله من دون أن تحكي لنا مفردات هذه الحياة، ثم نلاحظ أن الحديث عن الزهراء المهاجرة لا يعطينا شيئاً كثيراً سوى أنه يذكر اسمها مع المهاجرين والمهاجرات الذين هاجروا بعد هجرة الرسول. وبعد ذلك وعند الحديث عن زواجها، نجد بعض المفردات في حياتها كزوجة ثم حياتها كأم، والأمر نفسه نجده عند الحديث عن دورها داخل المجتمع الإسلامي، والمفارقة أننا نجد التاريخ قد أفاض في ما لا يرتبط بالناحية العملية من حياتها، مثل قضية احتفالات السماء في قصة زواجها^(٢).

(١) سيأتي في خطبتها.

(٢) عوالم الزهراء، ص: ٢٧٥.

هذا مع أننا نعلم أن حياتها وعلى قصرها كانت زاخرة بالعبر والدروس والتعاليم والعبادة والجهاد.. ونستطيع أن نقول إنه ورغم كل ذلك الظلم التاريخي، فإن ما وصلنا منها وعنهما كفيل في إعطائنا المثل الأعلى والنموذج الأكمل للإنسان المسلم. وإننا من خلال ما تقدم وما سيأتي، سنعمل على إبراز صورتها الحقيقية وبيان خصالها وفضائلها ودروسها ومواعظها وتضحياتها بقدر المستطاع والميسور.

كيف قابلت الظلم؟

رغم كل الجراح والآلام التي تعرضت لها الزهراء (ع)، إلا أنها لم تنهار ولم تسقط، بل بقيت صلبة وقوية في كل مواقفها، صاعدة بالحق من دون أن تخاف في الله لومة لائم. ولم تكن هذه الآلام والمظالم تعني لها شيئاً على المستوى الشخصي والذاتي، ولم تكن فداك عندها قضية مال وحق شخصي - كما تقدم - لأنها (ع) في المستوى القيادي الرسالي، همها الإسلام، وغضب فداك يعني لها غضب الحق وغضب الخلافة، وأما آلامها الشخصية رغم قساوتها، فإنها لا تمثل شيئاً أمام ألمها الكبير بإبعاد علي (ع) عن حقه، وهذا ما عبّرت عنه في خطبتها في المسجد، حيث لم تتحدث فيها عن هجوم القوم على بيتها وغير ذلك من آلامها، وإنما تحدثت عن فداك كرمز للخلافة، تحدثت عن مخالفة القرآن في مسألة الإرث، تحدثت عن خلافة علي (ع) .. وهكذا عندما جاءتها نساء المهاجرين والأنصار، تحدثت إليهن عن علي (ع): «وما نقيموا من أبي حسن، نقيموا منه نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه»^(١).

(١) عوالم الزهراء، ص: ٤٦٠. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج: ١٦، ص: ٢٢٣.

وعندما طاف بها الإمام (ع) على جموع المهاجرين والأنصار، تحدثت معهم عن الحق وأعلنت غضبها للحق لا للذات. لقد كانت قضيتها كلها أن ترى الحق يعطى لأصحابه ويوضع علي (ع) في الموضع الذي وضعه فيه الله ورسوله، لأنها تعتقد أن الإسلام سينمو ويسمو ويتقدم ويتعمق ويستقيم ويشهد ساعده عندما يتحرك علي (ع) في موقع القيادة، لأن علياً (ع) وكما قال عمر بن الخطاب : «ولو وليهم علي لحملهم على المحجة البيضاء»^(١)، ولأنه (ع) لم يكن عنده إلا اللون الأبيض دون اللون الأسود أو الرمادي، ولأن علياً كما قال الرسول (ص) عنه: «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»^(٢)، وقد قالها (عليه السلام): «ليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم»^(٣).

(١) بحار الأنوار، ج: ٥٨، ص: ٢٤٠، وفيه: «إن بايعوا أ صلح بني هاشم حملهم على المحجة البيضاء».

(٢) قادتنا كيف نعرفهم، ج: ٢، ص: ٤٣٨، بحار الأنوار، ج: ٣٨، ص: ٣٦. وسفينة البحار، الشيخ عباس القمي، ج: ٢، ص: ٢٨٨، دار الأسوة، إيران، ١٤١٤ هـ.

(٣) نهج البلاغة، ص: ١٣٦.

الفصل الثالث

■ خصائصها وفضائلها

- الزهراء (ع) في كلام الله تعالى
- الزهراء (ع) في كلمات الرسول (ص)
- منزلتها عند المسلمين
- العصمة
- كراماتها
- العابدة
- الصادقة
- الصديقة الشهيدة
- العالمة
- المجاهدة
- الرسالية

الزهراء (ع) في كلام الله تعالى

لقد جاء ذكر أهل البيت (ع) في القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته المباركة، ونحن نشير إلى ثلاث آيات تحدثت عنهم فشملت فيما شملت سيدتنا الزهراء سلام الله عليها.

١ - الآية الأولى: «ويطعمون الطعام...»:

وهي قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً* إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً* فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً* وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ فهم يعيشون روحية العطاء في أجواء الحرمان الذي يصيب بعض الفئات الاجتماعية المحرومة الخاضعة لبعض الظروف الضاغطة عليهم، كما هي حال اليتيم في اليتيم، والفقير في المسكين، والأسير في الأسير، فيعانون الجوع في كثير من الحالات، لكنهم يجدون لدى الأبرار والخيرين انفتاحاً على حاجاتهم الغذائية، فيقدمون لهم الطعام في لمسة تعبيرية رائعة، في الوقت الذي قد

يكونون محتاجين إليه في حياتهم الخاصة. ولعل هذا هو معنى «على حبه»، أي مع توق النفس إلى الطعام لشدة الحاجة، وهذا هو ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وهذا التفسير مبني على إرجاع الضمير (هاء) في «حبه» إلى الطعام، وهناك تفسير آخر يُرجع الضمير إلى «الله» سبحانه، أي يطعمون الطعام على حب الله وتقرباً إليه.

﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ حيث الرغبة في القرب إليه، فهم يقدمونه لله ويضعونه بيد الله عندما يقدمونه للمحتاجين ابتغاء مرضاته بعيداً عن النوازع الذاتية ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ لأننا نعمل من أجل رضا الله ومحبه ورضوانه، لا ابتغاء تعويض مادي أو معنوي، فهي الرحمة العميقة في القلب المنفتح على الناس من خلال انفتاحه على الله، وهي الروح التي تعيش العطاء كرسالة روحية تتحسس حاجات الآخرين وآلامهم، ولذا فإنها تبذل وتبذل، وتتدفق بالخير كله، تماماً كما هو الينبوع عندما يتدفق بالماء إلى الأرض العطشى، وكما هي الشمس تبذل النور إلى كل الآفاق المظلمة التي تتطلع إلى رحاب الشروق.

بين سموّ العطاء والخوف من الله:

وهذا ما تنطلق فيه التربية الإسلامية للشخصية الإنسانية من أجل أن يكون العطاء عنصراً ذاتياً في الإنسان، بحيث يتحرك في ذاته بشكل عفوي، وبحيث يكون الدافع الأساس في ذلك كله هو ابتغاء وجه الله، حيث ينفث على الله وعلى الله وحده، فهو الوجود كله ولا وجود لغيره، وهو الغاية في كل شيء ولا قيمة لسواه، فتكبر الأشياء لديه إذا ارتبطت بالله، وتصغر

الأمر عنده إذا انفصلت عن الله، وتتلون حياته بهذا اللون السماوي المشبع بالصفاء، فلا معنى للحياة إلا إذا التقت بالله في مواقع الحياة.

وإذا كان الهدف هو ابتغاء وجه الله في عمق المحبة، فإن الخوف منه قد يؤكد الارتباط الروحي من جهة أخرى، فهؤلاء الناس الذين يتمثلون بهذا النموذج الإنساني، يتطلعون إلى اليوم الآخر في أهواله ومشاهده العابسة المرعبة، فيدفعهم الخوف منه إلى الوقوف في خط المسؤولية، فيقدمون كل شيء لديهم من أجل أن يتخلصوا من عذاب الله في ذلك اليوم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي صعباً شديداً، وذلك ما يريد الله أن يثيره في وعي الإنسان، من أجل أن يربي نفسه على الانضباط في الالتزام بأوامره ونواهيه، على أساس التطلع إلى يوم القيامة حيث يواجه نتائج عمله في عذاب الله. وهذا هو الهاجس الذي عاشه هؤلاء الأبرار عندما كانوا يطعمون الطعام وهم بأشد الحاجة إليه طلباً لرضا الله واتقاءً لعذابه، والطعام هو نموذج لكل العطاءات والخدمات التي يحتاجها الآخرون، فنطعمكم لوجه الله تعني أننا نقضي حاجاتكم لوجه الله، ونعلمكم لوجه الله، وندافع عنكم لوجه الله، وندخل السرور إلى قلوبكم لوجه الله ومخافة ذلك اليوم العبوس القمطير، وهكذا جاءتهم الجائزة ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً.

قصة الآية في حياة أهل البيت (ع):

يذكر المفسرون من مختلف الفرق الإسلامية أن هذه الآية الشريفة نزلت في علي وفاطمة ولديهما الحسن والحسين (ع)، فقد جاء في تفسير

الكشّاف عن ابن عباس، «أن الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله في ناسٍ معه، فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة - جارية لهما - إن برئاً أن يصوموا ثلاثة أيام. فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض عليّ من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك.

فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله (ص)، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد، هنّاك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة»^(١).

هذا وقد أورد الرواية القمي في تفسيره بصيغة أخرى عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام. قال: كان عند فاطمة (ع) شعير فجعلوه عصيدة (شعير يُلْت بالسمن ويطح)، فلما أنضجوها ووضعوها

(١) تفسير الكشاف، ج: ٤، ص: ٦٧٠، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧. وفي شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، ج: ٢، ص: ٣٩٩. وزارة الإرشاد، إيران، ١٩٩٠م، روى مضمون الرواية بأسانيد عديدة، وروى نزولها فيهم البيضاوي في تفسيره، ج: ٢، ص: ٥٢٦، والتعليبي في الكشف والبيان، ص: ٢٧٩.

بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله، فقام علي(ع) فأعطاه ثلثاً، فلم يلبث أن جاء يتيم فقال يتيم رحمكم الله فأعطاه(ع) الثلث، ثم جاء أسير فقال أسير رحمكم الله فأعطاه(ع) الثلث، وما ذاقوها، فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم، وهي جارية في كل مؤمن فعل ذلك لله عز وجل^(١).

هذا هو سر أهل البيت(ع)، أنهم يتحركون في كل نشاطاتهم في الحياة لوجه الله، لا يريدون جزاءً ولا شكوراً، وتلك هي القيمة الإنسانية، أن يعطي الإنسان كل ما يملكه لمن يحتاجه من دون انتظار أي مقابل منه، وإنما ينتظر رحمة الله. وتلك هي قيمة أهل البيت ومنهم سيدتنا فاطمة(ع)، فقد عاشوا روحية العطاء والبذل، عطاء العلم والمال والجاه والقوة والروح والدم، كل ذلك لوجه الله وفي سبيله. وتلك هي روحية وروحانية أهل البيت(ع)، روحية تنفتح على الله ولكنها لا تغيب عن الواقع، فإن هناك روحانية تستغرق في الله فتنسى الحياة، وتذوب فيه فتنسى عبادته، وهذه ليست هي الروحانية التي يريدها الله، لأن ما يريده الله سبحانه أن ينطلق إيماننا ليحرك حياتنا في خط المسؤولية، ويريدنا أن نحبه لنحب الناس من خلال حبه، وأن نحبه ونتقرب إليه من أجل أن يفجر في عقولنا كل طاقات الحق لتكون عقولنا حركية في سبيل الحق، ومن أجل أن يفجر في قلوبنا كل عواطف الحق لتكون قلوبنا نابضة بالحق في كل عواطفها، وليفجر طاقاتنا في الحياة لتكون حركتنا حقاً كلها، ولهذا فإن معنى أن تحب هو أن يتحول

(١) تفسير القمي، ج: ٢، ص: ٣٩٨، مطبعة النجف ١٣٨٧ هـ، وجدد طبعها في قم ١٤٠٤ هـ بتصحيح السيد طيب الجزائري. وعنه البرهان في تفسير القرآن، ج: ٤، ص: ٤١١.

حبك إلى مسؤولية اتجاه الآخرين ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١]، اتبعوني في كل تعاليمي التي تؤكد على خدمة الإنسان واحترامه والإحسان إليه ورفع الظلم عنه، فإنَّ حبَّ الله هو الذي يُترجم إلى عمل، وليس مجرد ترديد كلمات مثل ما يردده بعض المتصوّفة من قولهم «الله حي... الله حي» أو تغزّلهم في الله:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرّم

بل قضية الحب هي أن تنزل إلى الواقع وتتحرك مع الإنسان وتنطلق مع رسول الله في كل ما شرّع وعمل وهدى ودعا وحارب وسالم.

٢ - الآية الثانية: آية المباهلة:

وهي قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٦١].

معاني المفردات:

«تعالوا»: أصله من العلوّ، يقال: تعاليت أتعالي، أي جئت وأصله المجيء إلى ارتفاع، إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار بمعنى هلمّ، كما ذكر صاحب مجمع البيان^(١).

«أبناءنا»: الذين ولدوا منا، طبّقها النبي (ص) على الحسن والحسين (ع)، باعتبار أنهما ابناؤه. وقال أبو بكر الرازي: هذه الآية دالة على

(١) مجمع البيان، الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، مجلد ٢، ج: ٣، ص: ٩٨.

أن الحسن والحسين (ع) ابنا رسول الله (ص)، وأن ولد الابنة ابن في الحقيقة^(١)، وقال الفخر الرازي: هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين (ع) كانا ابني رسول الله (ص) وعد أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين، فوجب أن يكونا ابنيه. ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وزكريا ويحيى وعيسى﴾ [الأنعام: ٨٥] ومعلوم أن عيسى (ع) إنما انتسب إلى إبراهيم (ع) بالأم لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابناً والله أعلم^(٢).

و«نساءنا»: اللاتي ينتسبن إلينا، وقد أراد بها رسول الله (ص) من الناحية التطبيقية فاطمة الزهراء (ع) باتفاق المفسرين.

«وأنفسنا»: والمقصود بالكلمة: الذين يجسّدون الذات في معنى التمثيل الحي لكل ما يمثله النبي من صفات روحية وأخلاقية وعملية، بحيث تكون الذات هي الذات، حتى لتكاد تكون هي في المعنى والصورة من الداخل، وقد طبق النبي (ص) الأنفس على علي بن أبي طالب (ع)، فلا أحد يدّعي دخول غيره مع زوجته وولديه.

«نبتهل»: نتضرع ونجتهد ويخلص كل منا في الدعاء إلى الله أن يلعن الكاذب منا.

مناسبة النزول:

ورد في قصة الحوار الذي أداره النبي محمد (ص) مع بعض النصاري

(١) مجمع البيان، مجلد: ٢، ج: ٣، ص: ١٠١.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج: ٨، ص: ٨١، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، بيروت.

من أهل الكتاب، أن النبيّ قد سلك مسلكاً جديداً في معالجة الموقف معهم بعد وصول الحوار إلى الطريق المسدود، وهو أسلوب المباهلة الذي حدثتنا عنه هذه الآية الكريمة.

وقصة هذه الآية تشرحها لنا عدة روايات قد تختلف في طولها وقصرها، ولكنها تتفق في الفكرة العامة التي نريد أن نستخلصها منها، ولذا فإننا سنكتفي بذكر واحدة منها، وهي رواية المحدث الجليل علي بن إبراهيم القمي التي رواها في تفسيره عن الإمام جعفر الصادق (ع)، قال:

«إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله، وكان سيدهم الأهم والعاقب والسيد، وحضرت صلواتهم، فأقبلوا يضربون الناقوس وصلّوا، فقال أصحاب رسول الله (ص): يا رسول الله هذا في مسجدك؟! فقال: دعوهم، فلما فرغوا دنوا من رسول الله (ص) فقالوا: إلام تدعو؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى (ع) عبدٌ مخلوق يأكل ويشرب ويُحْدِثُ، قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله (ص) فقال: قل لهم ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويُحْدِثُ وينكح؟ فسألهم النبي (ص) فقالوا نعم، فقال: من أبوه فبهتوا. فأُنزل الله: ﴿إِنْ مَثَلْ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ - إلى قوله - فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، فَبَاهِلُونِي، فَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا أَنْزَلْتُ اللَّعْنَةَ عَلَيْكُمْ، وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أَنْزَلْتُ عَلَيَّ، فَقَالُوا أَنْصَفْتَ.

فتواعدوا للمباهلة، فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤسائهم السيد

والعاقب والأهتَم، إن باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله، فإنه لا يقدّم أهل بيته إلا وهو صادق. فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله (ص) ومعه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين (ع)، فقال النصارى من هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذان ابناه الحسن والحسين، ففرقوا (فزعوا) فقالوا لرسول الله (ص): نعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة، فصالحهم رسول الله (ص) على الجزية وانصرفوا^(١).

شرح الآية:

﴿فمن حاجك فيه﴾، في عيسى في أنه «هو الله» وأنه «ابن الله» وأن «الله ثالث ثلاثة»، ولم يبلغ الحوار نهايته الفكرية في قناعتهم الوجدانية، أو أنه عبد الله ورسوله، وأن الله لا إله إلا هو الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ الذي قدّمته إليهم من القرآن والآيات البيّنات على الحق، فليكن للمحاجة أسلوب آخر حاسم تنطلق فيه من موقع التحدي

(١) تفسير القمي، ج: ١، ص: ١٠٤. أقول: تطبيق الآية على الزهراء وبعليها وبنيتها مما أجمع عليه المفسرون والمحدثون: ففي صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧١، كتاب فضائل الصحابة... يذكر أن معاوية سأل سعد بن وقاص: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله فلن أسبّه... إلى أن يقول: ولما نزلت هذه الآية: ﴿فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبنائكم﴾ دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي». وانظر: سنن الترمذي، ج: ٥، ص: ٦٣٨. وشواهد التنزيل، ج: ١، ص: ١٥٥ وما بعدها. والصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، ص: ٤٨، مكتبة القاهرة. مصر. وأما في المصادر الشيعية فقد استفاضت الروايات في ذلك، وبالإمكان مراجعتها في: البرهان في تفسير القرآن، ج: ١، ص: ٢٨٦، وما بعدها، وكنز الدقائق، ج: ٣، ص: ١١٦ وما بعدها. وليراجع أيضاً من كتب التاريخ: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج: ٢، ص: ٣٩٣ وغيره.

الكبير الذي يقف فيه الإنسان بين يدي الله في مواجهته للإنسان الآخر في قضية العقيدة المرتبطة بقضية الإيمان بالله في مضمونه التوحيدي الحقيقي، وهو الأسلوب الذي أخلص الإنسان في الأخذ به والاستعداد لنتائج السلبية التي قد تمثل الخطر عليه وعلى من يتصل به ممن يقدمهم أمامه من أهله ليكونوا طرفاً في المباهلة، فهذا ما يمثل النهاية الحاسمة التي تتمثل في الواقع الإيجابي المنفتح لصاحب الحق، والواقع السلبي المنغلق في حياة المضاد للحق.

﴿فقل تعالوا﴾ يا نصارى نجران، هلمّوا إلى موقف آخر يتمثل فيه العمق العميق للرأي القوي والعزيمة الحازمة.

﴿ندع أبناءنا﴾ الذين يجسدون أعمق علاقة حميمة يعيشها الإنسان في علاقته بالناس، بحيث تتصل حياته بامتداد حياتهم، وعاطفته بالمعنى العميق لوجودهم، فيتعب ليرتاحوا، ويجوع ليشبعوا، ويظماً ليرتووا، ويضحّي بحياته ليعيشوا بعده.. وها أنا أقدم بين يديّ للمباهلة ولديّ الحسن والحسين اللذين يمثلان كل حبّي في العاطفة وكلّ شعوري في المحبة وأملّي بمستقبل الرسالة، فهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتي في الدنيا.

قال صاحب مجمع البيان: «أجمع المفسرون على أن المراد بـ«أبناءنا» الحسن والحسين (ع)، قال أبو بكر الرازي: هذا يدل على أن الحسن والحسين ابنا رسول الله (ص)، وأنّ ولد الابنة ابن في الحقيقة. وقال ابن أبي علان، وهو أحد أئمة المعتزلة: هذا يدل على أنّ الحسن والحسين كانا مكلفين في تلك الحال، لأنّ المباهلة لا تجوز إلاّ مع البالغين، وقال أصحابنا إن صغر

السن ونقصانها عن حدّ بلوغ الحلم لا ينافي كمال العقل، وإنما جعل بلوغ الحلم حدّاً لتعلق الأحكام الشرعية، وقد كانت سنهما في تلك الحال سنّاً لا يمتنع معها أن يكونا كاملي العقل. على أن عندنا يجوز أن يخرق الله العادات للأئمة ويخصّهم بما لا يشركهم فيه غيرهم. فلو صح أن كمال العقل غير معتاد في تلك السن، لجاز ذلك فيهم إبانة لهم عمّن سواهم ودلالة على مكانهم من الله تعالى واختصاصهم، ومما يؤيده من الأخبار قول النبي (ص): «ابناني هذان إمامان قاما أو قعدا»^(١).

ونلاحظ على هذا الحديث حول البلوغ وكمال العقل كشرط للمباهلة، أن مثل هذا الحديث في الجدل الدائر فيه - من هذه الجهة لا من جهة الإيمان بكمال عقلهما (ع) - يتوقف على أن يكون الحسنان (ع) طرفين مستقلين في المباهلة، كما لو كانا هما اللذان يتوليئانها في مقابل نظائرها من الآخرين ليباهل الرجال الرجال، والنساء النساء، والأبناء الأبناء، ولكن يمكن أن تكون المسألة واردة على أساس أن يُقدّم النبي (ص) - وهو واثق بأن الحق معه وأن النتيجة الحاسمة الإيجابية ستكون له - ابنيه وابنته وابن عمه ليكونوا طرفاً في الابتهاال وفريقاً في النتائج الحاسمة الأخيرة، بعيداً عما إذا كانوا مشاركين في التحدي، والله العالم.

﴿وأبناءكم﴾ ممن تختارون منهم للحضور والابتهاال في هذا الموقف الصعب.

﴿ونساءنا﴾ اللاتي يمثلن أقرب موقع للانتماء الإنساني الروحي من النساء في حياتنا الخاصة، وها أنا أقدم بين يديّ ابنتي فاطمة سيدة نساء

العالمين، التي «هي بضعة مني، يرييني ما رابها» ويغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها»^(١)، لأن غضبها في مواقع غضب الله ورضاها في مواقع رضاها. إنني أقدمها في هذا التحدي الكبير للدلالة على أنني على يقين من صدق دعوتي، لأن الإنسان لا يقدم أحب الناس إليه في مواقع احتمال الخطر إلا إذا كان واثقاً من النجاة.

﴿ونساءكم﴾ ممن تختارون من النساء في مجتمعكم الخاص.

﴿وأنفسنا﴾ ممن هم في موقع النفس من حيث المنزلة والمحبة والإعزاز، وهو علي(ع)، لأنه يمثل الصورة الحيّة الصادقة لكل الكمالات والتطلعات والسلوكيات والملكات التي أمثلها، لأنني ربّيته وأنشأته منذ طفولته على صورتني في أخلاقي وروحياتي وأقوالي وأفعالي، فكان مني بمنزلة النفس من النفس والذات من الذات والروح من الروح والعقل من العقل.. وليس هناك غير علي(ع)، فإنه عاش معي كما لم يعيش أحد غيره معي، وكان مني «بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعدي»^(٢).

﴿وأنفسكم﴾ ممن يمثلون وجودكم وذواتكم في حياتكم الخاصة.

﴿ثم نبتهل﴾ وندعو الله ونجتهد في الإخلاص والخضوع بين يديه.

﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ منا ومنكم، فذلك هو الذي ينتهي بالأمر إلى نهاياتها الأخيرة من دون نزاع ولا خصام.

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري: «وعن عائشة (رض)، أن

(١) ستأتي الإشارة إلى مصادر هذه الأحاديث.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧، والبحار، ج: ٢، باب: ٢٩، ص: ٤٨٦، رواية: ٣.

رسول الله (ص) خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . .﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضمّ الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحبّ الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه، حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمتّ المباهلة، وخصّ الأبناء والنساء لأنهم أعزّ الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمّون الذّادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبّه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مفدون بها. وفيها دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء (ع). وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي (ص)، لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك»^(١).

وقال صاحب التفسير الكبير الفخر الرازي: «واعلم أن هذه الرواية - أي رواية المباهلة - كالتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث»^(٢).

(١) الكشف، ج: ١، ص: ٣٦٩.

(٢) تفسير الرازي، ج: ٨، ص: ٨٠.

شبهة واهية:

وقد أثار بعض المفسرين علامة استفهام حول نزول الآية في أهل البيت (ع)، بلحاظ صيغة الجمع الواردة في «أبناءنا» و «نساءنا» و «أنفسنا» التي لا تصدق إلا على ما زاد على اثنين، فكيف تنطبق الأولى على الحسن والحسين (ع)، والثانية على سيدتنا فاطمة الزهراء (ع)، والثالثة على أمير المؤمنين علي (ع)؟

والجواب: إن القيمة التكريمية المميزة لأهل البيت التي تستفاد من هذه الآية كانت من خلال تطبيق الجمع على هؤلاء واقتصاره عليهم في الوقت الذي يمكن للكلمة - في ذاتها - أن تنطبق على أكثر من ذلك، فلم تكن الكلمات المذكورة واردة في هؤلاء على نحو اختصاص المضمون اللغوي بهم، بل من خلال اختصاص الاختيار النبوي - بوحى الله - بهم، وهذا أمر وارد في أكثر من آية، حيث تأتي الآية بصيغة الجمع لتأكيد المبدأ العام الشامل لكل الأفراد من حيث القاعدة، مع أن المصداق واحد، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فقد ذكر فريق من المفسرين ^(١) أن القائل هو نعيم بن مسعود الأشجعي، لأنه كان قد أخذ أمراً من أبي سفيان لتخويف المسلمين من المشركين، وقوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران: ١٨١] فقد ذكر في كلام المفسرين ^(٢) أن القائل هو حيي بن أخطب أو فنحاص اليهودي، وذلك

(١) التفسير الكبير، ج: ٩، ص: ٩٩.

(٢) م. ن، ج: ٩، ص: ١١٧.

باعتبار أن اليهود الآخرين يتفقدون معه في هذا القول أو يرضون به، ما يجعل قوله قولهم، ونحو ذلك من الآيات والكلمات المروية عن كلام العرب التي تنطلق في موقع الفرد الواحد ليتحدث عنها بصيغة الجمع، من أجل الإيحاء بأن المسألة لا تقتصر عليه بل تتعدها - من خلال الذهنية المشتركة بينه وبين فريقه - إلى الفريق كُلِّه.

أما في هذه الآية، فإن النبي(ص) - بتوجيه من الله تعالى له - أراد أن يؤكد المباهلة في خط التحدي الكبير في موقع الاستعداد لتعريض أعز الناس عليه للخطر الآتي من النتائج السلبية المطروحة في ساحة المباهلة بهلاك الكاذب، وأطلق الحديث عن الأبناء والنساء والأنفس ممن يختص به لإطلاق المبدأ في هذه العناوين، فكأنه يريد أن يقول لهم إنه على استعداد لدعوة هؤلاء بكل ما يمثلونه من عمق عاطفي في نفسه إلى المباهلة، للتدليل على صدق دعوته من دون التحديد في عنوان الدعوة، ولكنهم كانوا محددين في نفسه بأشخاص معينين، لأنهم هم المفضلون لديه القريبون إليه الأثيرون عنده، ورسول الله(ص) لا يفضل إلا من يفضل الله، ولا يقرب إلا من قرّبه الله، ولا يحب إلا من أحبه الله سبحانه، ومن هنا كانت الآية الشريفة دليلاً بيّناً على عظمة أهل البيت - بمن فيهم سيدتنا فاطمة(ع) - ومنزلتهم الرفيعة عند الله وعند رسوله(ص).

٣ - الآية الثالثة: آية التطهير:

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وليتضح دلالة الآية على طهارة أهل البيت - بمن فيهم سيدتنا فاطمة - وعصمتهم، لا بد أن نوقع البحث فيها في عدة نقاط :

١- من هم أهل البيت؟

قيل إن المراد بهم أزواج النبي (ص)، روى ذلك الطبري في تفسيره عن علقمة قال: كان عكرمة ينادي في السوق ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، نزلت في نساء النبي خاصة، ومن مظاهر إصراره على هذا الرأي أنه كان ينادي به في السوق، ويقول من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي (ص)^(١).

وقد يقال: إن ما يؤيده هو سياق الآية التي وردت في أجواء الآيات المتعلقة بهن فيما قبلها وبعدها، ما يجعل الظهور بinn في هذا المعنى.

وقيل إن المراد بقوله سبحانه: ﴿أهل البيت﴾ رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين، روى ذلك الطبري في تفسيره عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (ص): نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي علي (رضي الله عنه) وحسن (رضي الله عنه) وحسين (رضي الله عنه) وفاطمة (رضي الله عنها) ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

وروي ذلك عن أم سلمة قالت: كان النبي عندي وعلي وفاطمة والحسن والحسين، فجعلت لهم خزيرة، فأكلوا وناموا وغطى عليهم عباءة أو قطيفة، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(١) راجع: الدر المنثور، ج: ٥، ص: ١٩٨. أسباب النزول للواحي، ص: ٢٦٨.

وفي رواية أخرى عنها أن هذه الآية نزلت في بيتها، قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: أنا يا رسول الله أأست من أهل البيت؟ قال: إنك على خير أنت مع أزواج النبي، قالت: وفي البيت رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين^(١).

والقول الثاني هو الصحيح والأقرب للصواب والمتعين بحسب الدليل، فإن ما روي عن عكرمة لم يسنده إلى رسول الله فيما سمعه الراوي أو المسلمون منه، فهو لا يعدو أن يكون رأياً شخصياً له على أساس اجتهاد خاص لم يأت عليه بدليل واضح للنظر فيه، فلا يلزم غيره برأيه^(٢)، بينما نجد الروايات الأخرى التي تؤكد القول الثاني مروية عن أم سلمة في ما سمعته من رسول الله (ص) وفي ما نقلته من نزول الآية في بيتها أثناء

(١) راجع هذه الروايات في الطبري، ج: ٢٢، من ص: ٥ إلى ص: ٨. وأيضاً: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج: ٨، ص: ٢١٤، تأليف الفيروز آبادي ط دار الكتب الإسلامية إيران سنة ١٤٠٨ هـ، فقد نقل هذه الروايات عن عشرات المصادر، وليراجع أيضاً كتاب العباقيات وإحقاق الحق.

أقول: وفي صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٨٢ يروي عن عائشة قالت: خرج النبي غداً وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

(٢) على أن عكرمة كان من الخوارج، فلو التزم بنزول الآية بأهل البيت بما فيهم علي لكان عليه القول بعصمته، ولأنه نهار بذلك على نفسه أساس عقيدته التي سوغت له ولغيره من الخوارج الخروج

على علي ومحاربتة، وقد أشار إلى كونه من الخوارج في وفيات الأعيان، ج: ٨، ص: ٣٢٠. بل إن عكرمة قد اشتهر بالكذب على ابن عباس حتى ضرب المثل فيه، فعن ابن المسيب أنه قال لمولى له اسمه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة عن ابن عباس (راجع الأصول العامة للفقهاء المقارن، ص: ١٤٧)، ويقول عبد الله بن أبي الحرث: «دخلت على ابن عبد الله بن عباس، وعكرمة موثق على باب كنيف فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ فقال: إن هذا يكذب على أبي» (م.ن، نقله عن وفيات الأعيان، ج: ٨، ص: ٣٢٠).

وجود الرسول (ص) فيه مع أهل بيته، كما رواها غيرها عنه، ما يجعل للتفسير أساساً ثابتاً من مصدر الرسالة الأول.

وإذا لاحظنا المسألة من جانب كثرة الأحاديث ووثاققتها، فإننا نجد أن هذه الروايات تزيد على السبعين حديثاً من طرف المسلمين من أهل السنة والشيعة، وربما زاد المروي منها عن طريق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة، فقد روتها كتب أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائلته بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي (ص) وعبد الله بن جعفر وعليّ والحسن بن علي في قريب من أربعين حديثاً. وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا وأم سلمة وأبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً. وعلى ضوء ذلك، فإن الترجيح العلمي هو لهذه الروايات أمام تلك الرواية، بل أمام ذلك الرأي لعكرمة، لأنه ليس رواية كما قدّمنا .

السياق:

أما مسألة السياق الظاهر في اختصاصها بنساء النبي فيردّها: أن هذه الأحاديث الكثيرة لم تتحدث من قريب أو من بعيد عن نزول هذه الآية مع الآيات الأخرى الواردة في خطاب أزواج النبي، ولم يذكر ذلك أحد من القائلين بالاختصاص. اختصاص نزولها بنساء النبي، بل كانت الأحاديث دالة على نزول الآية وحدها، ما يجعلها منفصلة عن السياق بطبيعتها، ولكنها وضعت في ضمنه للمناسبة.

ويؤيد ذلك أن الاختصاص ووحدة السياق يفرضان أن يكون التعبير الخطابي بكلمة «عنكن» لا بكلمة «عنكم»، كما جاء في الآية، وقد يذهب البعض إلى قول ثالث، وهو شمول الآية لأزواج النبي بالإضافة إلى أهل البيت، ولكن الروايات الواردة عن أم سلمة تنفي ذلك، كما جاء عنها أنها عندما تساءلت عن شمولها لها قال لها النبي إنك على خير، ولكن المراد بها هم هؤلاء الأشخاص المميزون بأسمائهم، كما أن الروايات تؤكد على الاختصاص بأهل البيت (ع).

والظاهر أن كلمة أهل البيت تحولت إلى مصطلح خاص بهؤلاء الأشخاص وعلى لسان النبي (ص) ولسان المسلمين من بعده، حتى أصبحت تنصرف إليهم بشكل سريع من دون أي التباس، حتى أنها لا تشمل بقية أقربائه مع شمول الكلمة لهم بحسب العرف العام. وقد جاء في صحيح مسلم بإسناده عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله، ألا إني تارك فيكم ثقلين، أحدهما كتاب الله عز وجل هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة، فقلنا من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا وأيم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده»^(١).

٢ - ما معنى الرجس؟

الرجس في اللغة هو الشيء القذر الذي قد يتعلق بالجسد ونحوه من

(١) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧٤، كتاب فضائل الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ٤.

الأشياء المادية، كما قد يتعلق بالجانب المعنوي من الشخصية، فقد عبّر الله عن لحم الخنزير بأنه رجس، كما عبّر عن الشرك والكفر وأثر العمل السيئ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . .﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وفي ضوء ذلك، فإن الظاهر إرادة الملكات الأخلاقية السلبية التي تمثل قذارة الروح، كما يمكن أن تطل الكلمة على معنى آخر، وهو الأخطاء الفكرية في إدراك الأمور، ممّا يجعلها دالة على العصمة الذاتية التي هي لطف إلهي يثيره الله في داخل النفس فيمنعها من باطل الاعتقاد وسيئ العمل من خلال ما توحى به كلمة القذارة من المعنى الموجب للتنفر والبعد عن الشيء والاجتناب عنه.

٣ - هل الإرادة تشريعية أو تكوينية؟

الإرادة الإلهية على قسمين:

أ- إرادة تشريعية، وتعني أن الله يضع لعباده من التشريعات الإلزامية وغير الإلزامية ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فأرادته لليسر إرادة تشريعية، لأن الشريعة التي كلفنا بها هي سهلة سمحاء ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٧٨] وعدم إرادته للعسر أيضاً تعني أنه أراد أن يخفف عنكم من خلال ما رخصه لكم.

ب- إرادة تكوينية، وتعني أن الله سبحانه يريد شيئاً وتتعلق إرادته تعالى بفعله، لا أن تتعلق إرادته بفعل الغير كما في الإرادة التشريعية. ومن الطبيعي إن إرادته إذا تعلقت بفعل شيء فلا تنفك عن المراد ولا يتخلف المراد عن الإرادة، لأن ﴿أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢].

فما هو المراد من الإرادة في قوله: ﴿إنما يريد الله...﴾؟

لا يمكن أن يكون مقصوده تعالى بها الإرادة التشريعية، بحيث يكون المعنى أن الله خطط فيما شرع لكم من التشريعات أن يذهب الرجس عنكم ويظهركم بسلوككم وامثالكم لهذه الشريعة، ووجه البعد في ذلك: أن الله أراد من الناحية التشريعية أن يذهب الرجس عن كل إنسان وأن يظهر الناس جميعاً بما شرع لهم، لا خصوص أهل البيت (ع)، فالله سبحانه جعل شريعته وسيلة لتطهير الناس جميعاً وإذهاب الرجس عنهم، هذا مع أن الآية الشريفة مختصة بأهل البيت (ع) على رأينا، أو شاملة لزوجات النبي (ص) على رأي آخر، ما يوحى بأن هناك خصوصية في المقام تختلف عن الوضع العام الذي يتعلق بالناس بشكل عام، لاسيما في ما يتعلق بمقام النبي (ص) الذي تشمله الآية.

وفي ضوء ذلك، تكون الإرادة الإلهية في الآية هي الإرادة التكوينية التي تتدخل في تكوين الخصائص الذاتية في داخل الذات، مما يحقق للشخصية ملكات روحية ثابتة متحركة في اتجاه إيجاد الجو الفكري والروحي الذي يدفع إلى اختيار الحق في القول والفكر والعمل، لا الإرادة التشريعية التي تقتصر على توجيه التكليف.

٤ - دلالة الآية على عصمة أهل البيت (ع):

وهذه الآية تدل بوضوح على عصمة أهل البيت (ع)، لأن اللام في كلمة «الرجس» للجنس، ما يجعلها شاملة لكل ما يوجب الخلل في الشخصية مما يوجب النفور منها فيما تنحرف به وتخطئ فيه، فتكون دالة على تعلق إرادة الله بإزالة كل الجذور العميقة التي تقود إلى الانحراف أو تدفع إلى الخطأ. وبعبارة أوضح: إن الله أودع في أهل البيت (ع) من عناصر العلم والمعرفة وخصائص القدس والطهارة ما يذهب به الرجس عنهم ويحقق الطهارة فيهم، وسيأتي مزيد حديث حول هذا المعنى وحول عدم منافاة الآية مع اختيارية الإرادة عندهم عند الحديث عن عصمة الزهراء (ع).

الزهراء (ع) في كلمات الرسول (ص)

وأما رسول الله (ص)، فقد تحدث عن الزهراء (ع) وفضلها كثيراً، ونعتها بما لم ينعت به واحدة من النساء، حتى أنه وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

ما تمنى غيرها نسلًا ومن يلد الزهراء يزهد في سواها

ورسول الله عندما يقيم فهو لا يقيم على أساس عاطفة أو هوى، حاشاه ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] وإنما يتكلم بلسان الوحي والتنزيل ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤].

وفي ما يلي نستعرض بعض أحاديثه حول ابنته فاطمة:

١ - سيدة نساء العالمين:

من العناوين الكبيرة والمهمة التي امتازت بها الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع)، ما جاء في الحديث المشهور عن النبي الكريم (ص) بشأنها أنها: «سيدة نساء أهل الجنة»^(١)، وفي حديث آخر «إنها سيدة نساء

(١) صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، ج: ٥، ص: ٤. وأمالى الصدوق، ص: ١٨٧. وبحار الأنوار، ج: ٢١، باب: ٢٧، ص: ١٤٢. رواية: ٥. ومسند الإمام أحمد، ج: ٣، ص: ٤٩٨، وج: ٦، ص: ٥٤٢.

العالمين»^(١)، وفي رواية ثالثة: «إنها سيدة نساء المؤمنين»^(٢)، وفي نص رابع: «سيدة نساء هذه الأمة»^(٣). وهذه الأحاديث رواها السنة والشيعية.

فقد ورد في (صحيح البخاري) عن عائشة قالت: «أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله (ص)، فقال رسول الله (ص): مرحباً بابنتي، فأجلسها عن يمينه وأسرَّ إليها حديثاً فبكيت، فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن.

فسألتها عن ذلك: فقالت: ما كنت أفشي سر رسول الله (ص). حتى قبض النبي (ص)، فسألتها عما قال، فقالت: أسرَّ إليَّ أن جبرئيل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي، وأنت أول أهل بيتي لحاقاً بي، فبكيت، فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين، فضحكت لذلك»^(٤).

وفي رواية أخرى وردت في (حلية الأولياء) لأبي نعيم أن النبي (ص) قال لها: «يا بنية، أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين. قالت: يا أبت فأين مريم ابنة عمران؟ قال: تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة»^(٥).

(١) مسند أبي داود، ص: ١٩٦، حديث: ١٣٧٣. ومستدرک الحاكم، ج: ٣، ص: ١٥٦، وعنهما وغيرهما عوالم الزهاء، ص: ٨٨. وروت عائشة عن النبي (ص) أنه قال: يا فاطمة، أبشري فإن الله تعالى اصطفاك على نساء العالمين وعلى نساء الإسلام، وهو خير دين.

(٢) و (٣) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٩٠٥. وليراجع حول هذه الأحاديث كتاب فضائل الخمسة، ج: ٣، من ص: ١٢٧ إلى ص: ١٤٦، فقد نقلها عن عشرات المصادر.

(٤) صحيح البخاري، باب علامات النبوة، ج: ٤، ص: ٢٤٧. ورواه مسلم في صحيحه، ج: ٤، ص: ١٩٠٥. وكشف الغمة، ج: ١، ص: ٤٥٣.

(٥) حلية الأولياء، ج: ٢، ص: ٤٢، عنه في عوالم الزهاء، ص: ٩٨.

وهذه الرواية وإن ضيّقت ما وسعته الروايات الأخرى، لكن لا تنافي بينها، فهي سيدة نساء عالمها وسيدة نساء المؤمنين والعالمين ونساء أهل الجنة.

التقييم الدقيق للسيادة:

وهنا لا بد أن نتوقف لنتساءل: هل السيادة مجرد لقب تكريم أعطاها إياه رسول الله (ص)؟

حاشاه، فرسول الله (ص) لا يطلق الألقاب جزافاً، لأنه ينطلق عندما يزن الناس، وإن كانوا أقرباءه، من موقع التقييم الدقيق للكفاءة الواقعية في ما يمدح به هذا أو ذاك، ولولم ينطلق من الموقع العميق الموجود في الشخصية التي يجعلها في مستوى الكلمة التي يطلقها عليها، لكانت الكلمة صادرة منه عن هوى، والله تعالى يقول في حقه: ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤-٣].

وعليه، فأن تكون فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، معناه أنها استجمعت في عقلها وقلبها وفضائلها كل عقل وقلب وفضائل نساء أهل الجنة، بل وتفوّقت عليهنّ في ذلك.

وأن تكون فاطمة سيدة نساء العالمين والمؤمنين، فهذا يعني أن كل فضائل الإيمان وخصاله وكل مزايا المؤمنات قد تجمعت وتجسدت فيها، وإلا فكيف تكون سيدة لقوم وهي لا تفضلهم بشيء ولا تملك الميزة التي بها تكون السيادة؟!

ولهذا فإن رسول الله (ص) ، الذي ينطق إسلاماً ويتحرك ويجسد الإسلام، وينبض قلبه بالإسلام، وليس لديه حتى العواطف الذاتية التي تفقد في عمقها معنى الإسلام، لأنه كان النور كله، والإسلام كله، والقرآن الناطق، عندما يعطي فاطمة هذه الأوصاف، فلا بد أن يكون أطلع على ما تحمله (ع) من علم يتفوق على علم نساء العالمين كلهم، وما تحمله من طهارة تتفوق بها على نساء العالمين، ومن روحانية وقيم إنسانية تتفوق بها على سائر النساء.

٢ - فاطمة بضعة مني:

وفي كلمة أخرى له (ص) تعبر عن المنزلة الرفيعة لسيدة النساء يقول فيها :- كما في صحيح البخاري :- «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني»^(١)، وفي صحيح مسلم: «إنما ابنتي فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها»^(٢)، وفي رواية أخرى لمسلم: «إنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»^(٣)، وفي نص رابع أورده في البحار: «فاطمة شجنة مني، يؤذيني ما آذاها ويسرني ما سرها»^(٤).

(١) صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، ج: ١٥، ص: ٥.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٩٠٣.

(٣) م.ن، ص: ١٩٠٢. ومسند الإمام أحمد، ج: ٥، ص: ٤٣٠. وراجع هذه الروايات في أعيان

الشيعة، ج: ١، ص: ٣٠٧، ومناقب أهل البيت للشيرازي، ص: ٢٣٠.

(٤) بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٣، ص: ٢٦. وفي مسند الإمام أحمد، ج: ٥، ص: ٤٣٥،

فاطمة شجنة مني يبسطني ما بسطها ويقبضني ما قبضها.

وهذه الرواية - على اختلاف تعبيراتها - الصادرة عن الصادق الأمين، الذي - وكما أسلفنا - يتحدث وحيّاً وإسلاماً لا عاطفةً، لأن عاطفته كبشر، مجالها أن يحتضن ابنته كما يحضن أي بشر ابنه وابنته، ولكن عندما يعطي القيمة فهو يعطيها من خلال الوحي والرسالة، ولا يمكن أن يقول على الله أبداً: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. هذه الرواية تعبّر عن التمازج الروحي والاندماج العميق بينها وبينه، لأن قوله (ص): «بضعة مني» لا يريد به الإشارة إلى الجانب المادي فإنه لا يخفى على أحد، وإنما يريد به الإشارة إلى ما هو أعمق من ذلك، فإن معنى أن يكون إنساناً ما قطعة من رسول الله (ص)، أنه يرتبط برسول الله ارتباطاً رسالياً عضوياً، كما لو كان جزءاً حياً من جسده.

ومعنى ذلك أن عقله يختزن بعضاً من عقل رسول الله (ص)، وروحه تختزن بعضاً من روح رسول الله (ص)، وأن حياته تختزن الطهر والنقاء والروحانية والصدق والأمانة كما اختزنها رسول الله (ص).

ثم عندما يضيف (ص): «من أغضبها فقد أغضبني ومن آذاها فقد آذاني»، فإن أصحاب الرسالات لا يفعلون عاطفياً عندما يؤذي الناس أولادهم، بل أي أب صالح لو أغضب الناس ابنه بالحق لأنه أساء إليهم، فإنه لا يغضب ولا يفعل لذلك. إذاً فما معنى «من أغضبها فقد أغضبني...»؟

إن معناه أن فاطمة هي المرأة التي لا يمكن أن تسيء إلى أحد في قول أو فعل حتى يكون للناس حق في إيذاؤها وإغضاها، بل فاطمة لو غضبت فلا يملك أحد أن يغضبها، لأنها الإنسانة التي لا تغضب إلا لله، والإنسانة التي لا

تسيء إلى أحد ولا تذنّب أو تنحرف، فمن أغضبها فإنه يغضب الحق ويغضب الخطّ المستقيم، وهي الإنسنة التي لا تتأذى إلا عندما يُعصى الله أو ينحرف الناس عن طريق الله، ولذلك يتأذى رسول الله بأذاها، وإلا كيف يمكن أن يتأذى رسول الله (ص) لأذاها إن لم يكن أذاها مبرراً ومنسجماً مع الحق والرسالة؟!

وهكذا قوله (ص) كما جاء في بعض الروايات: «يرضيني ما يرضيها»، فإن معناه أنها لا ترضى إلا ما يرضاه الله ورسوله، ولو لم يكن النبي (ص) مطلعاً على عمق الزهراء (ع) وعلى كونها صورة عن روحه وفكره وخطه ورسالته، وعلى أن الرسالة قد انطبعت في شخصيتها وذابت شخصيتها في الرسالة، بحيث إنه لا يوجد فاصل بينها وبين الرسول وبينها وبين الرسالة، لما صحّ أن يربط رضاه برضاها وغضبه بغضبها. وهذا يدل بوضوح على أن الزهراء (ع) معصومة مطهرة وبلغت الغاية في الكمال.

٣ - يرضى الله لرضاها:

وفي حديث آخر روي عن رسول الله (ص) قال: «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»^(١).

وهذا النص الشريف أقوى من سابقه في الدلالة على عظمة هذه الإنسنة ومقامها الرفيع عند الله سبحانه، بحيث إنه تعالى ربط رضاه

(١) ما روته العامة من مناقب أهل البيت، ص: ٢٣، نقله عن روضة الأحباب، ص: ٦٦٥. وراجع: بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٨، ص: ٢٢٠، رواية: ٢.

برضاها وغضبه بغضبها، فما معنى ذلك؟ ما معنى أن يغضب الله لغضب إنسان ويرضى لرضاه؟ معنى ذلك أن هذا الإنسان قد عاش مواقع رضا الله كلها وابتعد عن مواقع سخطه، وهذا ما عبّر عنه الإمام الحسين (ع) بقوله: «رضا الله رضانا أهل البيت»^(١).

استغراب مدفوع:

ويبدو أن هذا الحديث أثار لغطاً وجدلاً في بعض الأوساط، ما اضطر أهل البيت أن يوجهوه، فقد نقل في مسند فاطمة: عن الصدوق في الأمالي قال: «حدثنا أبو ذر يحيى بن زيد بن العباس بن الوليد البزار بالكوفة قال: حدثني عمي علي بن العباس قال: حدثنا علي بن المنذر قال: حدثنا عبد الله بن سالم عن حسين بن زيد عن علي بن عمر بن علي بن أبي طالب عن رسول الله (ص) أنه قال: يا فاطمة إن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك. قال: فجاء صندل فقال لجعفر بن محمد عليهما السلام: يا أبا عبد الله، إن هؤلاء الشبان يجيئون عنك بأحاديث منكرة، فقال له جعفر (ع): وما ذاك يا صندل؟ قال: جاءنا عنك أنك حدثتهم أن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها، قال: فقال جعفر: أستم رويتم في ما تروون أن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب المؤمن ويرضى لرضاه؟ قال بلى، قال فما تنكرون [أن تكون] فاطمة مؤمنة يغضب الله لغضبها ويرضى لرضاها، قال فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته»^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٤، ص: ٣٦٧.

(٢) مسند فاطمة، ص: ٣٥٤، بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢٢٠.

٤ - أم أبيها:

ومن كلماته الخالدة والقيّمة في حق فاطمة (ع) قوله الشهير: «فاطمة أم أبيها»^(١).

ولكن حتى نفهم المعنى الدقيق لهذه الكلمة، لا بد أن ندرس حياة رسول الله (ص) وما لاقاه من عنت ومشقة منذ بداية حياته؛ فلقد عانى الكثير، عانى من اضطهاد المشركين له حتى قال: «ما أؤذي نبي بمثل ما أؤذيت»^(٢)، وحزن لفقد زوجته أم المؤمنين خديجة (ع) والتي كانت ملجأً وكهفاً له يأوي إليه بعد الجهد والتعب الذي يلاقيه من قومه، وتأثر لافتقاده عمه أبي طالب الذي كان يرعاه ويدافع عنه ويقف إلى جانبه، وعانى قبل ذلك اليتيم الذي عاش في زوايا إحساسه الإنساني، لأنه عاش يتم الأب وهو جنين، ويتم الأم وهو رضيع، فافتقد رعاية الأب، وحُرم حنان الأمومة.

ونحن نعرف أن حنان الأم يروي قلب الطفل كما يروي الماء الأرض اليابسة، ويغذي روحه بطريقة لا شعورية لا يحس بقيمتها إلا بعد حين، كما أن حنان الأم يجعله في شعور دائم بطفولته ما دام مع أمّه حتى لو صار في سن الخمسين، فإذا ما فارقت أمه الحياة شعر فجأة بالشيخوخة تزحف إلى

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ١٩، وقد عدّت هذه الكنية «أم أبيها» في عداد كناها التي عرفت بها. راجع: عوالم الزهاء، ص: ٦٩. التتمة في تواريخ الأئمة، السيد تاج الدين بن علي الحسيني العاملي (ق ١١)، ص: ٤٠، مؤسسة البعثة، قم - إيران، ١٤١٢ هـ.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٣٩، باب: ٧٣، ص: ٥٦ رواية: ١٥.

حياته، ولهذا فالإنسان منا يصعد ويتقدم به العمر ليصبح كهلاً وشيخاً، ومع ذلك يبقى يحس بمشاعر الطفولة تجاه أمه، لأن أمه تحتضنه وتحاكيه وتناغيه، ولأن الأم - كما يقال - لا تعرف السن التي تتقدم في ولدها، بل تظل تفكر فيه رضيعاً تحتضنه وطفلاً تلاعبه، والنبي (ص) لم يشذ عن هذه القاعدة الإنسانية العامة، وهي الحاجة إلى عطف الأم وحنانها ورعايتها واحتضانها، وهذا لا يشكل نقصاً أو عيباً في النبي (ص)، ولا يعني أنه يشكو من عقدة نقص، لأن النبي (ص) وإن كان في قمة الكمال، لكنه بشرٌ يتمتع بكل خصائص البشر ويشعر بكل حاجاتهم، يجوع كما يجوعون، ويعطش كما يعطشون، ويتألم كما يتألمون، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون^(١)، ولهذا فهو بحاجة إلى الحنان كما هو بحاجة إلى الطعام والشراب. وكما أن حاجته إلى الطعام والشراب لا تمثل نقصاً أو عقدة نفسية، فكذا حاجته إلى الحنان والعطف، وكما الجوع لا يمثل عيباً عند أي إنسان فكذا النبي، وليس هناك فرق بين الجوع إلى الطعام والحاجة إلى الحنان، وقد جاع النبي (ص) حتى ربط حجر المجاعة على بطنه. وقد حدثنا

(١) روى في «عيون أخبار الرضا، ج: ١، ص: ٢١٣، وعنه البحار، ج: ٢٥، ص: ١٧٧»، الحديث التالي قال: «وفي حديث آخر أن الإمام مؤيد بروح القدس... والإمام يولد ويلد ويصح ويمرض ويأكل ويشرب ويبول ويتغوط وينكح وينام وينسى ويسهو (وفي نسخة وهي الأصح ولا ينسى ولا يسهو) ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويحيى ويموت ويقبر ويزار ويحشر ويوقف ويعرض ويسأل ويثاب ويكرم ويشفع، ودلالته في خصلتين؛ في العلم واستجابة الدعوة، وكل ما أخبر به من الحوادث التي تحدث قبل كونها، فذلك بعهد معهود إليه من رسول الله توارثه عن آبائه (ع) ويكون ذلك مما عهد به جبرئيل عن عالم الغيوب...».

الله سبحانه عن حزن النبي (ص) وضيقه وهو يخفف عنه ذلك: ﴿ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال سبحانه: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ [المائدة: ٤١]. وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [فاطر: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن بشرية النبي (ص) وحاجاته الإنسانية..

وإذا كان رسول الله (ص) بشراً في إحساسه ومشاعره، وكان بحاجة إلى الحنان الغامر والفيّاض واللمسة الحلوة والاحتضان الرقيق - كما يحتاج لذلك كل إنسان - لا سيما وهو يعيش تلك المرحلة الصعبة من عمر الرسالة التي كان يُسبَّبُ فيها ويشتم ويتهم ويرمى بالحجارة والأوساخ ويتعرض لأقسى أساليب التكذيب والمحاربة، فلماذا كان يشعر بالحاجة إلى الراحة والاطمئنان والسكينة والحنان والرعاية والاحتضان. وأي وقت يحس فيه صاحب الرسالة العظيمة بالحاجة إلى ذلك أكثر من هذا الوقت الذي يجد فيه كل شياطين الأرض والذين لا يعيشون قيمة الإنسان يتكالبون عليه ويهاجمونه بالكلمة والممارسة.

فمن يمدّ الرسول بالعطف والحنان ويخفف عنه الأعباء والآلام والمعاناة؟

لم يكن هناك سوى فاطمة (ع)، فهي التي ملأت بيته بعبق الأمومة وروحها وظهرها وعاطفتها، فكانت أمه بالروح وإن كانت ابنته بالجسد، أمه بعاطفتها وروحانيتها التي غمرته بها، كانت تحتضنه قبل أن يضمّها إليه، وتبتسم له عندما تلمح الكآبة في وجهه، كانت تهدد روحه، وتملأ عليه

بيته، ولئن كانت السيرة لا تحدثنا عن تفاصيل ذلك، إلا أننا نستطيع أن نلتقطها ونستوحيها من خلال كلمة الرسول الخالدة، «فاطمة أم أبيها»، هذه الكلمة التي قالها بعد أن هزّته عاطفتها، فأطلق كلمته هذه مخلّداً حركة الأمومة في ابنته، لأن كلمة «أم أبيها» تختزن كل إحساس النبي بحنان ابنته وقلبها الكبير الذي كان يحنو على رسول الله (ص).

ولنتصوّر كم كانت عاطفة فاطمة وكم كان قلبها كبيراً حتى استطاعت أن تملأ روح هذا الإنسان العظيم وتشعره بالاطمئنان وتحوطه بالرعاية، لقد كانت أمومتها له (ص) واحتضانها له شيئاً فوق العادة. كانت بذلك تحمل مسؤولية كبرى، لأن الأمومة - بشكل عام - مسؤولية كبرى تملأ فكر الأم وتشغل مشاعرها وأحاسيسها وتتعب جسدها وفكرها، باعتبار أن المرأة عندما تكون أمّاً فإن الولد سيكون محور حياتها، ولهذا نجد أن بعض الأزواج يغارون من أطفالهم عندما يرون أن زوجاتهم قد شغلن بالأطفال. هذه هي طبيعة الأمومة بشكل عام، فكيف إذا كانت الأمومة لشخصية مثل رسول الله (ص)، فلا بد أن يبذل من يقوم بهذا الدور من الجهد والطاقة الشعورية ومن الروح العميقة الممتدة ومن الأفق الواسع ومن خفقات القلب ونبضات الشعور، الشيء الكثير الكثير ليقوم بهذا الدور.

ولذلك فإننا نعتبر أنّ هذه الكلمة توحى بعظمة الزهراء (ع)، وحتى وإن لم يمدنا التاريخ بكثير من تفاصيل العلاقة بين فاطمة وأبيها ومن حياتها، فإن هذه الكلمة وحدها كافية للتدليل على منزلتها ومقامها عند رسول الله (ص) الذي ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٣-٤].

فهو لا يتكلم عن هوى أو عاطفة غير مسؤولة، وإنما يتكلم بالحق والحقيقة والكلام الجاد.

إن هذه الكلمة تختصر كل حياة الزهراء (ع) ودورها في تخفيف الآلام التي عاشها رسول الله (ص) والأعباء والأثقال التي واجهها من المشركين والمنافقين.

منزلتها عند المسلمين

ليس خفياً أن فاطمة (ع) كانت الشخصية النسائية المقدسة لدى المسلمين جميعاً. فإننا لو قرأنا ما كتبه علماء المسلمين من السنة والشيعية وما ألفوه من كتب ورسائل مستقلة وغير مستقلة بشأنها، لوجدنا أنهم يتحدثون عنها بكل تعظيم ومحبة واحترام وإجلال، وما ذلك إلا لما تزخر به شخصيتها من قيم أخلاقية راقية، ولما تحمله من طهارة روحية ومنزلة علمية، ما يجعلها مثلاً أعلى يحتذى به المسلمون، ولما عرفوه من القرآن الكريم وأقوال النبي الأمين التي بينت مقامها ومنزلتها وأكدت لزوم احترامها وتقديرها وتعظيمها والابتعاد عن كل ما يوجب إيذاؤها وسخطها.

ولهذا وجدنا المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتعدد مللهم يلتقون على تقديسها، لا لأنها ابنة رسول الله (ص)، بل لأنها حملت شخصية رسول الله (ص) وتخلّقت بأخلاقه.

فهذه عائشة زوج النبي تتحدث عنها أنها كانت الأصدق بعد أبيها - كما سيأتي - وعن أنس بن مالك أنه لم يكن أحد أشبه برسول الله (ص) من الحسن بن علي وفاطمة^(١).

(١) مسند أحمد، ج: ٣، ص: ٦٤٢، وعنه عوالم الزهراء، ص: ٤٩.

وهذا ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وسلمان الفارسي .. وغيرهم من صحابة النبي، رَوَوْا في فضائلها ومناقبها وخصالها الكثير من الروايات وأثنوا عليها غاية الثناء.

وهكذا حال التابعين وتابعيهم من أصحاب الصحاح والمسانيد، كالبخاري ومسلم والحاكم النيسابوري والبغوي، وابن عبد البر وابن حجر صاحب الصواعق المحرقة وغيرهم من الأعلام^(١)، فقد عقدوا في كتبهم فصولاً وبوّبوا أبواباً لنقل ما ورد في شأنها وما فضلها الله به على من سواها.

ولأجل هذه المحبة والقدسية التي يحملها المجتمع المسلم للزهراء(ع)، رأينا أنه عندما هجم على دارها من هجم بقصد الإساءة وهدّدوا بإحراق البيت، كان الاستنكار الوحيد أن في البيت فاطمة .. لم يقولوا إن في البيت علياً ولا الحسنين ولا زينب، بل إن فيه فاطمة، ما يدل على أنها كانت تعيش في عمق وجدان المسلمين وتستحوذ على محبتهم، حتى أن كثيراً ممن هجم على دارها مع المهاجمين كان قلبه ينبض بمحبتها، ولهذا انصرف باكياً عندما سمع صوتها^(٢). وهكذا وجدنا المسلمين تفاعلوا مع خطبتها التي خطبتها بعد

(١) قادتنا كيف نعرفهم، ج: ٤، ص: ٢٤٦. ما روته العامة من مناقب أهل البيت، ص: ٢٢٩. أعيان الشيعة، ج: ١، ص: ٣٠٧. عوالم الزهراء، ص: ٤٨، وما بعدها. وفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج: ٣، ص: ١٢٢، وما بعدها.

(٢) روى الطبري الإمامي المتوفى أوائل القرن الرابع الهجري في كتابه القيم «المسترشد» ص: ٣٧٦، بسنده عن علي بن الحسين(ع) قال: لما قبض النبي(ص) وبويع أبو بكر، تخلف علي(ع)، فقال عمر لأبي بكر ألا ترسل إلى هذا الرجل المتخلف فيجيء فيبايع؟ قال أبو بكر: يا قنفذ اذهب إلى علي وقل

وفاة الرسول (ص) وغصب الخلافة ومصادرة فذك، وتأثروا كثيراً لكلامها، حتى أنه «لم ير الناس أكثر باكٍ ولا باكية منهم يؤمئذ»^(١).

له : يقول لك خليفة رسول الله تعالى بايع! ارفع عليّ صوته وقال سبحانه الله ما أسرع ما كذبتُم علي رسول الله (ص)، قال فرجع فأخبره ثم قال عمر: ألا تبعث إلى هذا الرجل المتخلف فيجيء يبايع؟ فقال لقفذ اذهب إلى علي فقل له يقول لك أمير المؤمنين تعالى بايع، فذهب فقفذ فضرب الباب فقال علي من هذا؟ قال أنا قنفذ، فقال ما جاء بك؟ قال يقول لك أمير المؤمنين تعالى فبايع، فرفع علي (ع) صوته وقال: سبحانه الله، لقد ادّعى ما ليس له، فجاء فأخبره، فقام عمر فقال انطلقوا إلى هذا الرجل حتى نجيء إليه، فمضى إليه جماعة فضربوا الباب، فلمّا سمع علي أصواتهم لم يتكلم وتكلمت امرأته فقالت: من هؤلاء؟ فقالوا قولي لعلي يخرج ويبايع، فرفعت فاطمة صوتها فقالت: يا رسول الله ما لقينا من أبي بكر وعمر بعدك؟! فلما سمعوا صوتها بكى كثير ممن كان معه ثم انصرفوا، وثبت عمر في ناس معه، فأخرجوه وانطلقوا به إلى أبي بكر حتى أجلسوه بين يديه، فقال أبو بكر بايع، قال: فإن لم أفعل؟ قال إن شاء الله الذي لا إله إلا هو تضرب عنقك! قال علي (ع): فأنا عبد الله وأخو رسوله، قال أبو بكر بايع، قال فإن لم أفعل؟ قال: إن شاء الله الذي لا إله إلا هو تضرب عنقك، فالتفت علي (ع) إلى القبر وقال: «يا بن أمّ! إن القوم استضعفوني وكادوا أن يقتلونني»، ثم بايع وقام. وراجع الإمامة والسياسة، ص: ١٣.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، ج: ١٦، ص: ١٢٢.

العصمة

عندما نقَدِّس الصديقة الزهراء (ع)، فإننا لا نقَدِّس انتسابها للرسول (ص) فحسب، وإنما نقَدِّس فيها صفاتها المثلى وخصالها الحميدة التي تجعلها قدوة نقتدي بها ونبراساً نستضيء بنوره، ومثالاً أعلى نسير على هديه ونستلهم منه الدروس والعبر، فقد انطلقت الزهراء البتول بعلمها وعبادتها وإخلاصها لله ورعايتها لرسول الله ولأمير المؤمنين حتى ارتفعت إلى مقام العصمة وسمت إلى مرتبة القداسة، لا تدنسها الآثام ولا تقترب منها الذنوب، وتركت لنا المثل الأعلى عن المرأة التي عاشت حياتها من أجل الله وأغمضت عينيها مفارقة الحياة وهي تلهج بذكر الله.

إننا نعتقد أن الزهراء (ع) معصومة عن الخطأ والزلل والسهو والنسيان، فلم ترتكب في حياتها معصية مهما كانت صغيرة.

ويمكن أن نستدل على عصمتها بثلاثة أدلة تضاف إلى ما تقدم من قول النبي (ص): «فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني».

الأول: إننا لو درسنا حياتها منذ ولادتها إلى حين وفاتها، حياتها مع أبيها ومع زوجها ومع أولادها ومع الناس جميعاً، لما وجدنا لها خطأ في فكر

أو زلّة في قول أو اشتباهاً في فعل، فقد كانت حياتها(ع) تجسد العصمة أتمّ تجسيد.

الثاني: إنها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فتشملها آية التطهير ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] في ما تشمل من أهل البيت، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين(ع)، والذين كانت الآية دليلاً على عصمتهم. فأية التطهير هذه شهادة حق لا ينال منها الباطل على عصمة الزهراء(ع).

وعندما نستدل بأية التطهير على عصمتها، فهذا لا يعني أبداً أنها وقبل نزول الآية لم تكن معصومة، بل كانت(ع) معصومة حتى قبل نزولها عصمةً كاملة يشهد لها بها سلوكها، وآية التطهير إنما جاءت لتكشف عن عصمتها لا أنها تمنحها العصمة.

الثالث: إن فاطمة الزهراء(ع) هي سيدة نساء العالمين كما جاء في الحديث المشهور عند الفريقين^(١)، ولا يمكن أن تكون امرأة في مستوى سيدة نساء العالمين إلا وتكون الإنسانية التي تعيش الحق كله في عقلها وقلبها وحركتها، ولا يمكن أن يزحف الباطل إلى شيء منها في ذلك كله.

حقيقة العصمة:

إنّ رأينا في عصمة أهل البيت(ع) بما فيهم الزهراء(ع)، هو أنّ الله

(١) تقدمت مصادره، ص: ١٤٧.

سبحانه أودع فيهم من عناصر العلم والروح وخصائص القدس ما يذهب به الرجس عنهم ويحقق الطهارة فيهم، لقد أعطاهم نوراً يتحركون فيه من خلال وعيهم لكل خطوط النور وآفاقه، وأعطاهم العلم والروحانية التي تلتقي بوعي الله ومعرفته، ووعي الإسلام في عمقه وامتداده، بحيث يتحركون بالطهر بوعي، ويتعدون عن الشر بوعي، لأن هذه العناصر التي أعطيت لهم هي التي تعمق الوعي والإرادة فيهم، ولكنها لا تحركهم تلقائياً وبغير اختيار. فلا يقولنَّ قائل إن معنى العصمة التكوينية الاستفادة من الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ...﴾ تعني أن الله سبحانه يسلبهم الاختيار فيكونون الطاهرين بغير اختيارهم والبعيدين عن الرجس بغير اختيارهم، بحيث يتحركون بالطهر تحركاً كلياً كما تتحرك الآلة من دون وعي، فإن هذا التوهّم فاسد، لأننا وإن قلنا إن الله هو الذي أودع فيهم عناصر القداسة والروحانية والعلم، لكن هذا لا يستلزم سلبهم الاختيار وأن يصيروا كالألة الجامدة أو العصا في يد صاحبها، لأن هذه العناصر الآنفة تعمق الوعي فيهم كما أسلفنا، لا أنها تسلبهم الاختيار^(١).

إذاً، كانت عصمة الزهراء(ع) عصمة إرادية انطلقت من وعيها ومن لطف الله الذي كرم وجهها عن السجود للأصنام وفعل المعاصي، كما كرم وجه زوجها علي(ع) عن السجود للأصنام قبل البعثة وبعدها، وهذا بخلاف كثير من رجال المسلمين ونسائهم ممن سجدوا قبل الإسلام للصنم، أما

(١) بإمكان القارئ المهتم بمعرفة رأي سماحة السيد حفظه المولى، الرجوع إلى كتاب فقه الحياة، ص: ٢٦٧، فيتضح له رأي سماحته جلياً، وأن ما أثير حوله من لغط ربما يكون ناشئاً من عدم المراجعة للكلمات والاعتراض بمصطلح العصمة التكوينية الذي جاء في بعض كلماته حفظه المولى.

الزهراء(ع) فكان سجودها لله منذ أن عرفت السجود ، وكان ركوعها لله منذ أن عرفت الركوع ، وكان قيامها تسليماً لله مذ عرفت القيام .

لماذا هم دون سواهم؟

وقد يقول قائل : لماذا أعطى الله أهل البيت(ع) العصمة ولم يعطها لغيرهم؟ ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بجوابين :

الأول : هو قوله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] .

الثاني : إن الله سبحانه وتعالى سخر الكون للإنسان وعمل على أن يصلح أمره في الدنيا والآخرة ، وأعطى الكون شمساً لا ظلمة فيها ، وأنزل للإنسان قرآناً منيراً ، وقضت حكمته أن يخلق نماذج بشرية تكون نوراً متكاملأً في عقلها وقلبها وكل حركاتها ، لتكون شمساً للإنسانية بإزاء القرآن ، كما أن للكون شمساً ترفده بالضياء ، فاختار من خلقه نماذج ليكونوا الشمس التي تبعث بالنور والهداية للإنسان كله ﴿وَبِكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ما كان لهم الخيرة [القصص: ٦٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ، اختار هؤلاء وجعلهم أنبياء وحملهم رسالاته ، لأن مصلحة الإنسانية الغارقة في الظلمات أن يكون هناك إنسان يعمل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذه وظيفة الأنبياء ، فهم الكتاب الناطق ويحملون معهم الكتاب الصامت ، ليتكامل الكتابان - الصامت والناطق - ويسيران معاً في رحلة الهداية والتزكية ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ - وَلَا يَكْفِي بَتْلَاوَتَهَا - وَيُزَكِّيهِمْ - بَأَن يُعْطِيَهُم التَّزْكِيَةَ فِي

قلوبهم وعقولهم وحياتهم - ويعلمهم الكتاب - بما في الكتاب من أسرار ومفاهيم - والحكمة - في حركة الواقع - ﴿[الجمعة: ٢]﴾، فدور النبي هو دور الإبلاغ والتعليم والتربية والتزكية، حتى يعطي الناس نوراً من عقله الذي هو عقل الكتاب، ونوراً من قلبه الذي هو قلب الكتاب، ونوراً من خلقه الذي هو خلق القرآن، كما قالت زوجته عائشة «كان خلقه القرآن»^(١)، ونوراً من حياته التي هي حركة الكتاب في الواقع. وهذا بعينه ينطبق على الأئمة (ع)، فإنهم في معنى الإمامة امتداد للنبوّة: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدي»^(٢)، فالإمامة نبوة في المضمون لا العنوان، ودور الإمام كدور النبي، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور وحراسة الإسلام وحياطته من كل تحريف أو تشويه أو ظلمة تزحف إليه، لهذا كان لا بد أن يعطى الإمام من اللطف الإلهي ما يعطاه النبي.

سر عصمتها:

وهنا سؤال آخر يفرض نفسه وهو: ما السر في عصمة الزهراء (ع)، مع أنها لم تكن في موقع النبوّة أو الإمامة الذي يحتم - بمقتضى ما تقدم - أن يكون صاحبه معصوماً، لأن مهمته وهي تغيير العالم على صورة الحق، تفرض أن لا يكون فيه شيء من الباطل، ولكن الصديقة فاطمة (ع) لم تكن إماماً ولا نبياً - وإن كانت بنت النبوّة وسر الإمامة، لأنها والدّة الأئمة

(١) مسند الإمام أحمد، ج: ٧، ص: ١٣٢.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧١. بحار الأنوار، ج: ٢١، باب: ٣٧، ص: ١٤٢، رواية: ٥.

المعصومين وزوجة الإمام أمير المؤمنين (ع) - فما السر في عصمتها؟

أولاً: إن الله عندما لطف بالزهراء (ع) فأعطاه العصمة وأذهب عنها الرجس وطهرها تطهيراً، أراد أن يوحى للناس رجالاً ونساءً أن المرأة يمكن أن ترتفع وتسمو في تكريم الله لها فتصل إلى أعلى المراتب وهي مرتبة العصمة.

ثانياً: إن الله يريد أن يجعل للمرأة دوراً في الحياة يقارب دور النبوة والإمامة التي كانت من نصيب الرجال، فإن هذا ما نستوحيه من وصول المرأة - كالزهراء - إلى مرتبة العصمة المختصة بالأنبياء.

ثالثاً: أراد الله أن يجعل المرأة، ممثلة بالزهراء (ع)، مثلاً أعلى للناس جميعاً لتكون قدوة للنساء والرجال، والنموذج الأمثل الذي يحمل عقلاً نورانياً وقلباً نورانياً وعلماً ينفتح على الناس آخذاً بدور النبوة والإمامة في هذه المجالات.

لقد كانت الزهراء (ع) معصومة لأن لها دوراً في طبيعة موقعها وفي امتداد تأثيرها في الحياة، ليقال من خلال ذلك للمرأة بأن الله كرمك وفتح أمامك الآفاق لترتقي وتصلي إلى أعلى المراتب إذا ما تحركت على خطى هذا النموذج واقتديت به، وليقال من خلالها للرجال إنَّ عليكم أن تقتدوا بالمرأة المعصومة كما تقتدون بالرجل المعصوم، لأن الوصول إلى مقام العصمة لا فرق فيه بين الرجل والمرأة.

هكذا كرم الإسلام الزهراء (ع) ومن خلالها المرأة، كما كرم الرجل، كرمهما معاً من خلال تكريمه لإنسانيتهما وعناصر الخير التي يختزنانها

﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالتكريم الإلهي ليس مختصاً بالرجل، بل هو شامل لكل بني آدم على اختلاف ألوانهم وأعراقهم وأنواعهم، ذكوراً وإناثاً، بيضاً أو سوداً، عرباً أو عجماً..

رواية مخالفة للقرآن:

ولهذا فإننا نرفض كل الروايات التي تحط من شأن المرأة وإنسانيتها، كما نرفض الروايات التي تحط من شأن بعض الأقوام والأعراق، ونعتقد أن المعصوم لا يصدر عنه أمثال هذه الروايات المخالفة للقرآن الكريم.

فمن الروايات التي تحط من شأن المرأة ما نُسب إلى أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها»^(١)، فإننا نشك أن هذه الكلمة للإمام علي (ع)، وذلك:

١- إن الإمام علي (ع) وسائر الأئمة المعصومين ومن قبل جدهم رسول الله (ص)، قد علمونا أنهم لا يقولون ما يخالف كتاب الله، وأن كل ما ينسب إليهم مما يخالف كتاب الله فهو زخرف^(٢)، وهذه الرواية تخالف كتاب الله، إذ كيف تكون المرأة شراً كلها والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿إنا هديناه السَّبِيلَ إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٣]، ويقول: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠]. فالإنسان لم يخلق شريراً في أصل خلخته، بل خلق على ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٣٨.

(٢) الوسائل، كتاب القضاء، الباب: ٩، الحديث: ١٣.

القيّم ﴿[الروم: ٣٠]، وفي الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرّانه»^(١).

٢ - ما المراد بكون المرأة شراً؟ هل ذلك باعتبار عنصر الإغراء، فالرجال يمثلون عنصر إغراء للمرأة كما المرأة عنصر إغراء للرجل، وأغلب النساء يغريهن الرجال ويخدعنهن، وقد عبّر أحمد شوقي عن ذلك بقوله:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء

٣ - وعلى فرض أن عنصر الإغراء عندها شر، فكيف توصف المرأة بأنها شر بقول مطلق والإغراء عنصر من عناصر شخصيتها وليس جميع عناصرها؟ فهل فكرها شر، أو أن عاطفتها التي تحضن من خلالها أطفالها شر، وهل عباداتها شر؟!

٤ - ثم إذا كانت المرأة شراً كلها، فكيف يعاقبها الله تبارك وتعالى إذا كان هو الذي خلقها كذلك؟! ألا يحق لها أن تحتج بالقول: أنت خلقتني من الشر وجعلتني شراً، فلم تعاقبني على فعل الشر وهو مودع في أصل خلقتي التي لا دخل لي فيها؟!

٥ - ما معنى «وشر ما فيها أنه لا بدّ منها»، هل من جهة الحاجة إليها في التناسل؟ فالزجل كذلك، فإنه طرف في عملية التناسل فلم لم يكن شراً؟! وهل يعقل أن يكون الإنسان الذي يمثل ضرورة شراً كله؟! فالشمس تمثل

ضرورة للحياة حتى تستمر وتبقى، فهل يصح أن نقول إنها شر؟!

٦- على أننا نربأ بعلي(ع) أن يتكلم بهذه الطريقة، وسيرته تكذب صدور هذه الكلمة عنه، لأنه أكرم المرأة أيما إكرام، وأحسن إليها أيما إحسان، وهو العارف أن في النساء من يفيض الخير منهن وأن في الرجال من هم في غاية الشر، وأن في النساء من تفوق الرجال أدباً وعلماً وعملاً.. وإن حياته مع الزهراء(ع) تؤكد ذلك، فهو الذي أحبها واحترمها وأجلها وآلمه فقدّها أشدّ الإيلام، مع أنّها(ع) امرأة من النساء وإن امتازت عنهن بخصائص عديدة جعلتها تجسد العصمة والطهارة والقداسة في أقوالها وأفعالها، ولكن هذا الامتياز يؤكد المسألة ولا ينفيها، أي يؤكد عدم صدور هذه الكلمة عن أمير المؤمنين(ع)، لأنها كلمة غير مفهومة ولا نجد لها محملاً صحيحاً، وإذا كان هناك من يحاول صرفها إلى امرأة بعينها لتكون «أل» التعريف عهدية وليست للجنس، فهذا لا يصح، لأن الكلمة حسب ما يظهر منها واردة على نحو الإطلاق.

وقد قرأت في كتاب «بهجة المجالس» أنّ هذه الكلمة هي للمأمون العباسي، وربما نسبت خطأً لأمير المؤمنين(ع).

وهناك روايات تحط من شأن بعض الأقوام، وقد تعرضنا في أبحاثنا الفقهية إلى أنها مما لا سبيل إلى الأخذ بها^(١).

(١) راجع كتاب النكاح، الشيخ جعفر الشاخوري، تقريراً لأبحاث سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، ج: ١، ص: ٣، دار الملاك، ١٩٩٦ م.

كراماتها

لا ريب أن هناك ظروفاً طبيعية قد كفلت النمو الروحي والعقلي للسيدة الزهراء (ع) وغيرها من النساء الجليلات، وذلك مثل تربية النبي (ص) لها وتربية زكريا لمريم (ع)، ولكن إلى جانب ذلك هناك اللطف الإلهي الذي كساها بالطهارة والقدسية وخصّها ببعض الكرامات وهي ما زالت جنيئاً في بطن أمها^(١) وأكرمها بنزول الملك عليها^(٢).

وإذا كنا لا نستطيع إطلاق الحديث القائل بوجود عناصر غيبية في شخصية الزهراء (ع)، بحيث يخرجها عن كونها بشراً أو تتحوّل حياتها كلها إلى معجز خارقة للقوانين الطبيعية والسنن التي أودعها الله في الكون، لكن هذا لا يعني أبداً نفي ذلك كله، فإن الزهراء الإنسانية كانت تحيط بها ألطاف الله، ونستطيع أن نقول إنّ هناك عالماً من الغيب في شخصيتها، وإنها نور من الأنوار، وفي حياتها الكثير من الكرامات التي أعطاها الله إياها، فقد روي^(٣) أنه كان يدخل عليها رسول الله فيجد عندها رزقاً كما كان يدخل

(١) راجع: عوالم الزهراء، ص: ٢٠١.

(٢) م.ن، ص: ٥٨٣.

(٣) تفسير الكشف، ج: ١، ص: ٢٧٥، وعنه بحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ٢٩. وعوالم الزهراء، ص: ٢٠٧.

نقلاً عن الخرائج والجرائح.

زكريا على مريم فيجد عندها رزقاً ويقول: يا مريم أنى لك هذا؟ فتقول ﴿هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧]. وهكذا كانت تجيب فاطمة (ع) أباهما عندما يسألها عن الرزق الذي يجده عندها، كانت لها الكرامة من ربها لأن الله أعدّها لتكون سيدة نساء العالمين، ولا بد لسيدة نساء العالمين أن تحمل كل الفضائل وكل عناصر الخير والحق والعبادة والطهارة، وكان لها كرامات أخرى تكشف عن عظيم منزلتها عند الله وقربها منه، لأنّ الله لا يعطي الكرامات إلا للمخلصين من عباده والمصطفين من خلقه.

هل الزهراء (ع) امرأة غير عادية؟

ورغم ما تقدّم من براهين على عصمة الزهراء وقدسيتها وكراماتها وفضائلها ... فإن ذلك لا يخرجها عن كونها امرأة من جنس البشر تملك من الأحاسيس والعواطف والغرائز ما تملكه سائر النساء، وإنما عظمتها أنها حرّكت أحاسيسها في رضا الله، ولم تسمح لغرائزها أن تخرج عن حدود الله سبحانه، بحيث إن قلبها وعقلها وجسدها لم ينحرفوا عن خط الاستقامة طرفة عين أبداً.

وعندما تحدثنا في «تأملات إسلامية حول المرأة»^(١) عن أن الزهراء (ع) -كما مريم (ع) وآسية بنت مزاحم.... امرأة عادية، فلم يكن في ذلك الكلام إشعار بنفي كرامات الزهراء وعصمتها، كيف وقد أشرنا في تلك الصفحة

(١) تأملات إسلامية حول المرأة، ص: ٩٠، دار الملاك، ط: ٦، ١٩٩٧ م.

نفسها إلى أن الله سبحانه منح بعض تلك النسوة العظيمات من أطفاه ما يسددهن ويثبتهن روحياً وعملياً، وإنما كان ذلك الكلام يرمي - كما يشهد به صدره وذيله - أنها (ع) لم تكن إلا بشراً وتحمل خصائص سائر النساء، كما كان رسول الله (ص) بشراً ويحمل خصائص الرجال ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ [الكهف: ١١٠]، وإلا لو لم يكن رسول الله بشراً وكذلك الأنبياء والأئمة والزهراء - عليهم جميعاً سلام الله - لما كان لهم فضل على سائر الناس، ولما كان هناك معنى للاقتداء بهم ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: ٩]، فعظمة هؤلاء وقيمتهم أنهم بشر وليسوا ملائكة، ولكنهم بإرادتهم وقداستهم أرفع شأنًا عند الله من الملائكة.. ولهذا علينا عندما نقدّم الزهراء (ع) أو نقدّم آل البيت (ع)، أن لا نقدّمهم بطريقة توحى بأنهم ملائكة أو أنهم غيب من الغيب، لأننا وإن كنا نعتقد أن الغيب يمثل الأساس في عقيدتنا، ولكن إرادة الله قضت أن يكون المثل الأعلى للناس والهادي لهم من الضلالة من جنسهم ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٣]. ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ [الجمعة: ٢].

ولئن بقي البعض يصرّ - ورغم كل كلماتنا وصراحتها في تقديس السيدة الزهراء (ع) وتعظيمها وبيان عصمتها... ورغم كثرة محاضراتنا وتنوعها منذ أكثر من خمسين سنة في شأن آل البيت (ع) - على تقويلنا ما لم نقله وتحميل كلامنا ما لا يحمله، في شأن سيدتنا الزهراء (ع) وعصمتها، أو في شأن ولاية سيدنا أمير المؤمنين (ع) التي أكّدها ونصّ عليها النبي

الأمين(ص) في مواضع عديدة أبرزها في غدير خمّ، فإننا ندعو الله لهم بالهداية إن كان لا يزال عندهم قابلية ذلك، وإلا فحسابهم على الله ولنا معهم موقف يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها في كتاب، وسيكون الحساب بمحضر جدنا رسول الله(ص) وجدنا أمير المؤمنين(ع) وجدتنا الصديقة الزهراء(ع)، ونرى لمن يكون الفلج في ذلك اليوم.

العبادة

معنى العبادة عند الزهراء (ع):

إذا درسنا عبادة الزهراء (ع)، فإننا نجد فيها القوة والجهد والانفتاح على الله سبحانه، فقد كانت تعني معنى القرب من الله وقيمة التضرع بين يديه والبكاء من خشيته، وهذا ما جعلها تعيش الروحانية كأصفي ما تكون، لأن العبادة عند الزهراء (ع) لم تكن مجرد حالة تقليدية وطقوس باردة يمارس من خلالها الإنسان حركات جوفاء فارغة، وإنما هي حالة يعيش فيها الإنسان عمق الإخلاص والمحبة لله سبحانه، وهذا يعني أنه كلما عبد الإنسان ربه أكثر كلما اقترب منه أكثر، وكلما أحسَّ بعظمة الله أكثر استحضر نعمته أكثر وعاش معه وانفتح على الحياة وعلى عباده أكثر فأكثر.

وإن مشكلة الناس أنهم بين من لا يعبد الله لأنه لا يعيش الله في قلبه وعقله إشراقاً تمكّنه من الانفتاح عليه بالعبادة وعلى المجتمع بالمسؤولية، وبين من يعبد الله عبادة مغلقة لا وعي فيها ولا روح لها، وإنما هي عادة اعتادها لا يشعر معها بالروحانية ولا الحب لله، وبالتالي فإنه لن يتعلم أن يحب الناس جيداً، لأن من لا يحب الله لن يفلح في أن يحب الناس، وأما من أحب الله فلا يمكن أن يبغض عيال الله، والخلق كلهم عيال الله.

عبادتها كماً وكيفاً:

وفي إطالة على ما حدثتنا به كتب السيرة عن عبادة السيدة فاطمة (ع)، فإننا نجد أنها كانت عبادة منقطعة النظير، وإليك بعض النصوص في هذا المجال:

١- يروى عن الحسن البصري أنه قال: «ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة، كانت تقوم حتى تتورم قدماها»^(١).

٢- وتمتد القضية إلى ما هو أبعد من ذلك، فهذا ابنها الإمام الحسن (ع) يحدثنا قائلاً: «رأيت أمي فاطمة (ع) قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راکعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أماه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك، فقالت: يا بني الجار ثم الدار»^(٢).

فاطمة المثقلة بهوم البيت والحمل والأولاد، والمثقلة بمسؤولياتها الإسلامية في الواقع الاجتماعي، ولكنها مع ذلك كله ومع ضعف جسدها، نراها تعبد الله حتى تتورم قدماها وتجدها لنفسها الوقت لتقوم الليل وتحية بذكر الله وعبادته، وهي تختار الليل لمناجاتها، لأنه من أعظم الأوقات التي تنطلق فيها روح الإنسان من ذاته وتحلق في أجواء المعبود والمعشوق.

ولكن لمن كانت تدعو في الليل الذي كانت تنتظره لتجلس بين يدي الله

(١) البحار، ج: ٤٣، ص: ٨٤. وعوالم الزهراء، ص: ٢٢٤.

(٢) البحار، ج: ٤٣، ص: ٢٥٣. وعوالم الزهراء، ص: ٢٢٥، نقلاً عن علل الشرائع.

وتناجيه وتذوب فيه وتخضع له؟

هل كانت تدعو لنفسها وتطلب لذاتها شيئاً كما يفعل الكثيرون منا عندما يقومون بالليل أو النهار ليعبدوا الله؟

كلا، فالمسألة كانت عندها تسير في اتجاه آخر، فهي تستغل أجواء الليل وهدوءه وروحيته من خلال ما يفتحه أمام العبد من آفاق تسمو بروحه، تستغل ذلك لتدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها بشيء. تفكر بالمؤمنين والمؤمنات، هذا إنسان مريض وتلك إنسانة مريضة، وهذا إنسان ابتلاه الله بالفقر، وذاك ابتلاه ببعض المصائب أو المعاصي... تستحضر كل ذلك وتدعو الله لهؤلاء ليقضي حوائجهم ويغفر لهم ذنوبهم ويشفي مرضاهم ويفك أسراهم ويرحم موتاهم ويسد جوعتهم.. وكان ذلك يشغلها عن الدعاء لنفسها، وهي المحتاجة لذلك من خلال ما تعانيه من أعباء وأثقال ومشاكل. ولذلك يقول لها ابنها الحسن (ع) وهو يتحسس آلامها: يا أماه لم لا تدعين لنفسك؟ ويكون الجواب الرائع: «يا بني الجارثم الدار».

هذه قيمة أهل البيت (ع)، أنهم يفكرون بالآخرين وآلامهم وحاجاتهم ومشاكلهم قبل أن يفكروا بأنفسهم، يفكرون بخلق الله وعياله لأنهم يعلمون أن أحب خلق الله إلى الله أنفعهم لعياله، وهذا جدهم رسول الله رغم ما عاناه من قريش وجورها حتى قال: «ما أُوذي نبيٍّ مثل ما أُوذيت»^(١)، كان

(١) البحار، ج: ٣٩، باب: ٧٣، ص: ٥٦، رواية: ١٥.

يقول: «اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون»^(١)، وكان يستمهل الله في عقابهم، ويدرس ظروفهم الفكرية والنفسيّة والاجتماعية ورواسبهم التاريخية، لكي يجد لهم العذر لكل هذه العصبية التي واجهوه بها، حتى استطاع في نهاية المطاف أن يكسر الجليد الذي كان في داخل شخصياتهم ويدخلهم في دين الله أفواجاً.

وعندما كان يواجه المشركين وهم يتمردون ويتمنعون عن الاستجابة له، كان يعيش الحسرة إشفاقاً عليهم ورحمة بهم، ولذا خاطبه الله: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [فاطر: ٨]، وقال له: ﴿فذكر إنما أنت مذكر* لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]، أي أنك لست المسؤول عن عدم اهتدائهم، وإنما أنت مسؤول أن تعلمهم الكتاب والحكمة وتزكيهم وتبلغهم رسالات الله، بأن تبذل كل جهدك في هذا الإطار وتقيم الحجة عليهم، وأما سلوك طريق الهداية، فهو بيدهم واختيارهم، فإن قدر الله سبحانه لهم سلوكه كانوا من المرحومين ببركة جهودك، وإلا فلا لوم عليك ولا عتاب، بل اللوم عليهم والعقاب لهم.

تسبيحها ودعاؤها:

لقد سلف عند الحديث عن آلامها ومعاناتها أنها كانت تبتعد عن كل المتاعب التي تواجهها والمعاناة التي كانت محيطة بها، بالانفتاح على تكبير

(١) البحار، ج: ٩٥، باب: ٧، ص: ١٦٧، رواية: ٥.

الله وتحميده وتسبيحه من خلال ما علّمها رسول الله من التسبيح المعروف بـ«تسبيح الزهراء»، الذي رأت به خير مسلّ لها عن الهموم والغموم، وأفضل من الخادم ومن خدمات كل الناس، ولذا قالت لأبيها بعدما علّمها التسبيح المذكور: «رضينا بالله ورسوله».

وأما دعاؤها فكان دعاءً مميزاً تنفتح به على الله سبحانه لتستمد منه العون والطاقة على المصاعب والمتاعب والمعاناة التي تعيشها، وقد نقل لنا عنها دعاءً كانت تدعو به في أوقات جلوسها بين يدي الله سبحانه، وسنأتي على نقله مع ما يستفاد من فقراته في ما يأتي.

أفضل ساعات الدعاء:

روى الطبري الإمامي في دلائل الإمامة بإسناده عن زيد بن علي عن آبائه عن فاطمة بنت النبي(ص) قالت: «سمعت النبي(ص) يقول: إن في الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيراً إلّا أعطاه إياه. قالت: فقلت: يا رسول الله أي ساعة هي؟ قال: إذا تدلّى نصف عين الشمس للغروب».

قال: وكانت فاطمة(ع) تقول لغلامها: اصعد على السطح، فإن رأيت نصف عين الشمس قد تدلّى للغروب فأعلمني حتى أدعو^(١).

هكذا كانت الزهراء(ع) تترقب ساعات استجابة الدعاء لتقف بين يدي

(١) دلائل الإمامة، ص: ٧١.

الله عز وجل وتفتح قلبها وعقلها على الله سبحانه فتناجيه بما تحب وترغب،
وتُسارّه بما يجيش في صدرها ويعتمل في قلبها من هموم وآلام ومصائب
لم تجد إلى بنّها سبيلاً، وتدعوه وتتوسل إليه، لأن في الدعاء سعادة الدنيا
والآخرة.

الصادقة

تحدثت عائشة زوج النبي (ص) عن كثير من خصال الزهراء (ع) ومناقبها وعلاقتها برسول الله (ص) وكيف كان يحترمها ويرحب بها ويجلسها عن يمينه^(١)، وأنها كانت الأحب إلى قلبه (ص) مع زوجها أمير المؤمنين (ع)^(٢)، ومما نقل عن عائشة في هذا المجال حديثها عن صدق الزهراء (ع)، بل أصدقيتها، قالت: «ما رأيت أصدق منها إلا أباه»^(٣)، وقيمة هذا الحديث أنه صادر من عائشة التي يبدو أنها تحدثت به بعد عملية استقرار كل من تعرفه في الواقع الإسلامي من الرجال والنساء، فلم ترَ أصدق من الزهراء (ع) إلا أباه. والملفت أنها - أي عائشة - لم تقل في وصفها (ع) إنها الصادقة، بل عبّرت بالأصدق، وهكذا تعبير يطلق على الإنسان عندما يكون حساساً جداً في مسألة الصدق، بحيث يدقق في الكلمة حذراً من أن يكون فيها بعض الإيحاءات الكاذبة وإن لم تكن كذباً. والزهراء بنظر عائشة كانت

(١) راجع: صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٩٠٥.

(٢) عوالم الزهراء، ص: ١٢٣.

(٣) بحار الأنوار، ج: ٤٣، باب: ٣، ص: ٥٣، رواية: ٤٨. رواه الحاكم في المستدرک بإسناده عن عائشة، ج: ٣، ص: ١٦٠، نقلاً عن عوالم الزهراء، ص: ٢٥٩. وفي البحار، ج: ٤٣، ص: ٨٤: قالت عائشة: «ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها».

كذلك، كانت الأصدق وتمثل الصدق في الكلمة والموقف، كما كان أبوها رسول الله (ص) يجسد الصدق حتى عرف في قومه - قبل البعثة - «بالصادق الأمين»، وبعد البعثة شهد له الله بهذه الصفة الرفيعة، فقال عز من قائل عنه: ﴿جاء بالصدق وصدق به﴾ [الزمر: ٣٣]، وهذه الصفة المميزة التي اتصف بها الرسول (ص) هي التي هيأت الأجواء لنبوته في نفوس الناس وركزتها على قاعدة الصدق، والصدق يجتذب الأمانة، ومن يكون صادقاً لا يمكن أن يكون خائناً، لأن الخيانة تمثل نوعاً من الغش والكذب مع الناس والحياة.

والزهرء (ع) اكتسبت هذه الصفة من أبيها، وارتفعت بها حتى كانت الأصدق بعد أبيها، كان أبوها الأصدق في الناس كلهم، وكانت الأصدق في الناس كلهم ما عداه (ص)، لأن صدقها مستمد من صدقه، فهو الذي زرع الصدق في عقلها ليكون فكرها فكر الصدق، وزرع الصدق في قلبها لتكون عاطفتها عاطفة الصدق، وزرع الصدق في حياتها لتكون حياتها صادقاً كلها، صادقاً مع نفسها وزوجها وأولادها وكل مجتمعها.

لقد كانت الزهرء (ع) ولا تزال قدوة في الصدق، وتريد لنا أن نحول الحياة إلى صدق، وأن يكون كل واحد منا هو الأصدق مع نفسه والأصدق في قومه وعشيرته، لا أن نكون كما هو حال الكثيرين الذين يعيشون حياتهم كذباً مستمراً ومتواصلاً، كذباً في الدين مع كل الدجالين والمنحرفين، وكذباً في السياسة مع كل الخائنين والمستكبرين، وكذباً في الواقع الاجتماعي الذي يتحرك فيه الكذب من أجل منفعة هنا ومنفعة هناك.

الصدّيقة الشهيدة

ورد في الحديث عن الإمام موسى الكاظم (ع): «إن فاطمة صدّيقة شهيدة»^(١).

إننا نستوحي من هذا الحديث الشريف أن سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) وصلت إلى مقام الصديقين الذين يعيشون الصدق مع النفس ومع الله ومع الناس من حولهم ، وقد عرفت أنها كانت الأصدق بعد أبيها كما روت عائشة ، ونستوحي منه أيضاً أنها وصلت إلى مقام الشهداء الذين يشهدون على الأمة يوم القيامة ، كما هو شأن الأنبياء الذين اصطفاهم الله سبحانه واختارهم لمقام الشهادة.

وإنّ ضم كلمة «الشهيدة» إلى كلمة «الصدّيقة» هو الذي يوحي لنا بهذا التفسير لكلمة الشهيدة ، لأنه يلتقي مع الإشارة القرآنية لذلك في قوله تعالى : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ [النساء: ٦٩] ، وقوله تعالى : ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم . .﴾ [النحل: ٨٩] ، وغيرها من الآيات

(١) الكافي، ج: ١، ص: ٥٨، رواية: ٢.

القرآنية التي تتحدث عن مقام الشهادة على الأمة.

ولا ريب أن موقع الشهادة على الأمة هو أعظم من موقع الشهادة بمعنى القتل في سبيل الله، لأن الشهادة بالمعنى الأول هي صفة الله سبحانه: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ [فصلت: ٥٣]. وهي أيضاً صفة أنبياء الله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١].

وعندما يختار الله أحداً للاصطفاء ولمقام الشهادة كما اختار سيدتنا الزهراء (ع) لذلك، فإن هذا الاصطفاء لا ينطلق من فراغ، بل هو ينطلق من الخصائص التي تحبب هؤلاء إلى الله وتجعلهم في مستوى حمل الرسالة وتجسيد قيمها في الحياة.

العامة

في مدرسة الرسول(ص):

ترعرعت الصديقة الطاهرة في مهبط الوحي وبيت النبوة، ما هيّا لها أن ترضع تعاليم الإسلام ومفاهيمه وأحكامه مع الحليب، لتكون أول تلميذة من النساء في القسم الداخلي من مدرسة رسول الله(ص)، كما كان علي أول تلميذ من الرجال في هذه المدرسة.. كانت تجلس مع علي(ع) عند رسول الله والوحي ينزل عليه وتستمع بلهفة وإمعان إلى دروس الرسول(ص) وهو يشرح معاني الوحي لها ولعلي(ع) ويعلمهما أحكام الله وتشريعاته، ومن هنا نستطيع القول إن كلمة النبي(ص): «لو لم يكن عليّ لما كان لفاطمة كفؤ»^(١)، تشير، فيما تشير إليه، إلى المستوى العقلي الذي تملكه فاطمة(ع) ولا يملكه إلا علي(ع)، ما جعلها الكفؤ الوحيد له وجعله الكفؤ الوحيد لها.

ومن الشواهد التي تدلّ على اهتمام النبي(ص) بتعليم فاطمة، ما جاء في الحديث الذي رواه الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق(ع) قال: لما جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله(ص) بعض أمرها، أعطاها كربة.

(١) أصول الكافي، ج: ١، ص: ٤٨٥.

أصل السعفه وكان يُكتب عليها - وقال تعلمي ما فيها .. فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت»^(١).

لقد أراد لها النبي (ص) أن تخفف آلامها من خلال الانشغال بالقيم الإسلامية وتبليغها للناس، ومعنى ذلك في ما نستوحيه، أن على الإنسان أن يكون واعياً لرسالته أكثر من وعيه لآلامه، لينتصر برسالته على آلامه، فإن من يعيش الاهتمام بالقضايا الكبرى ينسى آلامه ويستصغرها.

أهمية العلم عندها:

نقل بعض المحدثين والعلماء رواية عن الزهراء (ع) تكشف عن أهمية العلم عندها، والرواية هي أنه جاء رجل إلى فاطمة (ع) فقال: يا فاطمة بنت رسول الله، عندك شيء تطرفينيهِ (تعطيني إياه)؟ فقالت: يا جارية - وكان عندها خادمة اسمها فضة خدمتها في أواخر عمرها الشريف - هاتي تلك الحريرة (أو الجريدة التي كان عليها ما تسمعه من أبيها رسول الله (ص))، فطلبتها فلم تجدها، فقالت (ع): ويك اطلبوها فإنها تعدل عندي حسناً وحسيناً، هذا تراث رسول الله (ص)، فطلبتها فإذا هي قد قممتها في قمامتها - وضعتها في النفائات - فإذا فيها: قال النبي (ص): ليس من

(١) مسند فاطمة، ص: ٥٨٥. دلائل الزهراء للطبري الإمامي، ص: ٢٨.

المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه - أذاه - ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت، إن الله تعالى خير ويحب الخير الحليم المتعفف، ويبغض الفاحش الظنين البذاء السئال الملحف - الذي يلحف في سؤاله - إن الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، إن الفحش من البذاء والبذاء في النار»^(١).

إننا ندرك من هذه الرواية ونتلمس منها بوضوح كم كانت الزهراء (ع) تعظم العلم وتحترمه ، ندرك ذلك جيداً إذا عرفنا كم كانت محبتها لولديها الحسن والحسين (ع)، ولا بد أن يكون واضحاً أن الأهمية لا تكمن في حروف الكلمة، بل في روحيتها التي تحولها إلى فكر يغني الإنسان وحركة تصحح مساره وتجربته .

ونستفيد من هذه الرواية وغيرها أن الصديقة كانت تستقبل الرجال وتجيب على أسئلتهم واستفساراتهم الشرعية أو تعظم ببعض المواعظ الدينية .

حلقة درسها:

ولم تكتف الزهراء (ع) بكتابة العلم وجمعه في مصحف وأوراق، بل كانت تعمل على بثه في المجتمع الإسلامي، كما أنها لم تكن تنتظر أن

(١) رواها الهيثمي في مجمع الزوائد. راجع: مُسند فاطمة، ص: ٦٦، وص: ٥٨٦. ورواها في دلائل الزهراء، وهو أحد فصول كتابه دلائل الإمامة، وطبع مستقلاً، ص: ٢٧. وراجع دلائل الإمامة له، ص: ٦٥.

يقصدها طلاب العلم لتجيب على أسئلتهم، بل كانت تبادر إلى نشره في المجتمع، إذ ينقل كتاب سيرتها أنها كانت تعطي دروساً لنساء المهاجرين والأنصار اللاتي كنّ يجتمعن عندها في حلقة واحدة بما يشبه حلقات الدرس الحوزوي، وما خطبتها في المسجد التي بينت فيها أسرار التشريع والقوانين الإلهية وغير ذلك من المطالب، إلّا وثيقة حيّة وخير شاهد على رسالة الزهراء الثقافية ومسؤوليتها الفكرية والتربوية.

أول كاتبة في الإسلام:

وقد وصل اهتمامها بالعلم وبحديث رسول الله (ص) وبأحكام الإسلام وتعاليمه إلى درجة أنها كانت تسجل كل ما تسمعه من رسول الله (ص) مباشرة، أو ما يحدثها به علي (ع) أو ابنها الإمام الحسن (ع) عن رسول الله (ص)، كما يفهم ذلك من حديث الحريرة المتقدم ومن قضية «مصحفها» على بعض التفسيرات الآتية له، ولهذا نستطيع القول إن الزهراء (ع) هي أول كاتبة في الإسلام من الرجال والنساء وأول من كتبت حديث رسول الله (ص) بسمع ومرأى منه (ص)، ومنه نعرف أن ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب من منعه^(١) المسلمين من كتابة حديث الرسول (ص) حتى لا تختلط السنّة بالكتاب، كان أمراً خاطئاً وحجته غير مقنعة، فهذه فاطمة الزهراء (ع) قد كتبت أحاديث الرسول في حياته ولم يردعها عن ذلك.

(١) أضواء على السنّة المحمدية، محمود أبو رية، ص: ٥٤، وما بعدها، مكتب الإعلام الإسلامي، نشر البطحاء، إيران، ط: ٥. وراجع: كتاب تدوين السنّة الشريفة، السيد محمد رضا الجلالى، قم. إيران، مكتب الإعلام الإسلامي ١٤١٣ هـ.

مصحف فاطمة ليس قرآناً:

لقد تركت لنا الزهراء (ع) كتاباً عرف «بمصحف فاطمة»، وقد ثار حوله لغطٌ واسع، ولهذا لا بدّ أن نبين حقيقة هذا المصحف ورأينا في ما يشتمل عليه.

وبدايةً، يجب أن نؤكد بأن هذا المصحف بحسب ما يعتقده كل الشيعة دون استثناء، ليس قرآناً آخر غير القرآن الموجود بين الدفتين والمتداول بين المسلمين، والذي لم يحصل فيه زيادة أو نقصان.

وقد حاول بعض علماء المسلمين ممن لا يتحملون مسؤولية الكلمة، اتّهام الشيعة بأن لهم قرآناً غير القرآن المتداول بين أيدي المسلمين، لأن المصحف يعني القرآن، وعندما يتحدث عنه الإمام الصادق (ع) يقول إنه أكبر من مصحفكم هذا بثلاث مرات^(١).

ولكننا نقول لهؤلاء أن يتقوا الله في كلماتهم لأنه:

أولاً: إن الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع)^(٢)، والتي تتحدث عن

(١) البحار، ج: ٢٦، ص: ٣٩. ومن الواضح أن الإمام (ع) يتحدث في هذا الحديث عن حجم المصحف وأنه ثلاثة أضعاف القرآن، ولذا عقّب على قوله: «فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات» بقوله: «والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد»، أي أنه علم آخر غير القرآن الكريم.

(٢) ففي الخبر عن الإمام الصادق (ع): «... مصحف فاطمة، ما أزعم أن فيه قرآناً...» البحار، ج: ٢٦، ص: ٣٧، وفي خبر آخر عنه (ع): «... وعندنا مصحف فاطمة، أما والله ما هو بالقرآن»، م.ن، ص: ٣٨، وفي خبر ثالث عنه (ع): «وخلّفت فاطمة (ع) مصحفاً ما هو قرآن...»، م.ن، ص: ٤٣.

مصحف فاطمة، تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك والريب بأنه ليس قرآناً مغايراً للقرآن المتداول بين أيدي المسلمين. ولهذا عبّر عنه في بعض تلك الروايات بـ«كتاب فاطمة» بدل مصحفها، كما جاء في كتاب الزكاة من الكافي^(١).

ثانياً: نقول لهؤلاء، وقد قلنا ذلك لكثير من علماء المسلمين من أهل السنة^(٢): لو أنكم جلتم على كل مواقع الشيعة في العالم ودخلتم كل بيوتهم ومساكنهم ومكتباتهم ومساجدهم وحسينياتهم .. فإنكم لن تجدوا إلا هذا القرآن الذي بين أيديكم لا يختلف عنه بكلمة ولا حتى بحرف واحد.

ثالثاً: إن كلمة مصحف التي هي منشأ الوهم واللغط، لا ترادف بحسب مدلولها كلمة قرآن، لأن كلمة مصحف مأخوذة من الصحف والصفحات، فكل كتاب له أوراق وصفحات يسمى مصحفاً، وحتى القرآن الكريم إنما سمي مصحفاً لأنه يشتمل على صحف وصفحات. ولئن صارت

(١) الكافي: ج ٣، ص: ٥٠٧، كتاب الزكاة، باب: العلة في وضع الزكاة على .. رواية: ٢.

(٢) تحدّث سماحة السيد بهذا الحديث مع العالم الشيخ محمد الغزالي، الذي أنصف في هذا المجال كما في غيره، قال في كتابه «دفاع عن العقيدة والشرعية ضد مطاعن المستشرقين»، ص: ٢١٩ - ٢٢٠، سمعت واحداً من هؤلاء - الذي يرسلون الكلام على عواهنه - يقول في مجلس علم: إن للشيعة قرآناً آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف، فقلت له أين هذا القرآن، إن العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظل من بعثة محمد(ص) إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرناً، لا يعرف إلا مصحفاً واحداً، مضبوط البداية والنهاية، معدود السور والآيات والألفاظ، فأين هذا القرآن الآخر، ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل؟ لماذا يُساق هذا الافتراء، ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات وتلقى بين الأغرار ليسوء ظنهم بأخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم، إن المصحف واحد يطبع في القاهرة فيقدسه الشيعة في النجف أو في طهران ويتداولون نسخه بين أيديهم وفي بيوتهم دون أن يخطر ببالهم شيء بته الا توقيير الكتاب ومنزله جل شأنه ومبلغه(ص)، فلم الكذب على الناس وعلى الوحي».

الكلمة في العرف الإسلامي مرادفة لكلمة القرآن، فإن هذا العرف حادث والاصطلاح متأخر جداً عن زمن صدور الروايات التي تقول إن لفاطمة مصحفاً.

حقيقة المصحف:

بعدما عرفت أن المصحف المذكور ليس قرآناً، يقع تساؤل جديد عن مضمونه ومحتواه، فهل هو مشتمل على بعض المغيبات التي كان يحدثها بها الملك ويكتبها علي(ع)؟ أو هو مشتمل على وصيتها مع بعض الأحكام الشرعية وربما المواعظ والتعاليم الإسلامية؟

هناك اختلاف في الروايات المتعلقة بذلك:

١- فهناك رواية حماد بن عثمان عن أبي عبد الله(ع)، أنه لما نظر في مصحف فاطمة(ع) قال: «وما مصحف فاطمة؟ قال: إن الله تعالى لما قبض نبيه(ص) دخل على فاطمة(ع) من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل إليها ملكاً يسلي غمها ويحدثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين، فقال لها: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي، فأعلمته ذلك، وجعل أمير المؤمنين يكتب كل ما سمع، حتى أثبت من ذلك مصحفاً. قال: ثم قال: أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون»^(١).

(١) البحار ج: ٢٢، باب ٢، ص: ٥٤٥، رواية: ٦٣.

ويمكن المناقشة في المتن بالقول: إن المفروض في الملك أنه جاء يحدثها ويسلّي غمّها ليدخل عليها السرور، فكيف تشكو ذلك إلى أمير المؤمنين (ع)؟! ما يدل على أنها كانت متضايقّة من ذلك، كما أن الظاهر منه أن الإمام (ع) كان لا يعلم به، وأن المسألة كانت سماع صوت الملك لا رؤيته.

٢- وفي رواية أبي عبيدة: «... وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعد في ذريتها، وكان علي يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»^(١).

ولا مانع أن ينزل عليها الملك جبرائيل، ولكن الحديث ظاهر في اختصاص العلم الذي علّمها إياه مما يكون في ذريتها فقط.. بينما الرواية الأخرى تتحدث عن الأعم من ذلك، حتى أنها تتحدث عن ظهور الزنادقة في سنة ثمان وعشرين ومائة، وهو مما قرأه الإمام علي (ع) في مصحف فاطمة.

٣- وهناك رواية الحسين بن أبي العلاء عن الإمام الصادق (ع)، وجاء فيها: «...مصحف فاطمة (ع) ما أزعّم أن فيه قرآناً، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحد، حتى أن فيه الجلدة ونصف الجلدة وثلاث الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش»^(٢).

والظاهر من هذه الرواية أن المصحف يشتمل على الحلال والحرام.

٤- وقد ورد في حديث حبيب الخثعمي أنه قال: «كتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن خالد وكان عامله على المدينة، أن يسأل أهل المدينة عن

(١) الكافي، ج: ١، ص: ٢٤١، البحار، ج: ٢٦، باب: ١، ص: ٤١، رواية: ٧٢.

(٢) البحار، ج: ٢٦، باب: ١، ص: ٣٧، رواية: ٦٨.

الخمس في الزكاة من المائتين كيف صارت وزن سبعة ولم يكن هذا على عهد رسول الله (ص)، وأمره أن يسأل فيمن يسأل عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد (ع)، قال: فسأل أهل المدينة فقالوا: أدركنا من كان قبلنا على هذا، فبعث إلى عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد (ع)، فسأل عبد الله بن الحسن فقال كما قال المستفتون من أهل المدينة، قال: فقال: ما تقول يا أبا عبد الله؟ فقال: إن رسول الله (ص) جعل في كل أربعين أوقية، فإذا حسبت ذلك كان على وزن سبعة، وقد كانت وزن ستة، وكانت الدراهم خمسة دوانيق. قال حبيب: فحسبناها فوجدناها كما قال، فأقبل عليه عبد الله بن الحسن فقال: من أين أخذت هذا؟ قال: قرأت في كتاب أمك فاطمة (ع)، قال ثم انصرف. فبعث إليه محمد بن خالد ابعث إليّ بكتاب فاطمة (ع)، فأرسل إليه أبو عبد الله (ع): إني إنما أخبرتك أنني قرأته ولم أخبرك أنه عندي. قال حبيب: فجعل محمد بن خالد يقول لي: ما رأيت مثل هذا قط^(١).

وظاهر هذا الحديث أيضاً أن كتاب فاطمة، وهو مصحف فاطمة^(٢)، يشتمل على الحلال والحرام.

٥ - وهناك رواية أخرى في الكافي عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله (ع) أنه قال - في حديث - وليخرجوا مصحف فاطمة فإن فيه وصية فاطمة (ع)^(٣).

(١) الكافي، ج: ٣، ص: ٥٠٧، رواية: ٢.

(٢) وقد استظهر وحدة كتاب فاطمة مع مصحفها العلامة السيد محسن الأمين العاملي في أعيان

الشيعية، مجلد: ١، ص: ٩٧.

(٣) الكافي، ج: ١، ص: ٢٤١، رواية: ٤.

٦- وهكذا نجد أن بعض الروايات تقول إنه بخطّ علي(ع) عما يحدثه الملك للزهراء(ع)^(١).

٧- وهناك رواية تدل على أن المصحف من إملاء رسول الله(ص) وكتابة علي(ع)^(٢).

ولكن الروايات الأخرى لا تدل على ذلك، وهي المشتمة على الحلال والحرام ووصية فاطمة، فلا بد من الترجيح بينها. أما رواية حماد بن عثمان فهي ضعيفة بعمر بن عبد العزيز أبي حفص المعروف بزحل. يقول الفضل بن شاذان: زحل يروي المناكير وليس بغالٍ، وعن النجاشي: مخلط، وعن الخلاصة: عربي مصري مخلط^(٣).

وأما رواية أبي عبيدة - والظاهر أنه المدائني^(٤) - فهي ضعيفة، لأنه لم يوثق، ولكن رواية الحسين بن أبي العلاء صحيحة، وقد دلت على اشتماله على الحلال والحرام، وأما رواية حبيب الخثعمي ورواية سليمان بن خالد

(١) البحار، ج: ٦، ص: ٤١ و ٤٤.

(٢) م. ن. ج: ٢٦، ص: ٤١، رواية: ٧٣.

(٣) مجمع الرجال، ج: ٤، ص: ٢٦٢.

(٤) لعل وجه استظهار سماحة السيد أن أبا عبيدة هذا هو المدائني وليس الحذاء الثقة، هو أن المدائني قد روى في الكتاب نفسه من الكافي (كتاب الحجة) وبعد عدة صفحات رواية تتحدث عن علم الأئمة وأنهم إذا شأوا علموا، الكافي، ج: ١، ص: ٢٥٨، رواية: ٣.

أي أن مضمونها ومضمون رواية مصحف فاطمة واحد، وهو الحديث عن علم الأئمة ومصادر هذا العلم، ما قد يساعد على وحدة الراوي، وأنه المدائني، وإن كان ابن رثاب عُرف بالرواية عن الحذاء. وكيف كان، إن لم يمكن استظهار ذلك فلا أقلّ من احتمال، وهو كافٍ في تضعيف الرواية بعد تردد الراوي بين الثقة وغيره، فتأمل.

فهما ضعيفتان على الظاهر، لكنهما تصلحان لتأييد خبر الحسين بن أبي العلاء، لا سيما أن مبناهما في حجية الخبر هو حجية الخبر الموثوق به نوعاً، وقد يكفي في الوثوق عدم وجود ما يدعو إلى الكذب فيه.

ولذا فالأرجح أنه كتاب يشتمل على الحلال والحرام، وإن كان بالإمكان أن يقال بأنه لا تعارض بين الروايات، فنلتزم أن المصحف يشتمل على الأحكام وعلى الأخبار التي كان يحدثها بها الملك وعلى وصيتها، إذ لا مانع من نزول ملك عليها، ويظهر من العلامة المجلسي^(١) إقراره باشمال المصحف على الأحكام. وعلى ضوء هذا، فإن نسبة الكتاب إلى فاطمة (ع) يدل على أنها صاحبة الكتاب، كما أن نسبة الكتاب إلى علي (ع) - في ما ورد من الأئمة (ع)^(٢) عن كتاب علي (ع) - يتبادر فيه أن صاحبه علي (ع). ومما تقدم يتضح أنه لا مانع من القول إنها أول مؤلفة في الإسلام، كما أن علياً أول مؤلف في الإسلام.

وعلى أية حال، فإن الكتاب ليس موجوداً بأيدينا، وإنما هو موجود عند الإمام الحجة (عج)، ولذلك فإن الجدل في ما يحويه ويشتمل عليه ليس له أية ثمرة عملية. نعم، نحن نأخذ منه بما حدثنا به الأئمة (ع) عنه كما نأخذ من كتاب علي (ع) - مع أنه ليس بأيدينا - بما حدثنا به الأئمة (ع) من ذريته، وهكذا الحال في كتاب (الجفر) (والجامعة) وغيرهما مما أثر وعرف أنه من مصادر أهل البيت (ع)^(٣).

(١) بحار الأنوار، ج: ٢٦، ص: ٤٠.

(٢) م. ن، ص: ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) م. ن.

المجاهدة

لم تعيش العزلة:

إننا نقرأ في سيرتها(ع) أنها استقبلت نساء المهاجرين والأنصار^(١)، وتحدثت إلى رجالهن في حوارها معهم في قضية الخلافة، كما استقبلت الشيخين أبا بكر وعمر عندما جاءا يسترضيانها^(٢). وتحدثت سيرتها أنها كانت تطوف على نساء المهاجرين والأنصار لتحدثهن عن حق علي، ما يوحي أنها لم تعيش العزلة الذاتية في هذه الفترة التي سبقت وفاتها، بل إن حياتها القصيرة كانت مليئة بالمواقف الجهادية المشرقة على مختلف الجبهات، وكان جهادها لله وفي سبيل الله وإحقاق الحق.

في المعارك:

كانت(ع) تخرج مع أبيها في بعض معاركه وحروبه. يقول المؤرخون بأنه «لما جرح رسول الله(ص) يوم أحد، جعل علي ينقل إليه الماء في درقته

(١) دلائل الزهاء، ص: ٨٧.

(٢) الإمامة والسياسة، ص: ١٤.

[ترسه] من المهراس - ماء بأحد -، ويغسله فلم ينقطع الدم»^(١)، وهنا جاء دور فاطمة عندما قامت بدور الممرضة «فأتت فاطمة - فأعطته أولاً جرعة من الحنان - وجعلت تعانقه وتبكي، وأحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم»^(٢).

وهذا يوحى لنا بعمق العلاقة بينها وبين رسول الله (ص) وشدة المتابعة منها لأبيها ورعايتها له وعنايتها به، مع أنه كان له آنذاك أكثر من زوجة.

الغاضبة للحق:

وبعد وفاة رسول الله (ص) ابتدأت جهاداً من نوع آخر، حيث كان أكبر همّها وكل قضيتها إثبات حق علي في موقع الخلافة كإمام منصوب من الله، وكل تحركاتها تمحورت حول هذا الهدف السامي، وحتى عندما تحدثت عن فذك لم تتحدث عنها لكونها تمثل حاجة مالية لها على طريقة حب الناس لتحصيل الأموال، بل فذك لم تكن عندها وعند زوجها علي تساوي شيئاً

(١) راجع: نهاية ابن الأثير، ج: ٥، ص: ٢٥٩.

(٢) الكامل في التاريخ، ج: ١، ص: ٥٥٤. ولكن الرواية في صحيح مسلم، ج: ٣، ص: ١٤١٦، حديث: ١، كما يلي: «... أنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جرح رسول الله (ص) فكانت فاطمة بنت رسول الله (ص) تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن (الترس)، فلما رأته فاطمة أن الماء لا يزيد الدّم إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقتة حتى صار رماداً ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم». وراجع: عوالم الزهراء، ص: ٢٧٠.

يذكر «وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظائنها في غد جدث...»^(١)، فأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، لا يعني المال عندهم شيئاً، وفاطمة (ع) هي من قلب هذا البيت والرابط بينهم جميعاً، فهي أجلّ من أن تفكر بفدك لمصلحة ذاتية، بل إنها أرادت بإصرارها على التمسك بفدك أن تثبت أن غصب فدك يعني غصب الحق، وأن غصب فدك يلتقي مع غصب الخلافة.

المعارضة للظلم:

وهكذا انطلقت في حماية سياسة الحق، انطلقت بمواقفها وكلماتها وخطبها وكل نشاطاتها، جاءتها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها في مرضها الذي توفيت فيه، وأخذن يسألنها عن صحتها، عن مرضها وآلامها وضعفها، فبماذا أجابت؟ قالت: «أصبحت عائفة لدنياكن، قالية - كارهة - لرجالكن»^(٢)، لماذا؟ لأنهم لم ينطلقوا في نصرته الحق، لم يقفوا مع علي (ع) ممثّل الحق، احتجّت عليهن وعلى رجالهن بذلك، وسجّلت هذا الموقف الغاضب دفاعاً عن الحق، لا لأن علياً (ع) زوجها أو ابن عمها، بل لأنه إمامها وولي أمرها وإمام كل المسلمين وولي أمرهم، ولأن علياً مع الحق والحق معه، ولأن علياً ذاب في الله بجهاده دون خوف، وتحرك في سبيله من دون ملل ولا كلل، ولأن علياً هو الذي علّمه رسول الله وفتح له ألف باب من العلم

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥: ٤٥.

(٢) دلائل الزهراء، ص: ٨٧.

يفتح له من كل باب ألف باب^(١). ولأن علياً لو سلّم زمام الأمور لعمل بالحق وأرسى قواعد العدل وحملهم على المحجة البيضاء. علي(ع) في وعي فاطمة(ع) يمثل كل هذه الصفات، يمثل الإنسان الكامل الذي احتاج كل الناس إلى علمه ولم يحتج إلى سؤال أحد، كان دائماً في المقدمة والطليعة، وكما قال الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما سئل: لم قدّمت علياً؟ فأجاب: «استغناؤه عن الكل واحتياج الكل إليه دليل أنه إمام الكل»^(٢).

خطابها للمهاجرين والأنصار:

وإليك خطابها لنساء المهاجرين والأنصار كاملاً كما رواه المحدثون والمؤرخون: فقد جاء في الاحتجاج^(٣) للطبرسي، ومعاني الأخبار^(٤) للشيخ الصدوق، والأمال^(٥) للشيخ الطوسي، وشرح النهج^(٦) لابن أبي الحديد، نقلاً عن كتاب السقيفة، واللفظ للأول: «قال سويد بن غفلة: لما مرضت فاطمة سلام الله عليها المرضة التي توفيت فيها، دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا بنة رسول الله؟ فحمدت الله وصلّت على أبيها ثم قالت:

(١) بحار الأنوار، ج: ٢٦، ص: ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) سفينة البحار، ج: ٢، ص: ٧٢١.

(٣) الاحتجاج، ص: ١٠٨.

(٤) معاني الأخبار، ص: ٣٥٤.

(٥) الأمال، ص: ٣٧٤.

(٦) شرح النهج لابن أبي الحديد، ج: ١٦، ص: ٢٣٣. وراجع: دلائل الزهراء، ص: ٨٧.

«أصبحت والله عائفة - كارهة - لذيالكنا قالية - مبغضة - لرجالكن، لفظتهم - طرح الشيء من الفم - بعد أن عجمتهم - عض الشيء - وسئمتهم بعد أن سبرتهم - امتحنتهم -، فقبحاً لفلول - فل السيف: انتلم حده - الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الصفا - الرمح - وصدع القناة - الحجر الأملس - وخطل الآراء وزلل الأهواء، وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم: أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون! لا جرم لقد قدّتهم ربقتها - الربة: حبل صغير تربط به صغار البهائم - وحملتهم أوقتها - ثقلها - وشئت عليهم غاراتها، فجعداً - جدد الأنف: قطعه - وعقراً وبعداً للقوم الظالمين.

ويحهم، أئى زحزحوها - نحّوها - عن رواسي - الأصول الثابتة - الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين - الفطن - بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموا من أبي الحسن (ع) - أي أنكروا عليه - ؟ نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره - غضبه - في ذات الله، وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردّهم إليها وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سججاً - سهلاً - لا يكلم حشاشه - جرحه - ولا يكلّ سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردتهم نميراً صافياً رويّاً، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه، ولأصدرهم بطاناً - مرتوين - ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ريّ الناهل وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين، ألا هلم فاسمع وما عشت أراك الدهر عجبا!! وإن تعجب فعجبت لهم! ليت شعري، إلى أي سناد استندوا؟! وإلى أي عماد اعتمدوا؟! وبأيّة عروة تمسكوا؟! وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا - استولوا - لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً! استبدلوا والله الذنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل - ما بين الكتفين -، فرغماً لمعاطس - أنوف - قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. ويحهم ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾ [يونس: ٣٥]؟! أما لعمرى لقد لقحت - حبلت - فنظرة - أي انتظروا - ريثما تنتج - تلد - ثم احتلبوا ملء القعب - الإناء الخشبي - دماً، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، واطمئنوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم وبهرج شامل واستبداد من الظالمين، يدع فينكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرتا لكم وأئى بكم وقد عميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون».

مجيء المهاجرين والأنصار إليها:

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء - نساء المهاجرين والأنصار - قولها (ع) على رجالهن، فجاء إليها قوم من المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيره، فقالت: «إيكم عني، فلا عذر بعد

تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم».

هكذا هي الزهراء (ع)، امرأة صلبة متممة في ذات الله، تحاور الرجال والنساء وتخاصمهم وتجادلهم، لا لأجل إثبات حق شخصي لها، بل لأجل هدف رسالي كبير، وهو ولاية الأمر وخلافة الرسول (ص) التي هي حق لأمير المؤمنين (ع)، وهو الأليق بها، ولو أعطيت له ولم يحل بينه وبينها لحملهم على المحجة البيضاء، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، وسار بهم سيراً سهلاً، وأوردهم نميراً صافياً رويّاً، كما عبّرت سلام الله عليها.

طوافها على بيوت الأنصار:

ولقد بقيت على الصلابة نفسها في موقفها، حتى أنه جاء في بعض الروايات أنها كانت تخرج مع علي (ع) وتطوف على بيوت المسلمين، سيّما الأنصار، لتحدثهم عن حق علي (ع) وجدارته للخلافة. ففي كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة: «وخرج عليّ كرم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله (ص) على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ كرم الله وجهه: «أفكنت أدع رسول الله (ص) في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه»؟! فقالت فاطمة: «ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»^(١).

(١) الإمامة والسياسة، ص: ١٢.

لقد عاشت للقضايا الكبرى ولم تعش أبداً للقضايا الصغرى، لأنه من يعيش الإسلام والحق كله فلا بد أن يكون بحجم الإسلام والحق، ولا بد أن يبقى صلباً، لا يحابي ولا يداهن ولا يتراجع ولا يضعف ولا يهن ولا يحزن.

الزهراء رائدة النشاط السياسي للمرأة:

إن كل المواقف الأنفة للزهراء تمثل بمصطلح اليوم نشاطاً سياسياً تحركت به من خلال الفرص الممكنة والمتاحة أمامها من دون أن تفقد شيئاً من أخلاقية المسلمة وروحيتها.

وهكذا نستوحي من مواقفها الأنفة أنها أول من قاد حركة المعارضة في الإسلام ضد المواقف الخاطئة التي ظهرت بعد وفاة رسول الله (ص)، وقد عبّرت عن معارضتها أجلى تعبير من خلال خطبتها في المسجد، والتي تمثل وثيقة حية في التشريع الإسلامي والمفردات السياسية.

ولقد خاضت الزهراء (ع) العمل السياسي كأقوى ما يكون، ووقفت وحدها من دون النساء في وجه السلطة لتحدث وتقيم الحجة وتذكر الأمة بكل كلمات الرسول في حق علي (ع)، ولكنها لم تسمع سوى اعتذارات غير مقنعة، إلا أنها ورغم ذلك، بقيت في خط المواجهة ودائرة المعارضة بكل عزيمة وطاقة وإصرار.

قمة الاحتجاج:

حتى أنّها صعدت من وتيرة احتجاجها ومعارضتها إلى أعلى

المستويات عندما أوصت بأن تدفن ليلاً، وأن لا يحضر جنازتها الذين آذوها وظلموها، ليتساءل الناس لماذا أوصت فاطمة أن تدفن ليلاً، وهذه حادثة لم يسبق لها مثيل في الواقع الإسلامي، فلربما كان لهذا التساؤل أثر بعد وفاتها إن لم يكن هناك تجاوب معها في حال حياتها، وإلا إن لم يلق آذاناً صاغية فيكون الحجة الدامغة التي تقطع الأعذار.

تجاوزت آلامها لإثبات الحق:

ومما نلاحظه في مواقف الزهراء(ع) الجهادية السياسية في حركة المعارضة، أنها قد تجاوزت آلامها الجسدية ومتاعبها الحياتية والمعيشية، ووقفت بكل شجاعة، وكانت المرأة الصلبة القوية الواثقة بنفسها المتمسكة بقناعاتها التي لا تخاف في الله لومة لائم.

الرسالية

١- لم تتحدث عن نفسها:

عاشت السيدة فاطمة (ع) آفاقاً واسعة ورحبة في العلاقة مع الله والارتباط الروحي به والانفتاح الكامل عليه وعلى عباده والتحسس بآلامهم والسعي في سبيل إرشادهم وهدايتهم بما لم يحدثنا التاريخ عنه بالشكل التام، ولم تتحدث هي عن شيء من هذه الآفاق والمآثر، لأن ما يعيشه الإنسان الرسالي من روحانية وصفاء في علاقته مع الله لا يستطيع البوح به لأحد من الناس، لا سيما أن بعض المعاني تُحسّ ولا تعرّف، تدرك ولا تحدد، فإننا عندما نشم الورد بكل ما تحمله من عطر وهي في شبابها، فإننا نتحسس معنى العطر في نظرتنا للجمال، ولكننا لا نستطيع أن نعبر عنه كما أحسسناه وتذوقناه، وهكذا هي أحاسيس الرساليين بكل ما تحمله من صفاء وروحانية وانفتاح على الله ومحبة له، فإنها تدرك بالوجدان ولكن لا يمكن التعبير عنها بالقلم والبنان، ولهذا فإن ما بلغنا عن العظماء من مزايا وفضائل قد لا يمثل كل تطلعاتهم وآفاقهم وواقعهم، لأنهم لا يملكون الكلمات التي تعبر عن كل ما يجيش في نفوسهم، أو لأنهم لا يريدون البوح بهذه

المشاعر لتبقى لله وفي سبيله .

٢ - لم تعش لنفسها:

إن خلاصة حياة هذه الإنسانية العظيمة أنها لم تعش لنفسها طرفة عين أبداً، وإنما عاشت لأجل الرسالة، لأجل أبيها رسول الله (ص)، ولأجل زوجها أمير المؤمنين، ولأجل ولديها الإمامين الحسنين (ع) اللذين قال فيهما رسول الله (ص): «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١)، ولم تعش لهم قرابة فقط، ولكنها عاشت لهم رسالة، فقد أفنت حياتها في خدمتهم لأنها رأت في ذلك خدمة للإسلام، الذي كان أكبر همها وغاية جهدها ومبلغ علمها.

٣ - همّ الرسالة أولاً:

رغم ظلامه الزهراء (ع) الذاتية وما أسيء به إلى شخصها ما أوجب إيذاءها إيذاءً بالغاً، ورغم معاناتها الكثيرة وآلامها البليغة، فإننا نلاحظ في كل ما نقل عنها من مواقف وكلمات، أن ما كان يشغل فكرها وعقلها وقلبها هو القضية الإسلامية العامة المتمثلة بحق علي في الخلافة، هذا الحق الثابت بنص الغدير، وقد رأت أن مسؤوليتها الإسلامية تحتم عليها نصره الحق والوقوف مع علي بكل قوة. وهكذا كان، فقد تجاوزت كل آلامها ومعاناتها

(١) بحار الأنوار، ج: ١٦، باب: ١١، ص: ٣٠٧. مجمع البيان، ج: ٣، ص: ٧٦٣، وفيه ابناي هذان ...

الشخصية ووقفت لتخطب في المسلمين، ولتتحدث إلى نساء المهاجرين والأنصار، ولتتكلّم مع رجالهن، ومحور ذلك كله هو حق علي (ع) في الخلافة، من دون أن يكون لعلاقتها الشخصية - الزوجية والنسبية مع علي (ع) - أي دخل في كل مواقفها، وحتى مطالبتها بفدك جاءت في هذا السياق، فقد كانت فدك بوابة للخلافة ورمزاً لها كما ينقل ابن أبي الحديد المعتزلي عن بعض أساتذته، فالمطالبة بفدك مطالبة بالحق الشرعي ومواجهة لخطر الانحراف الذي بدأ بوفاة رسول الله (ص).

وأما قصة ذهابها إلى النبي (ص) برفقة الإمام علي (ع) - والتي تقدمت الإشارة إليها - للمطالبة بخادم يريحها من تعب أشغال البيت، فلم تكن هي المبادرة لذلك رغم أن هذا المطلب يعتبر مشروعاً وعادياً، وإنما جاء الطلب من علي (ع) رافة بها وشفقة عليها، وهذا يوحي أن مسألة الدنيا وحاجاتها الطبيعية لم تكن هدفاً أو أمراً ذا بال بالنسبة لها.

فرح الرسالة وحزنها:

وهكذا كانت شخصيتها تجسد الرسالة، فشجاعتها لم تكن انفعالية بل شجاعة رسالية، وحزنها - كما مر - كان حزن القضية والرسالة، وبكاؤها كان بكاءً إسلامياً، فعندما كانت تبكي رسول الله (ص) أو تحزن عليه، لم تكن تفعل ذلك حزناً على فقد محمد الأب بقدر ما كانت تبكي محمداً الرسول (ص)، هذا رغم أن أبوتها لها كانت من نوع نادر وعلاقتها به كانت علاقة حميمة وثيقة.

٤ - هم الناس من هم الرسالة:

وبعد اهتمامها الرسالي يأتي اهتمامها بالناس من حولها، بل إن اهتمامها بالناس كان جزءاً من رسالتها، وهنا تكمن قيمة الزهراء (ع)، لأن قيمتها ومنزلتها الرفيعة ليست في نسبها وإن كان شريفاً، ولا في عشيرتها أو غير ذلك مما يتفاضل به الناس ويتباهون به، بل قيمتها في القيم الإسلامية التي تجسدت فيها وحملتها ونادت بها، ومن أجل تلك انقيم وأرفعها أن يعيش الإنسان للآخرين قبل أن يعيش لنفسه، أن يحمل هموم الآخر ويحب له ما يحبه لنفسه ويكره له ما يكره لها، وهذا ما جسّدته سيدتنا الزهراء (ع) خير تجسيد، بل إنها كانت في المستوى الأعلى من ذلك، حيث إنها لم تكن تقاسم الآخرين ما عندها من نعم أنعم بها الله عليها، بل كانت تؤثر الآخرين على نفسها رغم ما بها من خصاصة وحاجة ماسة.

كانت ورغم أنها الأحوج للدعاء بأن يخفف الله عنها آلامها ومعاناتها، تستغل فرصة الليل - كما أسلفنا سابقاً - لتقوم لعبادة ربها والابتهاال إليه والصلاة له في جوّ عابق بالروحانية والطلب منه أن يقضي حوائج المؤمنين ويغفر ذنوبهم ويرفع درجاتهم ويحقق أحلامهم ويشفي مرضاهم، وتسميهم بأسمائهم فرداً فرداً، ويسمعها ابنها الإمام الحسن (ع) فيسألها: «أماه، لم لا تدعين نفسك؟ فتجيبه: يا بني الجار ثم الدار»^(١). أي علينا أن نفكر بالآخرين قبل أن نفكر بأنفسنا، ونتحسس آلامهم قبل أن نتحسس

(١) دلائل الزهراء، ص: ١١٤.

آلامنا ، فنعمل على أن نخفف آلامهم ونحقق أحلامهم وبعد ذلك ندعو أن يعطينا الله مثل ما أعطاهم ، هذا ما تريده لنا الزهراء (ع) ، فلعل الله بذلك يرحمنا عندما يرانا نعيش هذه الروحية الرسالية التي كان أهل البيت (ع) يعيشونها حتى نزل القرآن ليخلد فيهم هذه الميزة التي امتازوا بها عمّن سواهم ، فقال عز من قائل: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً * ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴿[الإنسان: ٨-١١] .

لقد أعطت فاطمة (ع) حبها للإنسان كله ، وارتفعت بهذا الحب إلى منزلة غدت معها غافلة عن آلامها لانشغالها بآلام الآخرين ، وما ذلك إلا لأن الروحانية التي عاشت في قلبها فاضت على خصوصيتها وأنسَتْ ذاتها ، ولأن الحب الإلهي الذي تملك قلبها امتدَّ بها إلى حب الناس كلهم ، لأنه من يحب الله لا يمكن أن يبغض أخاه الإنسان : «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»^(١) .

(١) بحار الأنوار ، ج: ٥ ، باب: ١٥ ، ص: ٣١٤ ، رواية: ٥ .

الفصل الرابع

■ خطبها ومواعظها

● التركيز على إمامة أهل البيت (ع)

● آداب شرعية وأخلاقية

● من أدعيتها

● حديث ضعيف

● خطبة الزهراء (ع) الشهيرة

● أقسام الخطبة ومواضيعها

التركيز على إمامة أهل البيت (ع)

لقد كان العمر القصير لسيدتنا فاطمة الزهراء (ع) مليئاً بالعطاء والحركة والحيوية وزاخراً بالمعنوية والدروس الكثيرة.

وإن من أعظم ما قدمته الزهراء (ع) وأثففت به الأمة الإسلامية على امتداد الزمن هو ما صدر عنها من خطب ومواعظ وحكم وأدعية...

فقد كانت سلام الله عليها خطيبة بارعة تتكلم في المسلمين بأبلغ ما يكون الكلام، وكانت معلمة ومدرسة لنساء المسلمين تعلمهن أحكام الدين وتبين لهن تعاليمه ومفاهيمه، وكانت محدثة عن رسول الله يأتيها النساء والرجال لتحديثهم مما سمعته من أبيها رسول الله (ص)، فيأخذون كلامها بكل اطمئنان، لأنها كانت الصادقة المصدقة، فقد قالت عنها زوجة أبيها عائشة: «ما رأيت أصدق منها إلا أباها».. كما مر سابقاً..

وفي هذا المقطع من الكلام نحاول أن نتدبر في بعض مواعظها وخطبها وكلماتها التي تحدثت بها، وسوف نرى أنها كانت في كل أحاديثها، تركز على قضايا المسلمين الكبرى وعلى تعاليم الإسلام وأحكامه وعقائده.

حديث الثقلين:

نرى في كثير من الخطب والكلمات المنقولة عن الزهراء (ع) تركيزها على قضية المسلمين الكبرى، وهي قضية الولاية والإمامة، فقد أشارت إلى ذلك في خطابها لنساء المهاجرين والأنصار والذي تقدمت الإشارة إليه، وسنلاحظ ذلك في خطبتها الشهيرة، وإليك كلمات أخرى لها في هذا المجال:

١- روى القندوزي في «ينابيع المودة» عن فاطمة الزهراء (ع) أنها قالت: «سمعت أبي رسول الله (ص) في مرضه الذي قبض فيه يقول وقد امتلأت الحجرة من أصحابه - لم يقله همساً ولا سراً بل علانية أمام أصحابه - :أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً يسيراً، وقد قدّمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إنني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجلّ وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي (ع) فقال: هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض، فأسألكم ما تخلفوني فيهما؟»^(١).

أي سوف أسألكم كيف حفظتم كتاب الله وكيف حفظتم علياً الذي يجسد كتاب الله ويحمله كما حملته، لأنه «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدي»^(٢).

قال القندوزي بعد أن روى الحديث الأنف: «وفي الصواعق المحرقة روى هذا الحديث ثلاثون صحابياً، وإن كثيراً من طرقه صحيح حسن»^(٣).

(١) ينابيع المودة، ج: ١، ص: ١٢٤.

(٢) صحيح مسلم، ج: ٤، ص: ١٨٧. والبحار، ج: ٢، باب: ٢٩، ص: ٤٨٦، رواية: ٣.

(٣) ينابيع المودة، ج: ١، ص: ١٢٣.

وعلى ضوء هذا الحديث يتضح:

أولاً: أن النبي (ص) لم يكتف بالتنصيص على أمير المؤمنين (ع) في غدير خم، بل إنه نصّ عليه كعدلٍ للقرآن وقادة للأمة في آخر لحظة من لحظات حياته، فإن هذا الموقف يمثل خاتمة المواقف التي كان رسول الله (ص) يقدم فيها علماً وأهل البيت (ع) على أنهم سفن النجاة التي تنجي الأمة من الضلالة وتعصمها عن الانحراف، لماذا؟

لأن علماً مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على النبي (ص) الحوض، ولأن علماً (ع) مع الحق والحق معه، فليس هناك مسافة بينه وبين الحق، بل إنه يمثل التجسيد الواقعي للحق كما يمثل الحق التجسيد الواقعي لكل منطلقات علي (ع)، ولذا فإن حارب علي (ع) فالحق يحارب، وإن سالم علي (ع)، فالحق يسالم، وإن نطق علي (ع) فالحق ينطق.

ولأن علماً (ع) يملك من العلم ما يستطيع أن يغني الساحة الإسلامية بكل ما تحتاجه من معارف وما يعترضها من تحديات تحتاج إلى أجوبة وحلول إسلامية، فهو باب مدينة علم الرسول (ص). وقد روى صاحب كنز الفوائد بإسناده عن الحسن بن علي عن فاطمة ابنة رسول الله (ص)، عنه (ص) قال: «أخبرني جبريل عن كاتب علي (ع) أنهما لم يكتبوا علي (ع) ذنباً مذ صحباه»^(١).

هذا ما ميّز علماً (ع) عن سائر أصحاب الرسول (ص)، وهذا ما حرّك فاطمة للدفاع عن حق علي (ع)، لا لأنه زوجها وابن عمها، بل لأنه المعصوم

(١) بحار الأنوار، ج: ٢٥، ص: ١٩٣.

الذي لم يستطع الملاك المصاحبان له أن يعثرا له على زلة أو معصية.

ثانياً: أن ولاية علي(ع) ليست حدثاً تاريخياً مضى وانتهى حتى يقال إن علينا أن لا نثيرها لأنها تترك تأثيرات سلبية على واقع المسلمين ووجدتهم، لأن المسلم عندما يرتبط بعلي(ع) فلا يرتبط به كخليفة في الإطار الزمني الذي عاش فيه فحسب، وإنما يرتبط به في إطار إمامته التي تقتحم الزمن، كما هي النبوة لا يحدّها زمن خاص، بل تتحرك في نطاق الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالإمامة التي تمثل خلافة عن النبوة لا بدّ أن تبقى مستمرة مع الزمن، لأنها تمثل القيادة المعنوية والثقافية للأمة والتي تعصم الأمة من الضلالة، وهذه القيادة يمثلها عليّ والأئمة المعصومون من ولده، وهذا ما نلاحظه من خلال الحديث التالي الذي حدّثتنا به سيدتنا الزهراء(ع) أيضاً.

هم مني وأنا منهم:

٢- وهو ما أورده في دلائل الإمامة بإسناده عن ربعي بن حراش عن فاطمة ابنة رسول الله(ص)، أنها دخلت على رسول الله(ص) فبسط ثوباً فقال اجلسي عليه، ثم دخل الحسن(ع) فقال اجلس معها، ثم دخل الحسين فقال اجلس معهما، ثم دخل علي فقال اجلس معهم، ثم أخذ بمجامع الثوب فضمّه علينا، ثم قال: «اللهم هم مني وأنا منهم، اللهم ارض عنهم كما أنا راض عنهم»^(١).

فقوله(ص): «وأنا منهم» يعني أن رسالة النبوة التي حمل رايتها(ص)

(١) دلائل الإمامة، ص: ٦٨.

يستمر آل البيت (ع) من بعده بحملها، وهكذا يكون الرسول باقياً بهم ومستمراً برسالته من خلالهم. وهذا سر رضاه عنهم، فإنه لا يرضى إلا عمّن يرضى الله عنه.

وهذا ما يؤكد لنا الحديث التالي الذي روته (ع) عن أبيها أيضاً.

عطاء الأنبياء:

٣- وهو ما أورده في دلائل الإمامة أيضاً بإسناده عن زينب بنت أبي رافع عن فاطمة بنت رسول الله (ص)، أنها أتت رسول الله (ص) بالحسن والحسين (ع) في مرضه الذي توفي فيه، فقالت: يا رسول الله إن هذين لم تورثهما شيئاً. قال: «أما الحسن فله هيبتي وسؤدي، وأما الحسين فله جراتي وجودي»^(١).

ومن الواضح أن الزهراء (ع) لم تطلب الإرث بمعناه المادي المصطلح، لأن هذا لا يكون في حياة المورث بل بعد موته، ولأن الزهراء (ع) الزاهدة القانعة بما قسم الله لها، والمؤثرة لغيرها على نفسها حتى نزل فيها وفي بعلمها وولديها قرآنٌ يخلد روح الإيثار عندهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً﴾. الزهراء هذه لم تكن تطلب من رسول الله (ص) وهو في مرضه مالاً لولديها، وإنما كانت تطلب توريثاً معنوياً، هدفت من خلاله تعريف المسلمين بمقام الحسنين (ع) من رسول الله (ص) وما يحملان من عناصر شخصيته (ص).

(١) دلائل الإمامة، ص: ٦٩. عوالم الزهراء، ص: ٦٨. كنز العمال، ج: ١٢، ص: ١١٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

آداب شرعية وأخلاقية

روى المحدثون روايات تتحدث فيها الزهراء (ع) عن بعض الأحكام الشرعية والتعاليم الإسلامية والمواظب الدينية.

١ - استحباب أن ينام الإنسان نظيف اليدين:

جاء في « الذرية الطاهرة » عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها عن فاطمة بنت رسول الله (ص) قالت: قال رسول الله (ص): « لا يلومن إلا نفسه من بات وفي يده غمر »^(١).

والغمر: ما يعلق باليد من دسم اللحم أو الشحم أو نحوهما.

فالرواية تؤكد على العناية بالصحة والنظافة. وهذا هو شأن الإسلام، فإنه اهتم بالصحة وأمر بالتداوي من الأمراض، لأن الذي خلق الداء خلق الدواء، واهتم بالنظافة وجعلها جزءاً من الإيمان.

(١) مسند فاطمة الزهراء (ع)، ص: ٥٨٢، نقلاً عن سنن ابن ماجه مع اختلاف بسيط.

٢ - تعاليم قبل النوم:

وفي «خلاصة الأذكار» عنها (ع) أنها قالت: «دخل عليّ أبي رسول الله (ص) وإني قد افترشت الفراش وأردت النوم، فقال: يا فاطمة، لا تنامي حتى تعملي أربعة أشياء: حتى تختمي القرآن، وتجعلي الأنبياء شفعاءك، وتجعلي المؤمنين راضين عنك، وتعملي حجة وعمرة. ودخل في الصلاة، فتوقفتُ على فراشي حتى أتمّ الصلاة فقلت: يا رسول الله أمرتني بأربعة أشياء لا أقدر في هذه الساعة على أن أفعلها، فتبسم رسول الله (ص) وقال: إذا قرأت: «قل هو الله أحد» ثلاث مرات، فكأنك ختمت القرآن - لأن القرآن ينطق كله بتوحيد الله في العقيدة والعبادة والطاعة، وهذا ما دلّت عليه سورة التوحيد - وإذا صليت عليّ وعلى الأنبياء من قبلي فقد صرنا لك شفعاء يوم القيامة - لأن الصلاة عليه وعلى آله وعلى الأنبياء من قبله تمثل الانفتاح على رسالتهم وحركيتهم الرسالية وتجعل المصلي عليهم يستذكر كيف عاشوا الرسالة وكيف أخلصوا لله وصبروا على الأذى في جنبه، فينفتح له بذلك باب واسع وعريض على الإيمان بالله ورسله وكتبه والتعمق في ذلك - وإذا استغفرت للمؤمنين فكلهم راضون عنك، وإذا قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقد حججت واعتمرت»^(١)، لأن قيمة الحج والعمرة أن يعرف الإنسان ربه أكثر، فيكبره ويهلّله ويحمده ويسبّحه أكثر.

(١) نقلاً عن: عوالم الزهراء، ص: ٥٨٠. مسند فاطمة الزهراء (ع)، التويسركاني ص: ٢١٨ - ٢١٩.

٣- خيار الناس:

٣- وفي «دلائل الإمامة» بإسناده عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها عن فاطمة بنت رسول الله (ص) قالت: «قال رسول الله (ص): خياركم أليّنكم مناكب وأكرمهم لنسائه»^(١).

يعني أن خير الناس من كان أرفق بالناس يخفض جناحه لهم ويلين معهم مناكبه، وخيرهم أكرمهم لنسائه، سواء كنّ بنات أو زوجات أو أمهات.

٤- المؤمن الحق:

وفي «دلائل الإمامة» للطبري - وقد تقدم - بإسناده عن أبي مسعود قال: جاء رجل إلى فاطمة (ع) فقال: يا بنة رسول الله، هل ترك رسول الله (ص) شيئاً عندك تطرفينه؟

ف قالت: يا جارية هات تلك الحرية، فطلبتها فلم تجدها، فقالت ويحك اطلبوها فإنها تعدل عندي حسناً وحسيناً، فطلبتها فإذا هي قد قممتها في قمّامتها، فإذا فيها: قال محمد النبي: ليس من المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت، إن الله يحب الخيّر

(١) دلائل الإمامة، ص: ٧٦. عوالم الزهراء، ص: ٦٢١.

الحليم المتعفف ويبغض الفاحش الضَّئِن السُّئال الملحف، إن الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، وإن الفحش من البذاء والبذاء في النار»^(١).

٥ - كل مسكر حرام:

وفي المصدر السابق بإسناده عن الحسين وعلي ابني موسى عن أبيهما عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عن فاطمة قالت: «قال رسول الله (ص): يا حبيبة أبيها: كل مسكر حرام وكل مسكر خمر»^(٢).

(١) دلائل الإمامة، ص ٦٦٠. وعنه مسند فاطمة، ص: ٥٨٥. وعنه عوالم الزهراء، ص: ٦٢٠.

(٢) دلائل الإمامة، ص: ٦٩.

من أدعيته

من أدعيته التي كانت تدعو بها في أوقات جلوسها بين يدي الله سبحانه قولها:

«اللهم قنّني بما رزقتني، واسترني». اجعلني يا رب في ما ترزقني قناعة، فلا أمدّ عيني إلى ما في أيدي الناس، ولا أطلع إلا إلى رزقك، واجعلني أصبر على ما رزقتني في نفسي، لأن الناس لا يصبرون عليّ، وأسدل عليّ سترك، لأن الناس لا يراعون الستر.

«وعافني أبداً ما أبقيتني واغفر لي». وامنحني العافية يا رب ما دمت حيّة، «واغفر لي ذنوبي»، والزهراء (ع) كانت معصومة عن الخطأ والزلل والسهو والنسيان، فلم ترتكب في حياتها ذنباً أو معصية ولو صغيرة، ولكنها مع ذلك تطلب من ربها غفران الذنوب لتربّي الناس على الاستغفار والتوبة.

«وارحمي إذا توفيتني»، وإذا جاءتنى الوفاة ولم يبق لي إلا أنت فارحم في ذلك البيت الجديد غربتي حتى لا أستأنس إلا بك.

«اللهم لا تعني في طلب ما لم تقدّر لي، وما قدرته عليّ فاجعله

مُيسِّراً سهلاً»: يا رب، لا تجعلني أتعب في السعي وراء ما تعرف أنني لن أحصل عليه من الحاجات لأنك لم تقدِّره لي، وما قدرته لي منها فاجعل مطلبه سهلاً ميسِّراً، ولا تجعله صعباً عسيراً.

«اللهم كاف عني والدي وكل من له نعمة عليّ خير مكافاة».

«اللهم فرّغني لما خلقتني له». لقد خلقتني لعبادتك وطاعتك وللقيام بمسؤوليات الحياة التي حملتني إياها، ففرّغني اللهم لذلك ولا تشغلني عن عبادتك وطاعتك وعن القيام بواجباتي.

«ولا تشغلني بما تكفّلت لي به». لا تشغلني بالرزق الذي تكفّلت لي به، وليس معنى ذلك أن لا تجعلني أعمل لتحصيل الرزق، بل لا تجعل ذلك همي الأكبر الذي يشغل فكري ويعطل طاقاتي.

«ولا تعدّ بني وأنا أستغفرك، ولا تحرمني وأنا أسألك». فإن استغفاري يمثل طلب العفو والرحمة منك، فلا تعدّ بني ولا تحرمني، والحال أنني أطلب منك المغفرة وأسألك أن تفيض عليّ من رحمته وبركاتك.

«اللهم ذلّل نفسي في نفسي». لا تجعلني يا ربي وسيدي أعيش الغرور والتكبر والاستعلاء على عبادك، بل اجعلني ذليلاً في نفسي، أمام عزّك وعظمتك.

«وعظّم شأنك في نفسي، وألهمني طاعتك والعمل بما يرضيك والتجنب لما يسخطك يا أرحم الراحمين»^(١).

(١) مهيج الدعوات، ص: ١٤١. ومسند فاطمة، ص: ٥٤٠.

حديث ضعيف

من الأحاديث المنسوبة إلى الزهراء (ع) الحديث التالي :

«خَيْرُ لِلنِّسَاءِ أَنْ لَا يَرَيْنَ الرِّجَالَ وَلَا يَرَاهُنَّ الرِّجَالَ»^(١).

وهذا الحديث لم تثبت صحته من ناحية التوثيق السندي لأنه مرسل^(٢)، فلا مجال للاعتماد عليه .

ولكن لو غَضَّينا النظر عن ذلك وسَلَّمنا بصحته السندية، فما هو المراد من الحديث، وهل يعتبر حكماً شرعياً ضابطاً للمرأة في حركتها داخل المجتمع ؟

للإجابة عن ذلك، لا بد لنا أن نشير إلى أنه من اللازم أن نفهم الكلمات التي تصدر عن أهل البيت (ع) وغيرهم ممن تنطلق كلماتهم في خط المسؤولية، وفق الطريقة البلاغية المتمثلة في الأسلوب الفني للتعبير في اللغة العربية . ويتحدث علماء البلاغة عن عدة أساليب، فهناك أسلوب التعبير عن

(١) وسائل الشيعة: ج: ٢٠، باب: ١٢٩، ص: ٢٣٢، من أبواب مقدمات النكاح وآدابه .

(٢) وقد أشار إلى إرساله السيد الخوئي في مستند العروة الوثقى، كتاب النكاح، ج: ١، ص: ٥٣ .

الأفكار بالألفاظ بلحاظ معانيها الحقيقية الموضوعية لها، وهناك أسلوب التعبير عنها بطريقة الكناية والمجاز.

وعلى ضوء ذلك، نحاول أن نفهم الحديث المتقدم المنسوب إلى سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) فنقول: إننا لا نفهم من هذا الحديث مجرد عدم الرؤية بالمعنى الحرفي للكلمة، بل نفهم منه الكناية عن عدم الاختلاط، لأنها لم تكن في مجال الحديث عن الحكم الشرعي الذي لا بد أن تخضع له المرأة في حياتها العامة في رؤيتها للرجال أو رؤية الرجال لها، حتى في ما يحلّ لها أن ترى من الرجال أو في ما يحل للرجال أن يروا منها، بل كانت (ع) في مقام إعطاء الفكرة العميقة التي تعالج مسألة الاختلاط بين الرجل والمرأة، باعتبار أن الاختلاط يمكن أن يؤثر سلباً على طهارة روحية المرأة تجاه علاقتها بالرجل، أو طهارة روحية الرجل تجاه علاقته بالمرأة، وذلك من خلال النتائج السلبية التي تشارك في اقتراب الطرفين من التجربة الصعبة من حيث المشاعر الحميمة والنظرات اللاهبة التي قد تتحرك من خلال الحالة الغريزية العفوية الموجودة لدى الرجل والمرأة، وتترك تأثيراتها السلبية على أخلاقية الرجل والمرأة في طبيعة ما توحى به النظرة من مشاعر وما تقود إليه من سلوك، ولعل الشاعر عبّر تعبيراً موحياً عن هذه المسألة في قوله:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وإن كان هذا البيت من الشعر قد يتجه اتجاهاً آخر، لكنه يمكن أن يعطي إيحاً معيناً، ويمكن في هذا المجال الاستيحاء مما ورد من الحديث الشريف

القائل: «أول نظرة لك والثانية عليك»^(١)، والحديث الآخر: «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم وكم من نظرة أورثت حسرة»^(٢)، أن الزهراء (ع) أرادت المعنى المجازي للرؤية، فكأنها قالت: إن المرأة إذا استطاعت أن تبتعد عن دائرة الاختلاط بالرجل بحيث لا يراها رجل ولا تراه فهو خير لها من خلال ما يتركه ذلك على النفس، إنها تعالج مسألة الاختلاط من خلال ما تريده من طهارة روحية في المستوى الأعلى من الطهارة للمرأة والرجل معاً.

ولكن هذا المستوى العالي من الطهارة، رغم أنه يمثل قيمة إسلامية أخلاقية كبرى من حيث الغايات الكبرى للكمال الإسلامي، لكنه لا يمثل تكليفاً شرعياً إلزامياً، فلا المرأة مكلفة شرعاً ومأمورة بأن لا تنظر إلى الرجل، ولا الرجل يحرم عليه النظر إلى المرأة في دائرة ما هو حلال من الرؤية والنظر بين الطرفين، لا سيما إذا كانت المسألة تعيش في دائرة ضروريات الحياة العامة أو ضروريات الجهاد السياسي والثقافي الذي قد يفرض على المرأة المسلمة أن تنطلق في دائرة حجابها الشرعي لتتحدث مع الرجال في ما يتعلق بالشؤون الرسالية، وهذا ما جرت عليه سيرة النساء المسلمات حتى الزهراء (ع)، فإنها على ما ينقل لنا تاريخها، كانت ترى الرجال وتحادثهم كما كان الرجال يرونها ويحادثونها، الأمر الذي يدل على أنه - الحديث - لو صح، فإنه يتحرك في دائرة الأخلاقيات العليا التي لم يكلف الإنسان بها، وإنما وضعت أمامه كقمة يتطلع إليها ويستوحى بها لتكون محفزاً له لاستسهال ما دونها من أحكام وتعاليم، والعمل بها.

(١) وسائل الشيعة، ج: ٢٠، ص: ١٩٤، حديث: ١٣، باب: ١٤ من مقدمات النكاح.

(٢) م: ن، ج: ٢٠، ص: ١٩٢، حديث: ٥١، من الباب نفسه.

خطبة الزهراء (ع) الشهيرة

روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه (ع): أنه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة (ع) فذكاً، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص)، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أنت أنه أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله (ص)، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت (ع):

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتّصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة

جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنّها بقدرته، وذرأها بمشيّته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبدّاً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نقمته، وحياسة لهم إلى جنته.

وأشهد أنّ أبي محمداً (النبي الأمي) (ص) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلاق بالغيب مكنونة، وبستر الأهويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمايل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع الأمور.

ابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد (ص) ظلّمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلّى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم.

ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار، ورغبة وإيثار،

فمحمد(ص) من تَعَب هذه الدار في راحة، قد حُفَّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صَلَّى الله على أبي، نبيّه وأمينه على الوحي، وصفيّه (في الذكر) وخيرته من الخلق ورضيّه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

ثم التفتت(ع) إلى أهل المجلس وقالت: «أنتم عباد الله نصبُ أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائداً إلى الرضوان أتباعه، مؤدّاً إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيّناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تركية للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام (وذلاً لأهل الكفر والنفاق)، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنمأة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن

شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله في ما أمركم به و(ما) نهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء».

ثم قالت: «أيها الناس اعلّموا أنّي فاطمة وأبي محمد(ص)، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تُعزوه وتعرفوه، تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه(ص)، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثَبَجهم، آخذاً بأخطامهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولّوا الدبر، حتى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهّث بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مدّة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلة خاسئين (صاغرين)، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد(ص) بعد اللّتي والّلتي، وبعد أن مني بهم الرجال وذئبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت

فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطاء صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجدداً كادحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوَكَّفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال.

فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفياه، ظهر فيكم حسكة (حسيكة) النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم.

هذا والعهد قريب والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يُقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فهيئات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجه لايحة، وأوامره واضحة، (و) قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بنس للظالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدرتها وتهيجون

جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء، ونصبر (ويصبر) منكم على مثل حَزّ المدى ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون؟ بلى، قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته.

أيّها المسلمون، أأغلب على إرثي؟ يابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً (على الله ورسوله)، أفعلني عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وورث سليمان داود﴾، وقال في ما اقتص من خبر يحيى بن زكريا (ع) إذ قال: ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، وقال (أيضاً): ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، وقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وقال: ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾، وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية (من القرآن) أخرج أبي (محمد) (ص) منها؟ أم تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشر، فنعم الحَكَم الله، والزعيم محمد (ص) والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم (ما قلتم) إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم».

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت (لهم): «يا معشر النقيبة وأعضاء الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميلة في حقي والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: «المرء يحفظ في ولده»؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد (ص)؟ فخطب جليل، استوسع وهذه واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتمكم، في ممساكم ومصبحكم، (يهتف في أفنيتمكم) هتافاً، وصراخاً، وتلاوة، وأحاناً، ولقبه ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكم فصل وقضاء حتم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

إيهأ بني قيلة، أهضم تراث أبي، وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت.

قاتلتهم العرب، وتحملتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتهم البهيم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحي الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج (والمرج)، واستوسق نظام الدين، فأئى حزتم بعد البيان؟ وأسررتهم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وهمّوا بإخراج الرسول، وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.

الأو قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتهم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتهم، ودسعتهم الذي تسوغتم، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد.

الأو قد قلت ما قلت هذا على معرفة مئى بالخذلة (بالجذلة) التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكئها فيضة النفس ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثّة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبيرة الظهر، نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلّع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون».

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان، وقال: يا بنت رسول الله! لقد كان أبوك(ص) بالمؤمنين عطوفاً كريماً، (و) رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، إن عزوانه وجدناه أباك دون النساء، وأخاك دون الأخلاء، أثره على كل حميم وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله(ص) الطيبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وإنني أشهد الله وكفى به شهيداً، أني سمعت رسول الله(ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة، ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا يحكم فيه بحكمه، وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح، يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجادلون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم أنفرد به وحدي، ولم أستبد بما كان الرأي عندي، وهذه حالي ومالي، هي لك (و) بين يديك، لا تزوى عنك، ولا ندخر دونك، وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع مالك من فضلك، ولا يوضع من فرعك وأصلك، حكمك نافذ في ما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك(ص)؟!

فقالت(ع): «سبحان الله، ما كان أبي رسول الله(ص) عن كتاب الله صادفاً ولا لأحكامه مخالفاً! بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره،

أفتجمعون إلى الغدر اعتلاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بُغي له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً، وناطقاً فصلاً يقول: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، ويقول: ﴿وورث سليمان داود﴾، فبيّن الله عز وجل في ما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظلي والشبهات في الغابرين، كلاً، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون».

فقال أبو بكر: «صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، ولا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت، غير مكابر ولا مستبدّ ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

فالتفتت فاطمة (ع) إلى الناس وقالت:

«معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبّرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها؟

كلّ، بل ران على قلوبكم ما أسأت من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأوّلتم، وساء ما به أشرتكم، وشرّ ما منه اغتصبتم! لتجدنّ والله محمله ثقيلاً، وغبه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه (من البأساء) والضراء، وبدا لكم من ربّكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون».

ثم عطفت على قبر النبي(ص) وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبئة	لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها	واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب
وكلّ أهل له قـربى ومنزلة	عند الإله على الأدين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم	لما مضيت وحالت دونك الترب
تجهّمنا رجال واستخفّ بنا	لما فقدت وكلّ الإرث مغتصب
وكنّت بدرأ ونوراً يستضاء به	عليك ينزل من ذي العزّة الكتب
وكان جبريل بالآيات يونسنا	فقد فقدت وكلّ الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا	لما مضيت وحالت دونك الكتب
إنّا رزينا بما يُرزى ذوو شجن	من البريّة لا عجم ولا عرب ^(١)

(١) من أقدم المصادر التي ذكرت خطبة الزهراء(ع) كتاب بلاغات النساء لابن طيفور، ص: ٢٣، والاحتجاج، ج: ١، من ص: ٩٧ إلى ص: ١٠٧، طبع مشهد المقدسة ١٤٠٣ هـ. وراجع مسند فاطمة، ص: ٥٥٧. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج: ١٦، ص: ٢١١، ٢٤٩. وعوالم الزهراء، ص: ٤٦٧، وبحار الأنوار، ج: ٤٣، ص: ١٤٨.

مناسبة الخطبة:

على إثر الأحداث المريعة التي شهدتها الساحة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأكرم (ص)، مثل قضية اغتصاب الخلافة والاعتداء على حق أمير المؤمنين (ع) وغصب فدك من فاطمة الزهراء (ع) والهجوم على دارها، وغير ذلك من الأحداث الأليمة، رأت الزهراء (ع) أن الواجب يفرض عليها أن تقف مع الحق وتقول كلمة الحق. وهكذا خرجت إلى مسجد النبي (ص) ووقفت أمام جموع المهاجرين والأنصار وخطبت بهذه الخطبة القيّمة.

سند الخطبة:

الظاهر أنه يمكن حصول الوثوق بصدور هذه الخطبة عن سيدتنا فاطمة الزهراء (ع)، لأنها مشهورة ومعروفة وذكرها المؤرخون القدامى، وقد كان أهل البيت والعلويون يتناقلونها كابراً عن كابر، ويعلمونها ويحفظونها لصبيانهم، ما يدل على أنها من المسلّمات عندنا، هذا مضافاً إلى أن متنها قوي ومتناسب مع المضمون الفكري الإسلامي.

مضمون الخطبة:

إن أهم المسائل التي ركزت عليها الزهراء (ع) في خطبتها هي:

- ١- أنها حددت موقفها من الأحداث الطارئة والحادثة بعد وفاة النبي (ص)، لاسيّما في ما يخص الخط الإسلامي الأصيل المتمثل بالإمامة الواعية الشجاعة المنفتحة على الله وعلى الناس والحياة من أوسع الأبواب،

والعميقة في فكرها الممتدّ مع الزمن، بحيث لا يكون له ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، لأنه فكر الإسلام وحديث الإسلام وهو فكر الحياة الخالد، وهذه الإمامة متمثلة بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

٢. اختصرت في خطبتها - التي هي محاضرة إسلامية تثقيفية غنية - أصول العقيدة بركنيها الأساسيين، وهما التوحيد والنبوة، فقد تحدثت عن صفات الله سبحانه وتعالى، ثم تحدثت عن رسول الله وخصاله ومعاناته في سبيل إنقاذهم من الغواية إلى الهداية، كما وتحدثت عن الإمامة ودورها في انتظام الأمة.

٣. تحدثت بشكل مستفيض عن أسرار التشريعات الإسلامية وحكمها وخصائصها.

٤. تكلمت عن الواقع الذي حدث بعد وفاة الرسول (ص) وكيف انحرف عن خط الاستقامة والمسار الذي خطه الله ورسوله، وتوجهت إلى الأنصار الذين أحاطوا برسول الله (ص) ونصروه لتؤجج مشاعرهم وتستنهض هممهم وتستنصرهم.

٥. دخلت في قضية إرثها من رسول الله واستحقاقها فدكاً، وناقشت المسألة مناقشة علمية تفسيرية بكل حجج القرآن ودقائقه وأسراره، ولم تناقشها مناقشة عاطفية، وإنما دخلت في الاحتجاج بالطريقة المميزة كامرأة عالمة واعية قوية في الحجج وصلبة في المواقف.

الصراحة الشديدة:

وقبل الدخول في شرح الخطبة مفصلاً، لا بد أن نشير إلى أن البعض

قد يلاحظ عندما يقرأ حوارات القدماء، ولا سيما في مجتمع الصدر الأول، أن الأسلوب كان قاسياً في القضايا الحيوية، بحيث إن كل واحد منهم يخاطب الآخر بالكلمات الصريحة الواضحة التي لا تغلف بالمجاملات أو ببعض الاعتبارات الاجتماعية. كما سنلاحظ ذلك في كلام الزهراء (ع). ويتساءل كيف يجرؤ هذا على ذلك وهو في موقع مميز، وكيف يجرؤ ذاك على هذا وهو في موقع مميز؟

والجواب أنه عندما تطرح القضية ويكون فيها موقفان، فإن صاحب الموقف الذي يرى الحق له يتكلم على أساس أنه لا يخاطب شخصاً ولكن يخاطب موقفاً ويخاطب رأياً ويخاطب اتجاهاً، مضافاً إلى أنه في الحق لا مجال للمجاملة، ذلك أن المجاملات والدبلوماسية والكلمات الضبابية إنما هي في العلاقات الإنسانية التي تتصل ببعض الأوضاع التي يعيشها المجتمع في خطوطه، أما عندما تكون القضية قضية إثبات حق ودحض باطل، فإن المجاملة تكون خيانة، وإن الاعتبارات الاجتماعية حينئذ لا تسقط الاعتبار الموضوعية العلمية، ولذلك كانوا يتكلمون بكل صراحة الحق الذي يعتقدونه. ومن المفارقات أن هذا الحق الذي يطرحونه بكل صراحة وبكل موضوعية لا يثير رد فعل اجتماعي سلبي، كما لو يتساءل البعض: كيف تتجرأ على هذا وكيف تتكلم مع هذا بهذه اللغة، لأنهم كانوا يعيشون المسألة في أجواء الصراحة في الحق، ولم تؤثر فيهم كل هذه الأساليب التي جاءت بها الحضارات من تغطية الحق بكلمة هنا وب عاطفة هناك.

ولذلك سنجد في خطبة الزهراء (ع) التي سنأتي على شرحها، وهي

تبين واقع المسلمين وتشير إلى نقاط الضعف وتجادل في إرثها عن رسول الله (ص) الذي أنكره الخليفة نتيجة حديث تفرد بروايته عن رسول الله (ص)، نجد أن الزهراء كانت تعنف في أسلوبها، ولكنها كانت تقدم القرآن حجة على ذلك، وعندما انتهت من خطابها وكانت تخاطب الخليفة والمهاجرين والأنصار، لم يقف شخص ليقول كيف تتجراين بهذا الكلام؟ لذلك علينا أن نعرف أن تلك المرحلة لم تكن مرحلة حديث غريزي ينطلق بالأحاسيس وبالمشاعر، بل كان حديثاً ينطلق من قوة الحق ومن الحجة على الحق. وهذا هو أسلوب القرآن في منهجه في الحوار.

الإسلام هو الأساس:

وعلى ضوء هذا، إذا استطعنا أن نصل إلى هذا المستوى من فهم التاريخ بحسب أساليب مرحلته، فإننا نستطيع أن ننتهي إلى نتائج حاسمة، أو أن نتفاهم على أساس أن نقرأ المسألة كفكر يواجه فكراً، وربما نستوحي هذه الروح الإسلامية في حركة الصراع، وهي أن الإسلام كان هو الأساس في ما يتحركون فيه، حتى على مستوى المواصلات والمقاطعة، فنحن نجد أن علياً (ع) - وهو صاحب الحق - عندما رأى أن مصلحة الإسلام في أن يجمد المطالبة بحقه - لا أن يتنازل عن حقه كما يقول بعض الناس - عاون بالرأي والمشورة في حل المشاكل وساعد في كثير من الحالات، لأنه كان يقول: «فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام

قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب،
فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهه»^(١).

ومن خلال ذلك، فإن أسلوبنا الذي نحرك فيه قراءة التاريخ وقراءة الكتاب والسنة هو أسلوب يغني الوحدة الإسلامية ولا يضعفها، لأن أسلوبنا في الوحدة الإسلامية هو أن نلتقي على ما اتفقنا عليه في مواجهة الذين يخالفوننا ويريدون أن يسقطوا الإسلام، وأن نتحاور بالتي هي أحسن في ما اختلفنا فيه، وأن لا تكون أفكارنا متحركة في الحوار من موقع غرائزنا، بل من موقع عقولنا الباحثة عن الحق أياً كان الحق. فلا مجال لأن يقال إنه يلزمنا التغاضي عن التاريخ لمصلحة الوحدة الإسلامية.

مقدمة الخطبة:

في مقدمة الخطبة نقرأ أن فاطمة (ع) كانت المرأة التي يتفاعل المجتمع كله معها.. كيف؟! تقول الرواية: «لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة فذكاً وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص)، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، (يعني ستاراً)، فجلست، ثم أنت أنتة أجهد القوم لها بالبكاء فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه».

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

أقسام الخطبة ومواضيعها

وسوف نجزئ خطبتها إلى عدة أقسام بحسب المواضيع التي تناولتها وركّزت عليها:

القسم الأول: التوحيد:

الحديث عن النعم الإلهية:

ثم قالت - ولاحظوا كيف انطلقت في خطبتها - : «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها».

تحدثت عن الله في نعمه، وتحدثت عن خط الشكر لهذه النعم، لتخلق في نفوس الناس هذا الانفتاح على الله من خلال الانفتاح على نعمه وعلى شكره، لأن الشكر يتمثل أعظم ما يتمثل بالطاعة لله والابتعاد عن معصيته

في كل شيء، ولأن دوام النعم واستزادتها يتوقف على شكر المنعم ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧].

فلسفة الشهادة:

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وهنا تحاول أن تفلسف كلمة الشهادة بالتوحيد، فتقول (ع): كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأثار في التفكير معقولها» لتوحي للناس أن هذه الكلمة عندما تنطلق من لسان الإنسان المؤمن، فلا بد لها أن تنطلق من عمق الإخلاص في كل ما ترمز إليه من معانٍ، وأن تعيش القلوب أسرارها وآفاقها وامتدادها في ما يتصل به الفكر بعضه مع بعض، وأن ينطلق التفكير في حركة عقلية من أجل أن يتعرّف على الأسس العقلية التي تثير في النفس عمق معنى التوحيد.

ثم تتحدث عن الله في صفاته بحيث يمكن القول إنها أعطتهم محاضرة في التوحيد: «الممتنع من الأبصار رؤيته» ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، «ومن الألسن صفته»، لأنه لا يدرك صفته أي مخلوق، ولا نستطيع أن نعرف من الله إلا ما عرفنا إياه مما تدركه عقولنا ومما أوحى به إلى أنبيائه ورسله، أمّا سرّ الذات وامتداد الصفات، فإن ذلك من الغيب الذي لا نملك أية وسيلة إليه، «ومن الأوهام كفيّته» والأوهام هي التعبير عن المناطق الإدراكية الموجودة في داخل الإنسان، فلا يمكن لهذه الأوهام أن تدرك كيفية الله، لأنه الغيب الذي لا يحيط به أحد من خلقه.

إبداع الخلق ومسألة الاستنساخ:

ثم انطلقت لتتحدث عن ابتداء الله للأشياء، عن خلق الله وإرادته، وذلك بالتفريق بين خلق لا مثال له وبين خلق يتحرك من موقع المثال، فقد نرى أناساً يصنعون أشكالاً وألواناً وأشياء، ولكن من خلال ما يتمثل أمامهم من نماذج، كما نرى الآن في واقع المكتشفين والمخترعين أنهم قد يصنعون شيئاً مماثلاً لخلق الله، لكنهم يصنعونه لا من موقع خلق القانون، ولكن من خلال احتذاء النموذج الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وهذا ما تحدثنا عنه أكثر من مرة عندما أثيرت مسألة الاستنساخ، وقلنا إن الذين استنسخوا الحيوان أو يريدون أن يستنسخوا الإنسان، لم يضعوا قانوناً جديداً، ولكنهم استهدوا بالقانون الذي جعله الله للتناسل، لأنهم اكتشفوا أن في البويضة (٢٣) كروموزوماً، وهكذا في النطفة، فكانت ولادة الكائن الحي من (٤٦) من الكروموزومات، وعلى ضوء هذا أخذوا خلية تشتمل على ٤٦ كروموزماً وفرغوا البويضة وأودعوا هذه الخلية في داخلها على نسق القانون الإلهي ولو بشكل آخر، فحصل الاستنساخ، لذلك هم لم يخلقوا قانوناً وإنما استهدوا ذلك القانون.

وبالتالي، فإن كل ما صنعه الإنسان في كل ما ابتدعه واخترعه لم يصنع قانوناً، لم يخلق العلماء والمكتشفون والمخترعون ولو قانوناً صغيراً، ولكنهم احتذوا القانون الإلهي في ذلك كله.

أما الله سبحانه وتعالى فهو الذي خلق الأشياء بلا نموذج سابق، وهو الذي قدّم للإنسان النموذج من خلال أنه هو الذي خلق النموذج، وهذا ما

عبّرت عنه سيدتنا الزهراء (ع) حينما قالت: «ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امثلها، كوّنّها بقدرته»، لأن قدرته هي التي أعطتها كل ما فيها من عناصر الوجود «وذراها - خلقها - بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها»، فإله عندما خلق الكون كله، إنساناً وحيواناً وظواهر كونية وما إلى ذلك، فإنه هو الغني في ذاته، لا حاجة عنده إلى ما خلق، فهو لم يصنع من موقع حاجة كما نصنع نحن من موقع حاجة، ولكنه صنع ذلك لأن حكمته أرادت أن تتمثل بذلك من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها «إلا تثبيتاً لحكمته»، باعتبار أن المخلوقات كلها بما تشتمل عليه من العناصر الدقيقة جداً التي وضع الله كل شيء منها في موضعه، والمخلوقات التي تتكامل في إنتاج الكائن الحي، أو في إنتاج الكائن النامي من النبات، أو في إنتاج الظاهرة الكونية، أو في إنتاج الذرات المائية والترابية، أرادها الله شاهداً لحكمته ودليلاً على عظمته، «وتنبيهاً على طاعته»، فالله سبحانه خلق هذا الخلق، فلقد خلق الإنسان بعقله، وخلق الحيوان بغيريته، وخلق الملائكة في ما أعطاهم من الخصائص، وخلق الجمادات في ظواهرها، ليعرف الإنسان أنه مخلوق لله، وأن لله عليه حق الخلق وحق الوجود، وبالتالي فعليه أن يطيع الله حق طاعته ويعبده حق عبادته «وإظهاراً لقدرته، وتعبدّاً لبريته، وإعزازاً لدعوته».

ثم إنه لم يرد من الناس أن يطيعوه بدون أساس، ولكنه تفضل عليهم بأن قدم لهم في الدنيا رسالة وقانوناً، ليكون الثواب والعقاب على أساس

إطاعة القانون أو مخالفته، وهذا ما عبّرت عنه سيدتنا الزهراء (ع) بقولها: «ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده عن نعمته، وحياسة لهم إلى جنّته». أي أنه حذّرهم من عقابه حتى لا يقعوا تحت نعمته إذا عصوه، ودعاهم إلى طاعته حتى يحوشهم إلى جنّته إذا أطاعوه.

و من خلال التأمل بهذه الكلمات القليلة القصيرة، نعرف أنها تتحدث عن فلسفة التوحيد في كلمة التوحيد، وتحدث عن عمق معنى التوحيد لله سبحانه وتعالى، ما يمكن للباحث أن ينطلق في كلّ من هذه الكلمات إلى أن يبدأ بحثاً فلسفياً يمكن للناس أن يتمثلوا من خلاله سرّ الخالق وسرّ المخلوق.

القسم الثاني: أسرار النبوة والبعثة والقرآن:

أسرار النبوة:

لقد تحدثنا عن القسم الأول من الخطبة المتعلق بالتوحيد، وها نحن الآن ندخل في القسم الثاني، فالزهراء (ع) تقول: «وأشهد أن أبي محمداً (ص) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباها، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة».

إنها تريد القول: إن قضية إرسال النبي (ص) هي قضية حدّد الله مسارها في وقتها قبل أن يخلق النبي، وإنّه تعالى إنما اصطفاه نبياً من

خلال ما يعرفه من عناصر الشخصية الكامنة في داخله عند خلقه، وهكذا ولد النبي (ص) ونبوّته ثابتة عند الله تعالى، ولكن فعلية هذه النبوة وحركتها كانت تنتظر الأربعين سنة لحكمة يعلمها الله في ذلك، فهو النبي في الدور الجنيني للنبوة قبل أن يكون جنيناً في بطن أمه.

وهكذا يقدر الله سبحانه وتعالى للحياة رسالتها ورسالتها وخطتها ونظامها وقوانينها قبل أن يخلقها، لأن كل شيء جاهز في علمه، ولكن عندما تتعلق إرادته بإيجاد الشيء، رسولاً أو رسالة أو نظاماً أو قانوناً، فلا يحتاج أكثر من كلمة كن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

عبودية النبي (ص) لله:

وهنا لا بأس أن نتوقف - ولو وقفة سريعة - عند قول سيّدة النساء (ع) عن أبيها «عبده ورسوله»، حيث نلاحظ التأكيد في الحديث عن الرسول (ص) أنه عبد الله قبل أن يُتحدّث عنه أنه رسول الله، وهذا أمر يشمل الذين اصطفاهم الله لنبوّته وإمامته ولولايتته، والسّر في ذلك أن عظمة الرسول (ص) في صفاته وعظمة الإمام (ع) في فضائله، إنما هي في عمق معنى العبودية لله وفي سعة حركة هذه العبودية، فعبوديته لله تتضمن عمق المعرفة به، بحيث إن الإنسان كلّما عرف الله أكثر أحسّ بعمق العبودية وسرّها في شخصيته أكثر.

وربّما كان هذا نوعاً من أنواع الإحياء بأن العبودية كانت أولاً، وبالعبودية اجتباه الله لرسالته، وربما يكون في ذلك إحياء للناس أيضاً أن

لا يأخذهم الغلوّ فيمن اجتباهم الله واصطفاهم، وأن لا يخرجوهم عن حدّ العبودية إلى حدّ الربوبية، لأن الله وحده استقلّ بالربوبية ولا يشاركه فيها غيره، فليس عندنا نصف إله وربّ إله، سواء كان ذلك بالاستقلال أو بالإذن، لأن الله لم يأذن ولم يقدر أن يكون غيره في الحياة إلهاً أو فيه شيء من الألوهية فيما تعنيه الألوهية وما تختزنه من صفات الجمال والكمال.

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اختاره وانتجبه قبل أن أرسله»

فقد كان في علم الله أن يختاره نبياً في الموقع الأسمى للنبوّة، «وسمّاه قبل أن اجتبا» أي قبل أن اختاره «واصطفاه قبل أن ابتعته، إذ الخلائق بالغيب مكنونة»، إذ لم يكن هناك أحد عندما اصطفاه الله وانتجبه واختاره وسمّاه، «وبستر الأهويل مصونة» وربّما يكون المراد من ستر الأهويل ستر العدم، باعتبار ما يلحق الأشياء من موانع الوجود وعوائقه، «وبنهاية العدم مقرونة»، لكن لماذا اختاره؟ ولماذا انتجبه؟ ولماذا قدر نبوّته قبل أن يخلقه؟ «علماً من الله بمآيل الأمور» في حاجاتها للرسالة وللرسول «وإحاطة بحوادث الدهور»، لأن الله أحاط بعلمه كل حركات الدهور في قضايها وأحداثها ووقائعها، فقدّر لها المخلوقين في أسرار خلقهم وأدوارهم وأوضاعهم وما حملهم من مسؤوليّة.

«ومعرفة بمواقع الأمور»، حيث إن الله تعالى يحيط بمواقع الأشياء

ويقدرها قبل أن توجد، ومن ذاك تقدير البعث الذي تحدثت عنه في الفقرة التالية.

سرّ البعثة:

«ابتعثه الله إتماماً لأمره»، لأنه تعالى اختاره في عالم الغيب نبياً، وأراد له في الأزل أن يكون رسولاً، ولذلك ابتعثه، «وعزيمة على إمضاء حكمه» في نبوته بكل مسؤوليتها وحركيتها، «وإنفاذاً لمقادير حتمه» أي ما حتمه، أو «لمقادير حكمه»، أو «لمقادير رحمته» حسب اختلاف النسخ وتعدد النقول، «فراى الأمم»، وهذا هو سرّ بعثة نبينا «فرقاً في أديانها» أي رآهم متفرقين، منهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد الكواكب، ومنهم من انحرف عن خط الرسالات التي كانت في صفائها ونقائها أول الأمر وعندما امتد بها الزمن انحرفت.

«عكفاً على نيرانها» يعكفون على عبادة النار كما هو شأن المجوس، «عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنازل الله بأبي محمد (ص) ظلمها»، فجاء الضوء والإشراق والنور الروحي من خلال النبي الذي تحول إلى أنوار متجسدة وقدوة يحتذى بها، وانطلقت رسالته تشع كالشمس إلى الإنسانية جمعاء، ومن هنا كان دوره في أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلو كان في عقله شيء من الظلمة، أو كان في قلبه شيء من الظلمة، أو كان في حياته شيء من الظلمة، فكيف يمكن أن يعطي النور وهو يعيش في الظلام؟!

«وكشف عن القلوب» والقلوب في المصطلح القرآني هي كل مواقع الإدراك والإحساس، فيمكن أن يُطلق القلب على العقل والقلب معاً، أي مكان

الإحساس، «بهمها»، أي كل مشكلات الأمور التي تعيش في عقل الإنسان، ويفقد الوضوح فيها لإبهامها عنده، أو التي تعيش في الجانب الإحساسي والشعوري للإنسان من التعقيدات العاطفية والإحساسية، فلقد جاء النبي (ص) من أجل أن يحلّ مشكلات العاطفة، كما يحلّ مشكلات العقل، «وجلّى عن الأبصار غممها»، والمراد ليس الأبصار المادية الحسية بل الأبصار الروحية ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦]، فقد يعيش بصر القلب في حيرة ولبس وعمى، فتأتي الرسالة من أجل أن تجلو هذه الحيرة وهذا اللبس، الذي يغمّ الإنسان ويحجب عنه وضوح الرؤية للأشياء.

«وقام في الناس بالهداية»، فإله تعالى أرسله هادياً إلى الناس كلّهم ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿[الأحزاب: ٤٥-٤٦]، «فأنقذهم من الغواية» إلى خط الرشده «وبصّرهم من العماية» إلى خط البصر والبصيرة «وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم»، فهذه هي العناوين التي تمثل الحاجة الواقعية إلى رسالته (ص) كما مثّلت حركيته في خط الرسالة.

بعد رحيله (ص):

«ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار» ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠]. وإنما قبضه قبض رافة لأنه (ص) نبيه الذي عاش كل حياته في طاعة الله

ومحبته، «ورغبة وإيثار» حيث إن النبي (ص) كان يرغب في لقاء ربه وكان يؤثر هذا اللقاء على الدنيا عندما خيّر بين الدنيا وبين لقاء الله.

«فمحمد (ص) من تعب هذه الدار في راحة» ولقد كانت سيدتنا فاطمة (ع) تنطق بهذا الكلام وهي تستعرض متاعبه وأذاه والمشاق التي عاشها، حتى قال: «ما أؤذي نبي مثلاً أؤذيت»^(١)، لقد كانت تستذكر كيف أن المشركين عطلوا - ولو قليلاً من الوقت - الخط الذي أراد له النبي (ص) أن ينفث على العالم كله، عطلوه بحروبهم وتعقيداتهم وكل مشاكلهم وأوضاعهم، وكيف كان يعاني من شركهم، وكان يتألم لهم، ولذلك كانت نفسه تذهب عليهم حسرات، وهي إذ تشعر بتعب أبيها في ما رأته وعاشته معه من تعب هذه الدار، تتصوره ينعم في جنات الله ورضوانه، ويعيش القرب من الذات المقدسة التي تغمره بالرحمة والمحبة واللفظ، وكانت تتحسس كل ذلك وتشعر به من خلال أن هناك ملكاً كان يحدثها عن أبيها ويحسن عزاءها بوفاته، ويطيب نفسها ويخبرها عن مكانه في الجنة كما جاء في بعض الروايات^(٢). «وقد حَفَّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي، نبيّه وأمينه على الوحي وصفيّه (في الذكر) وخيرته من الخلق ورضيّه».. إنها تتحدث عن أبيها في الصفات الأصيلة من شخصيته، حيث كان الأمين على وحي الله، لم يخنه

(١) مرّ ذكر المصدر.

(٢) مسند فاطمة، ص: ٢٨٠.

في أية زيادة أو نقصان، ولم يهن ولم يلن أو يتراجع في التحديات التي واجهته.

التذكير بالمسؤوليات:

ثم التفتت (ع) إلى أهل المجلس بعد أن انتهت من الحديث عن الله وعن بعثة رسول الله (ص)، وأرادت أن تعرّف المهاجرين والأنصار مسؤوليتهم لتقول لهم إنه لا يجوز أن يفتش كل واحد منهم عن ذاته أو عن عقده النفسية أو عن مطامعه، أو أن ينحرف عن الحق الذي يعرف، أو ينقض العهد الذي عاهد عليه الله ورسوله، كانت تريد لهم أن يفكروا في طبيعة مسؤولياتهم بين ما حملهم الله من مسؤولية وما يعيشونه من انحراف عن خط تلك المسؤولية.

وإني لأتصور الزهراء (ع) وهي تقف في شموخ الرسالة وعنفوان الموقف وكأنها تخاطبهم من المقام الأرفع والمكان الأعلى، لأنها كانت تشعر بأنها أمانة على خط رسول الله (ص)، فهي بضعة منه، ولأن عقلها كان عقله وروحها كانت روحه، ولأنها اندمجت به حتى صارت جزءاً منه، وهذا ما نستوحيه من قوله (ص) -والذي مرّ سابقاً-: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويريبني ما يريبها ويغضبني ما يغضبها»، فكأنه يتحسس في أذاها أذاه، وفي غضبها غضبه، وفي كل ما يريبها ما يريبه، لأنها جزء منه، فالكل يتحسس ما يتحسسه الجزء.

لذلك كانت الزهراء (ع) تشعر أنّ واجبها أن تقف أمامهم من أجل أن

تتحمل مسؤولية ما أودعه رسول الله (ص) عندها من فكر وعلم ومسؤولية، وكانت تتكلم معهم، وفيهم الشيوخ من المهاجرين والأنصار، معلّمة واعظة، ومرشدة ناقدة.

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه»، فأنتم واقفون أمام أمر الله ونهيه، فقد أراد لكم في نظم أمركم أن تطيعوا أمره فتفعلوه، وأن تطيعوا نهيه فتتركوه.

«وحملة دينه ووحيه»، فأنتم المهاجرون والأنصار الذين كلّفكم الله أن تحملوا وحيه ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾ [الأحزاب: ٣٩].

«وأمناء الله على أنفسكم»، فلقد جعل الله كل واحد منكم أميناً على نفسه، فيلزمه أن يصفّي نفسه ويزكيها ويثقفها ويحرّكها في الطريق المستقيم، وأن يواجه نفسه الأمارة بالسوء لتكون النفس اللوامة، ولتنتهي إلى أن تكون النفس مطمئنة الراضية المرضية.

إن الله تعالى - من خلال ما يستفاد من حديث سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) - جعلنا أمناء على نفوسنا، بأن تبّلغ نفسك - قبل أن تبّلغ غيرك - وحي الله وما يريده لها من الزكاة والتقوى، وكيف تكون عنصر خير وصلاح.

إنّ هذه الفقرة من الخطبة: «وأمناء الله على أنفسكم»، إذا عاشها

الإنسان فإنها تحمله إلى آفاق واسعة، وتحثه على أن يجعل النفس عنصر حق وخير وعدل وإنتاج وإبداع وعمل، وأن يعطي ذاته للحياة التي جعله الله أميناً عليها، بحيث إذا خرج من الحياة كان حاله كحال الفاكهة التي تعصرها حتى تفرغ كل نقطة من الماء فيها، فإذا رميتها رميت القشر الذي لا حياة فيه. وهكذا يخرج الإنسان من الحياة وقد استنفد كل طاقاته في خدمة الإنسان وطاعة الله سبحانه.

فالله تعالى يريد لنا في أمانتنا على أنفسنا أن ننتج أنفسنا وأن نعتصر كل ما فيها من فكر للحق، ومن قلب للمحبة والخير، ومن طاقة لحركة الحياة في جميع مجالاتها.

«وبلغاؤه إلى الأمم»، لأن الله أراد للأمة الأولى التي آمنت بالإسلام أن تكون الأمة المبلّغة الداعية إلى الإسلام، للأمم كلها.

تركة القرآن:

«وزعيم حق له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقيّة استخلفها عليكم»، وهنا دخلت في آفاق القرآن الذي يختزن الحق والعهد «كتاب الله الناطق» الذي ينطق دون أن تسمع صوته، لأن نطق القرآن في آياته يمثل عمق الصوت الإلهي العميق الذي عندما تحدّق فيه فإنك تشعر به همساً محبباً يدخل إلى عقلك وقلبك ليزكي عقلك ويطهر قلبك.

«والقرآن الصادق» لأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يعطي الحق والصدق في كل شيء ﴿جاء

بالصدق ﴿[الزمر: ٣٣] «والنور الساطع»، ﴿. . قد جاءكم من الله نور . . . ﴿[المائدة: ١٥]، «والضياء اللامع»، فقد جعله الله ضياءً لظلمات العقول والقلوب ليعطيها ضوء الحقيقة.

«بينة بصائرهم»، فهو الذي يعطي الإنسان البصيرة بكل وضوح ومن دون أي غموض، «منكشفة سرائره» في طبيعة الأفكار التي يثيرها والمناهج التي يحركها، «منجلية ظواهره»، فأنت عندما تقرأ القرآن تقرأه بكل جلاء، فلا غموض فيه ولا تعقيد «مغتبطة به أشياعه»، فالناس الذين هم شيعة القرآن وأتباعه يشعرون بالغبطة، لأن القرآن يبين لهم في كل آية يقرأونها علماً جديداً ويمنحهم روحاً جديدة ويقدم لهم خلقاً جديداً.

«قائداً إلى الرضوان أتباعه»، لأن الله يقول: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴿[المائدة: ١٦]، إنه يهدي الناس إلى رضوان الله وإلى مواقع وخطوط رضاه.

«مؤدّاً إلى النجاة استماعه»، لأن الإنسان إذا استمع إليه حق الاستماع، فجعل فكر القرآن فكره وروح القرآن روحه، فإن ذلك يقوده إلى العمل، وخاتمة العمل هي النجاة ﴿. . فبشر عباد *الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿[الزمر: ١٨، ١٧].

«به تنال حجج الله المنورة»، فإذا قرأه الإنسان وأراد أن يحتج على فكرة أو على ردّ فكرة أو على أية حقيقة في أي جانب، فإنه يستطيع أن يأخذ الحجة القوية الواضحة في مواجهة التحديات وشرح الحقائق والأفكار.

«وعزائمه المفسرة» في أنكاره وفي ما يختزن من الإرادة والعزيمة

والقوة، «ومحارمه المحذرة» التي حرّمها الله سبحانه وتعالى، والتي تحذّر الناس من الانحراف عن خط الحرام، لأن الله يحذّرهم عذاب جهنم «وبيّناته الجالية» البارزة، «وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة» التي ندب الله إليها وحثّ عليها عباده وأراد للإنسان أن يتحرك فيها وأن يأخذ بها، «ورخصه الموهوبة» التي وهبها الله لعباده في ما رخص لهم من الأمور من أجل أن يعيشوا في فسحة وراحة أمام ما حرّمه وما أوجب عليه عليهم، «وشرائعه المكتوبة» التي فرضها الله تعالى على الناس.

القسم الثالث: أسرار التشريع الإسلامي ومراميه:

ثم انطلقت لتتحدث عن بعض التكاليف العقيدية والشرعية وعن بعض الجوانب التي تعمق للإنسان أخلاقيته وروحانيته وتجعل منه إنساناً صالحاً، بحيث يكون خيراً للإنسان كله وللحياة كلها، وكأنها تريد في ما تحدثت عنه من أسرار هذه العناوين الإسلامية، أن توحى للناس أنه على الإنسان أن يأخذ الإسلام في العمق ولا يأخذه في السطح، بحيث إن الالتزام بأية مفردة من مفرداته يفرض الالتزام بالسّرّ الكامن في داخل هذه المفردة العقيدية وتلك المفردة الشرعية، بحيث يثقف الإنسان نفسه - وهو يلتزم هذه الالتزامات الإسلامية - بمعانيها وأهدافها وأسرارها، حتى يتحرك في ساحة العمل من خلال ثقافة الإسلام في عمق معانيه وأسراره.

الخروج عن جمود الممارسات:

وبهذا يمكننا أن نخرج عن الجمود الطاغى على ممارسات الناس

للإسلام عقيدة أو عملاً من دون أن يتفهّموا معانيه وأسراره، فهم يتحركون بالإسلام من الخارج ولا يتحركون به من الداخل، والله يريد لنا أن يكون إسلامنا إسلام العقل والقلب والروح والإحساس والشعور قبل أن يكون إسلام الممارسة العملية الخارجية الشكلية، لأن قصة الإسلام تتحرك في جذورها من الداخل ثم يكون الخارج - لساناً كان أو عملاً - مظهراً للداخل، وهذا هو الذي يلزمنا، كمرشدين وموجهين ومبّلّغين، أن نعطي الناس الفكرة عن كل حكم يلتزمونه وعن كل خط ينتهجونه.

أسرار الأحكام الشرعية:

وإننا هنا لا نتحدث عن علل الأحكام حتى يقول القائل بأننا قد لا ندرك العلل الحقيقية الواقعية للأحكام، ولكننا نتحدث عن فوائدها، وعن أسرارها وحكمها، وعن معانيها التي يمكن لنا أن نبلغها من أجل أن نعطي العمل حيوية وحركة ونعطيه معنى أو تفسيراً يقبله الآخرون، وبذلك يكون تفاعلنا مع العمل والعبادة أكثر، وتجاوب الآخرين لقبول الإسلام وتفهمه أكثر.

فلنستمع إلى الزهراء (ع)، ولننصت إلى ما بقي من خطبتها التي ألقتها على كبار رجال المهاجرين والأنصار في مسجد رسول الله (ص)، وإذا عرفنا أن كلامها كان يشبه كلام رسول الله (ص)، وأن منطقتها كان يشبه منطق رسول الله (ص)، فإننا نستوحي من ذلك أن المسلمين عندما سمعوها فكأنهم سمعوا رسول الله (ص)، ولهذا تقول الرواية: «إنهم أجهشوا بالبكاء»، كما تقدم.

الإيمان تطهير من الشرك:

«فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك»، لأن الإيمان يمثل توحيد الله الذي يوحى للإنسان بالنظرة الصافية للكون كله، فالتوحيد لا يمنحك الإحساس بوحداً خالق فحسب، ولكنه يمنحك الإحساس بوحداً الذي يركز الكون كله عليه، سواء كان كوناً جامداً أو نامياً أو حياً، باعتبار أن الله سبحانه وتعالى أودع في عمق الوجود الكوني الإنساني والنباتي والحيواني سرّاً، بحيث إن أصغر ذرة تساوي في حركة نظامها الداخلي أكبر مظهر من مظاهر الحجم الكبير، فلا فرق بين أصغر ذرة في نظامها وبين الجبال والسموات والأرض، فالله سبحانه وتعالى، عندما خلق الكون أقامه على قانون الزوجية في كل ظواهره ومواقعه.

ومن هنا، فإن الإنسان عندما يؤمن بتوحيد الله، فإنه لا يعيش الازدواجية في التوحيد ولا في العبادة ولا في الطاعة ولا في النظرة إلى الكون، بل إنه يعيش التوحيد لربه والوحدة في ذاته وفي الوجود كله، ليشعر أن الوحدة تمثل الانسجام بين الخالق والمخلوق، باعتبار أنها تتحرك في خط واحد وتنطلق من قاعدة واحدة. هذه نقطة أولى.

وهناك نقطة ثانية، وهي أن الإيمان يمثل الوسيلة التي يتطهر بها الإنسان من الشرك، باعتبار أن الشرك يمثل الفكر المتخلف الذي لا يركز على أساس، لأن الذين يدعونهم شركاء لله لا يملكون من معنى الألوهية شيئاً، فهم بين ما لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ولا يغني شيئاً، وبين من قد يسمع ويبصر ولكنه لا يملك نفسه فضلاً عن غيره.

لذلك فإن الشرك يمثل وحل الفكر وقذارته، لأنه يقذّر وينجس للإنسان تصوره وروحه، عندما يطلق روحه ويحركه ليسجد أمام شيء جامد، والروح لا يمكن أن تحتضن في مشاعرها وأحاسيسها وأفكارها شيئاً جامداً لا نبضة فيه من حياة ولا مظهر للقوة فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، والمراد من النجاسة هنا النجاسة المعنوية، باعتبار أن فكر الشرك هو فكر القذارة والنجاسة، فلا يتناسب دخول المشركين إلى المسجد الحرام مع التوحيد الذي أقام إبراهيم وإسماعيل قاعدته عليه وهي الكعبة الشريفة.

ولذلك، فالإنسان عندما يؤمن بالله الواحد، فإن إيمانه لا ينقذه فقط من النتائج السلبية على مستوى الآخرة، ولكن إيمانه ينقذ حياته على مستوى الدنيا أيضاً، لأنه يطهر عقله وقلبه وروحه من الوحول الفكرية والشعورية التي يمثلها الشرك في الداخل.

الصلاة تنزيه عن الكبر:

«والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر»، وهنا تتحدث فاطمة الزهراء (ع) عن الصلاة من حيث إنها وسيلة من وسائل إحساس الإنسان بحجم ذاته أمام ربه وإحساسه بحجم ذاته أمام الناس الذين يعيش معهم، وأمام الوجود الذي يتحرك فيه، لأن المصلّي عندما يفتتح على الله في صلاته فإنه يبدأ صلاته بثناء (الله أكبر)، فيتحسس معنى (الأكبر) في ربه الذي لا يدانيه شيء، ولا يماثله في حجم الذات والعلم والقدرة والرحمة والحكمة موجود

أبداً، وهذا ما يجعله متواضعاً في نفسه بعد أن اكتشف حجمها.

كما أنه يمارس بشكل طبيعي هذا التواضع أمام الله عندما يقف بين يديه في موقف تسليم مطلق له ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

ويعلم التواضع أيضاً عندما يركع ليتحدث عن مواقع عظمة الله في قوله: «سبحان ربي العظيم وبحمده»، ليتصور نفسه في موقع الصغار أمام عظمة الله، وهكذا يمارس التواضع لله - إلى حد الانسحاق - في سجوده، ليتصور الله على أنه هو الأعلى في ذاته وفي صفاته وفي كل ما يتمثل فيه، وأنه هو المصلي الساجد الأسفل أمامه، فلا علو له أمام الله، فكما أن الله هو الأعلى المطلق فهو الأسفل المطلق، وكما أن الله هو العظيم المطلق فهو الضعيف الصغير المطلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ - فِي كُلِّ شَيْءٍ - وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ - فِي كُلِّ شَيْءٍ﴾ [فاطر: ١٥] .

فإذا تمثل الإنسان ذلك في صلاته من خلال كلمات الصلاة وأفعالها، عاش الإحساس بالعبودية لله والتواضع إلى حد الانسحاق بين يديه تعالى، وفي الوقت نفسه يشعر، وبوحي من الصلاة، بالحرية أمام الناس كلهم، لأنه عندما يعيش في صلاته إلى جانب كل المصلين ويقول «الحمد لله رب العالمين»، يشعر أن الله وحده هو رب العالمين جميعاً، وأن العالمين متساوون أمام الله، فليس هناك ربّ لعالم دون عالم، سواء كان عالماً جامداً كالشمس والكواكب والقمر وما إلى ذلك مما جعله الناس في مستوى الإله، أو كان عالماً نامياً وحساساً كما في عالم البشر والحيوان، وهذا ما عبّر عنه القرآن

الكريم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْمَالِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وكما ورد في نداء المسلمين لأهل الكتاب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقد يتميز إنسان عن إنسان بدرجة ما كما يتميز الأنبياء والأئمة في درجات الفضل ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكما يتميز الأولياء على أساس التقوى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢]، ولكن يبقى الجميع في موقع العبودية ويتساوى الجميع في أنهم عبيد الله، وغاية الأمر أن هناك من هو أكثر معرفة بالله، وأن هناك من هو أكثر طاعة له وقرباً منه، فهم يتساوون في العبودية وإن اختلفوا في درجاتها، ولذلك كلما انطلقت في صلاتك لتتحدث عن الله رب العالمين، فإنك تشعر بالتساوي مع الناس كلهم في العبودية لله سبحانه، وإذا أطلقت كلمة العالمين على العوالم كلها، فأنت تشعر أنك مع العوالم كلها، مخلوق لله ومربوب له وأنه ربك وخالقك ومدبر أمورك، وبذلك تتواضع، لأنك تعرف أن حجمك مهما كبر لا يرقى إلى أن تكون رباً لأي إنسان أو رباً لأي ظاهرة كونية.

وهذا ما عبّر عنه - خير تعبير - الإمام زين العابدين (ع) الذي عاش مع الله حياته كلها في سره وعلا نيته، عاشه في كلماته وابتهالاته ومواقعه كلها، واستطاع أن يترك لنا ثروة توحيدية إسلامية ثقافية أخلاقية روحية، أعني بذلك (الصحيفة السجادية) التي أطلق عليها لأهميتها وتنوع مضامينها أنها زبور آل محمد (ص)، فقد كان (ع) عندما يدعو الله في الصباح والمساء

يقول: «أصبحنا - أو أمسينا - وأصبحت - أو أمست - الأشياء كلها بجملتها لك، سماؤها وأرضها وما بثثت في كل واحد منهما، ساكنه ومتحركه، مقيمه وشاخصه، وما علا في الهواء وما كنّ تحت الثرى، أصبحنا - كلنا، كل هذه العوالم وكل هذه الظواهر - في قبضتك، يحوينا ملكك وسلطانك، وتضمّننا مشيئتك، ونتصرف عن أمرك، ونتقلّب في تدبيرك، ليس لنا من الأمر إلا ما قضيت، ولا من الخير إلا ما أعطيت»^(١). وهكذا يتمثل الإنسان في صلاته كيف يكون متواضعاً أمام ربه، ومن خلال تواضعه لربه يتواضع للناس كلهم، لأنه يشعر أنهم معه مربوبون لله.

ولذلك من صلّى دهره وبقي في قلبه شيء من الكبر، أو بقي في حياته حركة كبر، فإن صلاته لا قيمة لها «فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً»^(٢)، لأن «الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر» [العنكبوت: ٤٥]. وفي الحديث عن علي (ع): «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر، حبذا نوم الأكياس وفطرمهم»^(٣).

وعليه، فإن الإنسان عندما يصلي لا بد أن يعيش في حالة طوارئ أخلاقية وروحية، بحيث تغير صلاته كل ما في داخله من انحرافات، لأن

(١) الصحيفة السجادية الكاملة: أدعية الإمام السجاد علي بن الحسين زين العابدين، دعاؤه عند الصباح والمساء، ص: ٦٧، منشورات دار الأضواء.

(٢) البحار، ج: ٨٢، باب: ١، ص: ١٩٨.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٤٥.

وقوفك - أيها المصلي - أمام الله يمثل كل هذا الفيض الروحي الذي يفيض على قلبك وعلى روحك، ولأن عبادتك لله تعلّمك كيف تكون متواضعاً.

وهذا ما عبّر عنه الإمام علي(ع) في (دعاء كميل): «وفي جميع الأحوال متواضعاً». لاحظوا قوله (ع): «في جميع الأحوال»، يعني أن لا تفقد التواضع في نفسك وفي بيتك وفي مواقع عملك ونشاطك، فتكون المتواضع في الأحوال كلها.

ومن الطبيعي أن ذلك يحتاج إلى تربية، لأن الكبر مرض خطير، فهو الذي أخرج إبليس من الجنة، وهو الذي يسقط الإنسان من عليائه، ولأن الكبر رداء الله، فمن ارتدى رداء الله أسقطه الله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان الصوم في السنة مرة والحج في العمر مرة، لكن الصلاة فرضت في اليوم خمس مرات واجبة، ولو فرضنا أننا جئنا بالنوافل، نوافل الليل والنهار، وجئنا بالمستحبات الأخرى، فحينئذ يكون الإنسان في حالة طوارئ صلاتية، تعلّمه التواضع أمام الناس من خلال تواضعه لله.

الصلاة خير موضوع:

وفي الحديث: «الصلاة خير موضوع، فمن شاء استقلّ ومن شاء استكثر»^(١). لماذا؟

لأن دور الصلاة - إضافة لكونها عبادة - هو دور تثقيفي تربوي،

(١) ميزان الحكمة، ج ٥، ص ٣٦٨، محمد الريشهري، دار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٥ م.

فالصلاة مدرسة تريد أن تطوِّق الإنسان من جميع الجهات، لا سيَّما إذا أراد أن يفرِّق في الصلاة، كما على رأي بعض المذاهب، لأن التفريق لديهم إلزامي، أو على رأي الشيعة بأن التفريق هو الفضل، وإن صار الالتزام بالجمع هو المنتشر خارجاً في الأوساط الشيعية، فإنك عندما تستفيق من النوم يقول الله لك: عليك أن تقابلني أولاً، قف أمامي وقدم حساب يومك، فتقف وتصلي قربة إلى الله تعالى، ومعنى ذلك أن تقول لله إنني أريد أن أصلي وأكون قريباً منك بعقلي وقلبي وروحي وعملي، فأنت تقرأ صلاتك وتنطلق إلى الحياة من منطلق الصلاة، بعد أن تكون قد أعطيت الله عهداً على أن يكون يومك يوم التقرب إلى الله، لأنك أعلنت له أنك تريد أن تتقرب إليه من خلال نية القربة، وأعلنت له أنه الأكبر وأنه رب العالمين وأنه العظيم وأنه الأعلى، فالمفروض أن يسير يومك في هذا الطريق.

ثم بعد ذلك إذا ذهبت واشتغلت وانطلقت في همومك وأعمالك واستغرقت في مشاغل الحياة فإنك ستحتاج إلى فترة استراحة، فيأتيك صوت المؤذن لصلاة الظهر ليذكرك ويدعوك إلى الاستراحة الروحية، كما هو حال الطلاب في المدرسة، حيث ينشغلون باللعب في الملعب وينسون الدرس، وحين يدق الجرس فإنه يشعرهم أنهم لا يزالون في المدرسة، وهكذا يأتي الأذان (الله أكبر) كيما يذكر الإنسان أنه لا يزال في محضر الإله، ويدعوه كي يتخفف من أوزاره بعدما غرق في مشاغل الحياة فغفل عن الله أو عصاه، فيدعوه ليرجع من جديد ليقول: أصلي صلاة الظهر قربة إلى الله تعالى، وهكذا ما بين الظهر والعصر، وما بين العصر والمغرب وبين المغرب

والعشاء، وقد تمتد القربة إلى صلاة الليل، فإله يريد أن يحيط الإنسان بحزام روعي، فما إن يهرب ويأخذه الشيطان حتى تأتي الصلاة وترجعه إلى الجادة، وهذا هو دور الصلاة؛ إنها تمثل العمل العبادي الذي يلاحق الإنسان ليربطه بالله، بحيث يحس بوجوده سبحانه وتعالى كما لو كان أمامه، وليربطه بالناس على نحو يتحمل مسؤوليته إزاءهم، فكلما أراد الشيطان أن يبعدك عن ربك جاءت الصلاة لتقربك إليه، ومن يقترب من الله فلا يمكنه أن يبتعد عن خلق الله. ولذلك فإن مسألة تربية النفس ومجاهدتها وتهذيبها وتوعيتها هي من المسائل اليومية، بل تدور على مدار الساعة، وقد أراد الإسلام لها أن تُعالج بالعبادة اليومية التي تحيط الإنسان في كل يومه ليلاً ونهاراً، كما يحيط الحزام بالجسم، فلا يفلت لأنه يعيش حزاماً روحياً يستطيع أن يجعله في دائرة الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة أنه قد شرّعت «الصلاة تنزيهاً من الكبر»، لأنها هي التي تخلق روح التواضع عند الإنسان بسبب تواضعه العملي أمام الله سبحانه، ومن خلال تواضعه لله وشعوره بعبوديته له، وبأنه يتساوى مع الناس في العبودية، يشعر بأنه لا بد أن يتواضع للناس كلهم.

الزكاة تزكية ونماء:

«والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق»، هنا عالجت الزهراء (ع) الزكاة من خلال نتائجها الروحية والمادية، لأن نتائج الزكاة الاجتماعية أمر لا يحتاج إلى شرح وبيان، باعتبار أنه لا إشكال بأن الزكاة تمثل حلاً احتياطياً لمشاكل الإنسان في حاجاته، فالزهراء (ع) لم تتحدث عن الزكاة من خلال

نتائجها الاجتماعية، لأن النتائج الاجتماعية للزكاة هي أمر واضح بَيِّن، بل أرادت أن تتحدث عن الزكاة في نتائجها الروحية والمادية في حياة الإنسان المزكِّي، على أساس أن المطلوب تشجيع الإنسان على الزكاة من خلال بيان النتائج العملية التي تعود عليه بالنفع.

ولذلك تحدّثت (ع) عن هذا الجانب كما تحدث القرآن عن الزكاة في جانبها الروحي وتأثيرها على روحية الشخص المزكِّي، كما في الآية الكريمة التي تقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإله تعالى أراد للنبي (ص) أن يبيِّن للناس الذين يأخذ منهم الزكاة، أنها لا تمثل مجرد حركة مادية في العطاء، ولكنها تمثل ارتفاعاً في روحية العطاء، بحيث يشعر الإنسان بطهارة نفسه عندما تنفتح على إيثار الإنسان الآخر المحروم، وعندما تنفتح على حاجاته وعلى آلامه قربة إلى الله، فتحقق للمعطي نوعاً من تزكية النفس ومن طهارتها. وسيدتنا فاطمة (ع) لما قالت: «الزكاة تزكية للنفس» كانت تستهدي الآية المتقدمة.

وهكذا كانت (ع) تستوحي القرآن في الفقرة الثانية: «ونماءً في الرزق» فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعَفُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٩]، باعتبار أن المزكي عندما يعطي قرشاً فإن الله يضاعف له ذلك أضعافاً مضاعفة، والله يضاعف الأشياء بدرجات متفاوتة ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١].

الصوم تثبيت للإخلاص:

«والصيام تثبيتاً للإخلاص»، فأن تصوم هو أن تعمق إخلاصك لربك، وأن تعيش في داخل نفسك روح التقوى وتقوي إرادتك بالانفتاح على الله سبحانه وتعالى بدل أن تقويها بالأسباب المادية، لأن هناك فرقاً بين شخص يقوم بأعمال تقوي إرادته بالطريقة المادية، كالذي يتدرب بالأساليب المتعارفة للتدريب الجسدي، أو يريد أن يخفف وزنه فيقوم بالأعمال الرياضية المناسبة لذلك، وبين شخص يقوي إرادته بين يدي الله ويتدرب أمام الله وفي سبيله.

ففي الثانية أنت تصوم عن طعامك وشرابك وشهواتك قربة إلى الله تعالى، وتمارس ذلك في رقابة الله التي لا تقارنها رقابة الناس، وفي الأولى أنت تفعل ذلك رياء الناس، ولكي لا يثقلك الناس بكلماتهم الجارحة ونحوه من الدوافع الذاتية، وهذه السريّة هي التي ميّزت الصوم عن الصلاة، لأنه في الصلاة قد يراكم الناس وأنت تصلي، أما في الصوم فالعملية سرية غالباً لا يطلع عليها إلا الله، ولذا جاء في الحديث: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(١)، ذلك أن الصوم لا يتحقق الرياء فيه إلا إذا نطق به الإنسان، لماذا؟ لأن الصوم هو حركة حرمان الجسد بشكل صامت من خلال الحالة الروحية الموجودة في الداخل.

لذلك نلاحظ أن الله يتحدث عن الصوم بأنه وسيلة التقوى ﴿يَا أَيُّهَا

(١) البحار، ج: ٩٦، باب: ٣٠، ص: ٢٥٨، رواية: ٤١.

الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿البقرة: ١٨٣﴾، ومن الطبيعي أن التقوى تحتاج إلى إرادة، فتقوى الفكر - مثلاً - تحتاج إلى إرادة، فعندما يغريك الشيطان بأن تحرك فكرك في التخطيط للشر، لأن هناك منافع آنية ودنيوية في التخطيط للشر، تحتاج - عندئذ - إلى إرادة إيمانية قوية تمنعك من ذلك.

وكذلك تقوى العاطفة، عندما يجذبك الشيطان من أجل أن تتحرك في عاطفتك لتحب من أبغضه الله أو لتبغض من أحبه الله نتيجة بعض العوامل والمصالح، فتحتاج إلى إرادة تضبط مشاعرك وأحاسيسك وتجعلها تتحرك في الخط المستقيم.

وهكذا بالنسبة إلى تقوى العمل عندما يتحرك الإنسان في الحياة، وفي هذه النقطة يلتقي دور الصوم بدور الصلاة ولكن في جانب آخر، حيث إنه - أي الصوم - يحقق للإنسان الإرادة النابضة بالروح والمرتكزة على الانفتاح على الله، فكأنك تقول لربك في صومك: يا رب إنني أصوم من أجل أن أحقق لنفسني في هذا الصوم الصغير القوة على الصوم الكبير، لأن الله سبحانه وتعالى فرض علينا في شهر رمضان أن نصوم عن بعض ما اعتدناه في النهار وهو الصوم الصغير، وفرض علينا في العمر كله أن نصوم عن المحرمات كلها، وهو الصوم الكبير، وهذا هو هدف الصلاة وغايتها، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

والحاصل أن الله جعل هذه الثلاثين يوماً فترة تدريبية في حضرته، أي أنه يراقبك وأنت تتدرب، والذي يتدرب أمام الله، فمن الطبيعي أن يكون

تدريبه مركزاً، ولا بد أن يعمل على النجاح في هذه الدورة التدريبية، لاسيما إذا عرف أن دور الصوم مستقبلي وليس دوراً يتحرك في الحاضر فقط.

وهذا ما أرادت الزهراء(ع) أن تنبّه عليه بقولها: «والصيام تثبيتاً للإخلاص»، لأنه يصفّي روح الإنسان أمام الله، بحيث تنطلق التقوى من عمقه، فلا يكون فيه شيء لغير الله سبحانه وتعالى.

بالحج يشاد الدين:

«والحج تشييداً للدين»، لأن الحج يجمع الناس على طاعة الله حول الكعبة، وفي تلك المناسك والمشاعر، وذلك ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [الحج: ٢٨]، منافع دنيوية وأخروية، مادية ومعنوية.

وكُلّما انطلق الحج في معناه الحقيقي أكثر، كُلّما استطاع أن يعطي القوة في الدين أكثر، من خلال إشعار المسلمين بأنهم موحدون في عبادتهم كما هم موحدون في عقيدتهم، ومن أجل أن يتوحدوا في حركتهم في الحياة وفي مواجهة التحديات التي تريد إسقاط الهيكل على رؤوس الجميع.

كما أن من أسرار الحج - التي تجعله تشييداً للدين - الدعوة إلى الله والعمل على تعريف المسلمين الذين يفتقدون في بلدانهم إلى الموجه والمرشد، تعريفهم بدينهم وتعاليمه وأحكامه، لذلك فإن الحج أرادته الله سبحانه وتعالى ساحة للعبادة وللعلم وللتعاون وللتشاور، وبذلك يمكن أن يشيّد الدين على الأساس الثابت والمتين.

القسم الرابع : العدل والإمامة وأسرار أخرى للتشريع:

العدل تنسيق للقلوب:

«والعدل تنسيقاً للقلوب»، هذه الكلمة تستدعي التأمل والتحليل، لأن مسألة العدل هي من المسائل التي تتصل بالواقع الخارجي للحياة الاجتماعية للأمة، لأنه بالعدل يصل كل إنسان إلى حقه، وبذلك يعم الخير في الناس وتقل الصراعات والمعارك.

إذاً ما هي علاقة العدل بالقلوب وبتنسيقها وجمعها مع بعضها البعض؟

لقد قلنا في التعليق على بعض الفقرات السابقة، إن الزهراء(ع) تتحدث في بعض العناوين عن تأثيرها في الداخل الإنساني، لأن تأثيرها في الخارج الإنساني أمر واضح بيّن لا يحتاج إلى بيان، فالعدل في حركيته الإنسانية وفي واقع العلاقات بين الناس، ودوره في وصول كل إنسان إلى حقه، يهيئ الرخاء والسلام والتوازن في الواقع الاجتماعي، وهذا أمر بيّن لا يكاد يخفى على أحد، ولذا لم تركّز عليه الزهراء(ع)، وإنما ركّزت على مسألة أخرى، وهي تأثير العدل في علاقات الناس مع بعضهم البعض، فيما يفتح فيه قلب على قلب، لأن الظلم ينتج الكثير من التعقيدات النفسية والكثير من الأحقاد الذاتية، ذلك لأن أي إنسان يُضطهد في حقه، فمن الطبيعي أن يحمل لمضطهده مشاعر الحقد والعداوة والبغضاء، ما يجعل من الظلم مشكلة للعلاقات الإنسانية في دائرة المشاعر، كما هو مشكلة لواقع الإنسان في

دائرة العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس الحقوق، لذلك أرادت الزهراء (ع) أن تؤكد قيمة العدل في جمع القلوب وتنسيقها، لأن المجتمع إذا كان قائماً على إعطاء كل ذي حق حقه، فإن من الطبيعي أن يبعد ذلك الكثير من المشاعر السلبية في علاقة الناس مع بعضهم البعض، وهذا هو الذي يهيئ لحركة السلام الاجتماعي أن تسود، لأن غالب المؤثرات في إيجاد الحروب أو في إبعاد حركة السلام عن الواقع هي العقد النفسية التي يحملها بعض الناس.

ولهذا كلما خفت هذه العقد، قلّت مؤثرات إيجاد الحروب والمنازعات، والله العالم.

الطاعة والإمامة:

ثم تقول (ع): «**وطاعتنا نظاماً للملّة**»، أي أن طاعة أهل البيت (ع) سبب لانتظام أمور المسلمين، وذلك باعتبار أنهم يمثلون القيادة الشرعية التي لو أعطيت زمام الأمور، لحملت الناس على المحجة البيضاء وركّزت أسس التوازن في المجتمع، بحيث يأخذ كل ذي حق حقه، وتتحرك الخطوط الشرعية في تنظيم المجتمع في القضايا الخاصة والعامة.

وبذلك فإن انسجام المجتمع والأمة مع القيادة الشرعية الحكيمة القوية التي لا تأخذها في الله لومة لائم وتتحرك على أساس المصالح العامة، هو الذي يحقق العزة والاستقرار في المجتمع، وإلاّ إن لم تنسجم الأمة مع قيادتها الشرعية، فلن تستطيع هذه القيادة أن تحقق ما تصبو إليه، لما ستواجهه من مشاكل ومتاعب، كما كان الحال على عهد أمير المؤمنين (ع)

الذي قال وهو يعبر عن ذلك: «ليس أمري وأمركم واحداً، إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفكسم»^(١)، وما صرح به بقوله: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله ما أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله»^(٢)!

من هنا، فإن المجتمع عندما يطيع القيادة الشرعية، فمن الطبيعي أن يعيش الاستقرار ويتوصل إلى العزة والكرامة وتتحقق أهدافه.

الإمامة أمان:

وتضيف (ع): «وإمامتنا أماناً من الفرقة»، لأن هذه الإمامة انطلقت من خلال الخط الإلهي ومن خلال التنصيب الإلهي، لذلك فإن المسلمين عندما يلتقون عليها فإنهم يلتقون على أمر الله في السير على خطاها وفي الالتزام بها، وبذلك يبتعدون عن كل ما يوجب الفرقة، لأن الفرقة إنما تنطلق من خلال اختلاف الأهواء والاتجاهات. أما إذا كانت المسألة منطلقة من أمر الله ونهيه، فإن المسلمين من موقع إسلامهم ينبغي أن لا يختلفوا عليها، سيما بملاحظة ما تركز عليه من خطوط تنطلق من الله وتنتهي إليه.

الجهاد عزّ للإسلام:

«والجهاد عزّاً للإسلام»، لأن الجهاد يمثل التحدي للكفر في جانب وردّ

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٦.

(٢) م.ن، الخطبة: ١٢٦.

التحدي في جانب آخر، ويمثل مواجهة الاستكبار والظلم في مواقعه كلها .. وبذلك يعطي الجهاد عزاً للإسلام عندما يدفع المسلمين لمواجهة التحديات المفروضة عليهم، والهجوم الذي يشن ضدهم، والضغوط التي تفرض عليهم، فيصنعون نصراً حاسماً في ساحات الجهاد، أو يُقتلون وهم أعزّة شرفاء، وإننا نلاحظ أنه لم يسقط المسلمون في واقع الذل إلا بعد أن تركوا الجهاد وأقبلوا على حالة الاسترخاء واستسلموا لكل فاتح مستكبر.

«وذلاً لأهل الكفر والنفاق»، فمن الطبيعي أنه كلما عزّ الإسلام في ساحة الصراع أكثر وفي ساحة التحدي ورد التحدي، ذلّ الكفر والنفاق أكثر.

الصبر موجب للأجر:

«والصبر معونة على استيجاب الأجر». من نتائج الصبر العملية والواقعية، أنه يمدّ بالعزم والقوة في مواجهة نقاط الضعف النفسية وحالات الحرمان والضغوط والابتلاءات التي تجابه الإنسان و تزلزل موقفه أو تنحرف به عن خط الاستقامة.

والصبر يمثل الحركة الإنسانية التي تنطلق إيجابية في داخل الإنسان وسلبية في الظاهر، باعتبار أن الصابر يصمد، ولا يتحرك بردة فعل، فهو سلبي في الصورة، ولكنه إيجابي في المضمون وفي الواقع، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

هذه بعض معاني الصبر وأسراره، ولكن الزهراء (ع) لم تشأ الحديث عنها ربما لوضوحها، وإنما أرادت أن تتحدث عن أجر الصبر كما تحدّث

القرآن عنه في أكثر من آية، لتشجّع الناس عليه وتبيّن أجر الصبر الذي قد يغفل عنه الكثيرون، فكان حديثها حديث الدعوة إلى الصبر لا حديث بيان فلسفة الصبر وطبيعته.

ومن الطبيعي أن الأجر الذي يناله الإنسان على الصبر يختزن في داخله كل ما يعنيه الصبر من ثبات على المبدأ، ومن صلابة في موقف الإنسان مع الله أمام الشدائد والأهوال والأخطار، لأن الله إنّما يثيب الإنسان بالحجم الذي يمثله عمله، ولعلنا لم نجد عملاً يحمل من الثواب كالذي يحمله الصبر، ومن الطبيعي أن يثيب الله على العمل الذي يرتفع في مستوى القيمة إلى أن يكون القاعدة التي ترتكز عليها التقوى كلها والإيمان كله، بأكبر الثواب وأحسنه.

ولذلك فإن الزهراء (ع) عندما تقول: «والصبر معونة على استيجاب الأجر»، فإنها تقصد الصبر بما له من القيمة الكبرى عند الله سبحانه وتعالى، من حيث علاقته بثبات الإيمان في نفس الإنسان في مواجهته لقضايا الانحراف.

ونحن نقرأ في كلمات علي (ع) وهو يعدّد الخصال الخمسة التي ذكر أنها «لو ضربت إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً»، يقول (ع): «وعليكم بالصبر، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه»^(١).

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٨٢.

وهكذا هي كلمة الإمام الباقر (ع) لبعض أصحابه: « كل أعمال البر بالصبر يرحمك الله »^(١). وقد جعل القرآن قيمة الصبر أعلى قيمة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد أرادت الزهراء (ع) أن تستنطق المعنى القرآني في حديثها عن أجر الصبر، والمعنى القرآني للصبر يختزن كل ما في الصبر من خصائص، من حيث إنه يمثل القيمة العملية الكبرى التي تزيد الإنسان ثباتاً وإيماناً في كل خطواته في هذه الحياة.

الأمر بالمعروف مصلحة العامة:

ثم انطلقت للحديث عن الأمر بالمعروف فقالت: «والأمر بالمعروف مصلحة للعامة»، باعتبار أنه يمثل حركة النقد الاجتماعي وحركة التكامل الاجتماعي في عملية إصلاح الواقع، لأن الناس إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضَعُفَ المعروف وقوي المنكر، وهذا ما ورد في الحديث النبوي الشريف: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهينَّ عن المنكر أو ليسلطنَّ الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٢).

إننا نستوحي من هذا أن المجتمع إذا كان لا يمارس الرقابة العملية على

(١) الكافي، ج: ٣، ص: ٤٠٧، رواية: ١٦.

(٢) البحار، ج: ٩٣، باب: ٢٤، ص: ٣٧٨، رواية: ٢١.

بعضه البعض في المعروف العملي والمنكر العملي، فإن الذين يصنعون المنكر ويسقطون المعروف سوف يسيطرون على المجتمع وهو غافل عنهم، ما يسبب إفساداً في الواقع وضرراً على عامة الناس.

برّ الوالدين وقاية:

«وبرّ الوالدين وقاية من السخط»، لأنّ برّ الوالدين يخلق في نفسيهما حالة من المحبة والرضا والطمأنينة، وبذلك تنفتح قلوبهما لأولادهما، فتتحرك المحبة والرضا بدل السخط. ولا بد أن نعرف حقيقة التخطيط في الإسلام بالتدرج في عملية نشر المحبة بين الناس، فلقد بدأ بالوالدين ثم ثنى بالأرحام، ثم انطلق إلى الدوائر التي تلتقي في جانب العقيدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠]، وانطلق بعد ذلك إلى الدائرة الكبرى التي يلتقي فيها الناس بالإنسانية، من أجل أن تهیئ كل دائرة في العلاقات الإنسانية للدائرة الأخرى، فإذا تعلّم الإنسان أن لا ينهر أبويه وأن يرحمهما وأن يذكر جميلهما بالرغم من إساءتهما له، فإنّ ذلك يمثل تجربة غنية حية في أن ينفّث على أرحامه ويصلهم وإن قطعوه، وذلك يساعده على الانفتاح على أهل دينه وعلى الناس أجمعين.

فهذه الدوائر التي دعانا الله إلى الانفتاح عليها تمثل دائرة تقويّ دائرة أخرى، ودائرة تنفتح على دائرة الأخرى، فالدائرة الصغيرة تنفتح على المتوسطة، والدائرة المتوسطة تنفتح على الدائرة الإنسانية الكبرى، وهذا ما لخصه أمير المؤمنين (ع) عندما تحدّث عن دائرتين كبيرتين في علاقات الناس مع بعضهم البعض، فقد قال مخاطباً مالك الأشتر عندما ولّاه مصر: «وأشعر

قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان، إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»^(١).. فالدائرة الإسلامية تدور في نطاق ما جعل الله للمؤمن على المؤمن من حق، والدائرة الإنسانية تدور في ما أراد الله للإنسان أن يفتح على الإنسان الآخر من خلال مشاعره الإنسانية.

صلة الرحم تطيل العمر:

«وصلة الأرحام منسأة في العمر»، وقد كثرت الأحاديث الدالة على أن صلة الرحم تزيد في العمر، ففي الحديث عن الإمام الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال: «قال الحسين (ع): من سرّه أن يُنسأ في أجله ويزاد في رزقه فليصل رحمه»^(٢)، وفي الحديث عن مولانا الصادق (ع) عن آبائه عن علي (ع) قال: «قال رسول الله (ص): إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين، ثم تلا (ع): ﴿يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾» [الرعد: ٣٩]، وحديث آخر بهذا الإسناد المبارك نفسه عن رسول الله (ص) قال: «صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير أختيار»^(٣)، كما أن صلة الرحم تنمي المال وتبارك في الأولاد، وهذا ما أشارت إليه عليها السلام بقولها: «ومنماة للعدد»، وهذا

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج: ٧١، ص: ٩١.

(٣) م.ن، ص: ٩٣-٩٤.

ما أشارت إليه أحاديث كثيرة، ففي الحديث عن رسول الله (ص): «إن صلة الرحم مثارة في المال ومحبة في الأهل ومنسأة في الأجل»^(١)، وعن الإمام الرضا (ع) عن آبائه قال: «قال محمد بن علي (ع): صلة الأرحام وحسن الجوار زيادة في الأموال»^(٢)، وعن الصادق (ع): «إن صلة الرحم تزكي الاعمال وتنمي الأموال وتيسر الحساب وتدفع البلوى وتزيد في العمر»^(٣). وهذان الأثران لصلة الرحم - وهما ما أشارت إليهما الزهراء (ع) - هما من الأسرار الإلهية.

حكمة القصاص والوفاء بالنذر:

«والقصاص حقناً للدماء»، والله تعالى يقول: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ [البقرة: ١٧٩].

«والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة»، لأن النذر يمثل التزاماً منك أمام الله، ويمثل عهداً بينك وبينه، ولذلك عندما تفي بنذرك فإنك تعبر عن وفائك بالتزامك أمام الله، وإذا كان هذا يمثل الالتزام في هذه المفردة الصغيرة، فإنه يعطي خطأً للالتزام في الدوائر الكبرى، لأن الإنسان إذا حصل على طاقة وقوة من خلال التزامه بطاعة الله في جانب، فإن ذلك يقوي الطاقة في الجوانب الأخرى، فيغفر الله له على أساس ما يطلع عليه من طهارة قلبه، وما يراه من وفائه بالتزامه أمام ربه، وقد حدثنا الله عن أهل البيت (ع)

(١) بحار الأنوار، ج: ٧١، ص: ١٠٢.

(٢) م.ن، ص: ٩٧.

(٣) م.ن، ص: ١٠٠.

ووصفهم بأنهم ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ [الإنسان: ٧].

وفاء المكيال:

«وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس»، فعندما نفي بمكايلنا وموازيننا، فإننا نعطي كل إنسان حقه كاملاً غير منقوص، سواء في ما نزن به ونكيله، أو في ما نعدّه ونذرعه، لأن المكايل والموازين ذكرت باعتبار أنها الغالب، فهي كناية عن عدم البخس في كل حق له كمية معينة، سواء كانت عددية أو وزنية أو مكيالية أو غير ذلك، فإله أمر بتوفية المكيال والميزان من أجل تغيير الواقع الذي كان سائداً، والذي يربك الحياة الاقتصادية وينشر المشاكل بين الناس، قال تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ [المطففين: ١-٣].

فقد أراد الله للناس عندما أمرهم بأن لا يطففوا المكيال والميزان وأن يفوا المكيال والميزان، تغيير هذا الواقع الذي كان منتشرأ بينهم، ولذلك قال: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [هود: ٨٥].

النهي عن الخمر تنزيهه عن الرجس:

«والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس»، باعتبار أن الخمر يمثل الرجس المعنوي والرجس المادي من خلال تأثيراته السلبية على عقل الإنسان وروحه وعلى بدنه وصحته وعلى الواقع الاجتماعي من حوله، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ [المائدة: ٩٠].

اجتناب القذف:

«واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة»، لأن الإنسان إذا قذف الناس لعنوه أو قذفوه. فاجتنابه قذف الآخرين هو تنزيه لنفسه وعرضه، وصيانة لكرامته من أن تنال وتنتهك، ولهذا فإن لم يكن الإنسان مهتماً باجتناب غضب الله الذي توعد به الذين يقذفون أعراض الآخرين، فليهتم بأن يجنب عرضه من الانتهاك وأن يبعد نفسه عن مواطن اللعن.

ترك السرقة:

«وترك السرقة إيجاباً للعفة»، عفة اليد عن أموال الناس، وقد ورد في عدة أحاديث أنه «ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن أو فرج»^(١)، وجاء في حديث أمير المؤمنين (ع) في كلماته القصار: «أفضل العبادة العفاف»^(٢).

تحريم الشرك:

«وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية»، لأن الشرك يمثل ابتعاداً عن الإخلاص لله تعالى، فعندما نجعل له شريكاً في الربوبية، فإن هذا يعتبر ابتعاداً عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وتمرداً على حقه في التوحيد، ثم استشهدت (ع) بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم

(١) الكافي، ج: ٢، ص: ٧٩، باب العفة، رواية: ١ و ٧ و ٨.

(٢) م.ن، ص: ٧٩، رواية: ٢.

مسلمون ﴿[آل عمران: ١٠٢]، وكأن الزهراء(ع) أرادت من خلال إنهاء هذا الفصل بهذه الآية، أن تبين لهم الحق العام الذي ينبغي لهم أن ينتهجوه، وهو أن يتقوا الله كأعلى ما تكون التقوى وكما ينبغي له أن يتقى، في الالتزام بكل أوامره ونواهيه، والانفتاح على كل ما يحبه حتى مما لم يلزم الناس بفعله، والابتعاد عن كل ما يكرهه حتى مما لم يلزم الناس بتركه.

فتقوى الله هي أن تحسب حساب الله في كل شيء، تحسب حسابه في كل ما تفكر فيه لتكون لك تقوى الفكر، وفي كل ما تتعاطف معه لتكون لك تقوى العاطفة، وفي كل ما تتحرك فيه لتكون لك تقوى العلاقة بالآخرين وتقوى الحركة بين الناس ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾، ولتستمر هذه التقوى في كل حياتكم، فلا تمثل مجرد مرحلة من مراحل حياتكم، بل لا بدّ من أن تكون مستمرة إلى حين الموت ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾، وكلمة الإسلام بحسب معناها القرآني هي تعبير عن التقوى، لأن قضية الإسلام هي أن تسلم وجودك كله لله ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والإسلام لله هو أن تلتزم أمره ونهيه وكل ما يحبه ويرضاه في حياتك الذاتية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والأمنية والاقتصادية، ليكون وجودك في مظاهره ومواقعه كلها إسلاماً لله سبحانه وتعالى.

«وأطيعوا الله في ما أمركم به و(ما) نهاكم عنه، فإنه إنما يخشى الله من عباده العلماء» .. وكأنني بالزهراء(ع) تقول لهم: كونوا العلماء بالله، وكونوا العلماء بدينه، وكونوا العلماء بمسؤولياتكم أمامه، لأنكم كلما

عرفتم الله أكثر كلما خفتموه واتقيتموه أكثر.

وهكذا انطلقت الزهراء (ع) من خلال هذه الأطروحة الثقافية وهذه الموعظة الأخلاقية التي ركزت على تقوى الله والابتعاد عن مواقع سخطه، لتتحدث عن قضيتها معهم ومظلوميتهم لها، فكان ذلك بمثابة المدخل لتنفيذ من خلاله إلى مسألة منعها من إرثها وحققها في فلك.

القسم الخامس : الدفاع عن الحق والحقيقة:

حديث الزهراء (ع) عن شخصيتها:

ونبقى مع سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) في الفصل الجديد الذي تعلن فيه عن شخصيتها في مستوى العنفوان، لتواصل حديثها مع المهاجرين والأنصار، من خلال استعراض دور رسول الله من جديد، ومن ثم تبين دور علي (ع) مع رسول الله (ص).

فهي إنما تعلن عن شخصيتها ليس من منطلق ذاتي، ولا لأنها مجهولة لديهم، بل لتؤكد أنها إنما تتحدث معهم وهي التي لا تخطئ في قول ولا تباعد عن الحق ولا تتجاوز الحدود الفاصلة بين الحق والباطل، فكانها تريد أن تقول لهم إن الله عصمني من الخطأ في كل أقوالي وأفعالي ومن أي تجاوز عن الحق: «أيها الناس اعلموا أنني فاطمة وأبي محمد (ص)، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»، وفي استشهادها بهذه الآية تريد أن تقول لهم إن الله أرسل لكم أبي

من داخل مجتمعكم، فهو ليس بعيداً عنكم بل هو بشر مثلكم، ولكن الله ميّزه بالوحي والرسالة بكل ما يختزنانه من أسرار الشخصية في قداستها وقربها من الله.

صفات النبي (ص):

إنها تقول: لقد كان أبي يحمل في قلبه الهم والألم لما يشاهده من المشقة التي تعيشون فيها، وكان يعزّ عليه ذلك، وكان يحرص عليكم أن لا تضيعوا وأن لا تضلّوا وأن لا تسقطوا، وكان الرؤوف الرحيم بكم وبكل قضاياكم وتطلعاتكم، فكأنّي بها تريد أن تقول إن أبي كان بهذه الروح في رعايته لكم في حياته، ولا تزال روحه تطلّ عليكم وهو في عليائه في رحاب ربه ﴿عزّيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، ولذلك فإنه (ص) ومن خلال ما يطلعه الله على أوضاعكم، وعلى الفوضى الجديدة التي حلّت بكم، وعلى الفتنة التي فتكت في مجتمعكم، يعزّ عليه ذلك، لأن ذلك يجلب لكم المشقة، وهو يحرص على أن تخرجوا من ذلك، لأن بقاءكم فيه يمكن أن يوقعكم في الكثير من مشاكل الحياة ومتاعب الآخرة.

ولذلك فمن رأفته ورحمته أنه يريد لكم أن تخرجوا من هذا النفق، وأنا التي لا تقول خطأ ولا تتجاوز عن الحق، أعيش روحه وحرصه وهمّه في كل ما يشقّ عليكم، «فإن تعزوه وتعرفوه» إذا أردتم أن تنسبوه «تجدوه أبي دون نسائكم»، فأنا ابنته الوحيدة.. ولم تقتصر على الحديث عن نفسها في علاقتها برسول الله، وإنما أوردت اسم علي (ع) «وأخا ابن عمي دون رجالكم»، لأن النبي (ص) أخاه بعد أن آخى بين المهاجرين والأنصار، فكانت

الأخوة التي اختارها لنفسه هي أخوته لعلّي(ع).

«ولنعلم المعزى إليه(ص)»، يعني لنعم المنسوب إليه، فعندما ينتسب أي إنسان إلى الرسول(ص)، سواء بالبنوة أو بالأخوة. فإن ذلك يمثل الشرف كلّ الشرف، ويمثل العظمة كل العظمة. وهنا نتساءل: هل كانت الزهراء(ع) وهي تتحدث عن انتمائها إليه بالبنوة وانتماء علي(ع) إليه بالأخوة، هل كانت تتحدث عن القرابة؟ والجواب: كلا، لأن الإسلام لم يعتبر القرابة في ذاتها. بقطع النظر عما يختزنه القريب من خصائص تجعله في مستوى الكفاءة. وسيلة من وسائل القيمة الكبرى، فأقرباء رسول الله كثيرون، ولكن الله ميّز أهل البيت عن أقربائه كلّهم، وقد قلنا إن لرسول الله عدة بنات، كما هو وارد في كتب التاريخ، وكما يظهر من القرآن، لكنه ميّز ابنته فاطمة(ع) عن أخواتها، وكما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

ما تمنّى غيرها نسلًا ومن يلد الزهراء يزهد في سواها

فبماذا امتازت فاطمة(ع)؟

إن ما نستوحيه من كلامها أنها تريد أن تقول إنّ ميزتي أنني ابنته، ربّيتُ في حجره وعشت معه أتنفس كما يتنفس، وأعيش الآفاق التي عاشها في الليل والنهار، وأعيش ابتهالاته ودعواته وروحانيته كلها، وأتعلم منه كل ما لديه من علم. فهي ابنته بالروح وبالعقل وبالقلب كما هي ابنته بالجسد، وهكذا هي أخوة علي(ص)، ليست أخوة تقليدية أو نسبية، ولكنها أخوة هارون لموسى(ع): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبّي

بعدي»^(١)، هي أخوة العقل والروح والقلب والجهاد وكل ما يفتح عليه الجو النبوي الرسالي من آفاق.

ثم بدأت تذكر الناس بنشاط رسول الله (ص) وبموقع علي (ع) في هذا النشاط، لتقارن بين المرحلة التي عاشها رسول الله (ص) والأهداف التي استهدفها والقضايا التي ركّزها، وبين المرحلة الجديدة التي يعيشون فيها.

«فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة»، صدع بما أراد الله أن ينذر الناس به، «مائلاً عن مدرجة المشركين»، يعني عن مذهبهم وعن مسلكهم، «ضارباً ثبجهم» والثبج هو وسط الشيء ومعظمه، وهذا كناية عن كونه لا يبالي بكثرة المشركين واجتماعهم ولا يداريهم بالدعوة، بل كان ينطلق في وسطهم وفي قلب مجتمعهم غير آبه لعددهم وكثرتهم، «أخذاً بأخطامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة»، استجابة لقول الله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل: ١٢٥].

«يكسر الأصنام»، فلقد كسر الأصنام بشكل غير مباشر من خلال جهاده الذي جعل قوة مجتمع الأصنام تتهاوى، وقد حطّمها علي (ع) بشكل مباشر عندما ارتفع على منكبي النبي (ص) بأمر منه (ص) ليكسر الأصنام المنصوبة على الكعبة^(٢).

(١) صحيح مسلم، وقد تقدم. الكافي، ج: ٨، باب: ٨، ص: ٩٢، رواية: ٨٠.

(٢) راجع: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج: ٢، ص: ٣٤٠. نقل هذه الحادثة عن خصائص النسائي ومستدرک الحاكم والكشاف للزمخشري.

«وينكت الهام» والمقصود بالهام الرأس، والنكت هو إلقاء الرجل على رأسه، فهذا كناية عن أنه يقتل المشركين بأن يسقط هاماتهم عن أجسادهم، «حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه» يعني أسفر وانشق حتى ظهر ضوء الصباح، «وأسفر الحق عن محضه» يعني أشرق وأضاء «ونطق زعيم الدين» يعني سيد القوم «وخرست شقاشق الشياطين» ويقال الشقشقة هي كالربة التي يخرجها البعير من فيه إذا هاج، وهذه كناية عن خمود الأصوات التي كان المشركون يطلقونها في تحدياتهم ضد الإسلام، «وطاح وشيظ النفاق»، والوشيظ هو السفلة من الناس، كناية عن هلاك السفلة الذين يمثلون شخصية النفاق «وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتتم بكلمة الإخلاص» يعني تفوّهت بكلمة الإخلاص وهي كلمة التوحيد والإسلام «في نفر من البيض الخماص» وهم عدة من الأشخاص الطاهرين المميزين الذين لا يهتمون ببطونهم وإنما يهتمون برسالتهم ومهمتهم في الحياة.

«وكنتم على شفا حفرة من النار» وهذا ما عبّر الله عنه ﴿إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ [آل عمران: ١٠٣] «مذقة الشارب» ومذقة الشارب هي أول شربته، أي كان الناس يشربونكم، كناية عن أنكم كنتم قلّة كما هي مذقة الشارب عندما يشرب أول شربته، يتخطفكم الناس نتيجة قلتكم، «ونهزة الطامع» يعني فرصته في أنه يجد عندكم ما يمثله طمعه في استغلالكم بكل أنواع الاستغلال، «وقبسة العجلان» والقبسة هي الشعلة من النار التي تقتبس

من معظمها. وفي الماضي لم تكن الإضاءة كما هي الآن، فربما كان الشخص يذهب بعيداً لبحث عن نار، كما في الآية ﴿آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وهذه القبسة كان يأخذها صاحبها وهو عجلان حتى لا تنطفئ، «وموطئ الأقدام، تشربون الطرق»، والطرق هو ماء السماء الذي تورده الإبل وتبول وتتبعر فيه، وهو الذي يكون في الصحراء.

«وتقتاتون القدّ» وهو اللحم المجفف اليابس، «أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد(ص) بعد اللتيا واللتى» و«بعد اللتيا واللتى» كناية عن الداهية، (فاللتيا) الداهية الكبيرة (واللتى) الداهية الصغيرة.

«وبعد أن مني بهم الرجال وذئبان العرب ومردة أهل الكتاب»، وبهم الرجال يعني الشجعان منهم، لأنهم كما يقال لشدة بأسهم لا يدرون من أين يأتون، و«ذئبان العرب» كناية عن لصوصهم وصعاليكهم الذين لا مال لهم ولا اعتماد عليهم.. والمردة العتاة المتكبرون «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو نجم قرن الشيطان»، يعني طلع قرن الشيطان، كناية عن جنوده وأشياعه وأتباعه، «أو فغرت فاغرة من المشركين»، فغراه أي فتحه، والفاغرة من المشركين الطائفة منهم التي تكشر عن أنيابها لمحاربة النبي(ص)، فماذا كان يفعل(ص) في هذه الظروف؟

دور علي(ع):

«قذف أخاه»، وهنا جاء الحديث عن علي(ع) عندما كان النبي يُواجه كل

هذه الجماعات التي تريد أن تسقطه وتتحدى رسالته وتقضي على أمته، «قذف أخاه في لهواتها»، «قذفه» يعني رماه وأرسله في لهواتها، واللهوات جمع لهاة وهي اللحمية في سقف الفم، وهذا كناية عن أنه كلما واجهته طائفة من المشركين أو عرضت له داهية عظيمة، بعث علياً (ع) لدفعها وصدّها وعرضه للمهالك، «فلاينكفى» - فلا يرجع - حتى يطاء صماخها بأخمصه»، والصماخ هو ثقب الأذن أو الأذن نفسها، والأخمص ما لا يصيب الأرض من باطن القدم عند مشيها، «ويخمد لهبها بسيفه، مكوداً في ذات الله»، متعباً مجهداً «مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله»..

والملاحظ هنا أنها (ع) تتحدث عن علي (ع) ابن عمها وزوجها، لا من خلال الزوجية أو القرابة، ولكنها تتحدث عنه بصفة أنه إمامها وسيدها في حركة الرسالة، «مشمرأ»، يعني مشمرأ عن حياته كلّها باذلاً لها في سبيل الله، «ناصرًا مجداً كادحاً»، وكان علي (ع) الناصح للمسلمين جميعاً حتى الذين اغتصبوا الخلافة منه، فها هو ينصح عمر بن الخطاب عندما استشاره للشخص بنفسه إلى قتال الفرس قائلاً: «ومكان القيم بالأمر مكان النظام - السلك - من الخرز يجمعه ويضمه، فإن انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ... فكن قطباً واستدر الرحي بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه

استرحتم، فيكون ذلك أشدَّ لَكَلْبِهِم عليك وطمعهم فيك»^(١)، وكان علي (ع) المجدَّ الكادح في سبيل الله «لا تأخذه في الله لومة لائم».

تقريع المنافقين:

«وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر»، أي تنتظرون أن تتحرك صروف الزمان وحوادث الأيام لينزل البلاء علينا، «وتتوكفون الأخبار» تتوقعون أخبار المصائب والفتن النازلة بنا «وتنكصون عند النزال، وتفرون عند القتال، فلما اختار الله لنبيّه دار أنبيائه ومأوى أصفياه، ظهر فيكم حسكة (حسيكة) النفاق»، والحسيكة هي العداوة، أي عداوة النفاق، «وسمل جلباب الدين» وسمل: صار خلقاً بالياً، أي أنه بُلي هذا الثوب، وذلك كناية عن ضعف الدين في نفوسهم، «ونطق كاظم الغاوين» الكاظم هو الذي كان ساكناً وقد منحته الفرصة بموت النبي (ص) أن ينطق ويتحدث، «ونبغ حامل الأقلين»، يعني ظهر الذي كان لا قيمة له وكان ساقطاً لا نباهة له، فقد أعطته الظروف الجديدة فرصة أن يظهر وأن يكون ذا قيمة «وهدر فنيق المبطلين» وهدر يعني أصدر صوتاً، والفنيق هو المكرم من الإبل الذي لا يركب ولا يهان لكرامته على أهله، وتقصد أن الأشخاص الذين كانوا في كرامة من أهلهم ولكنهم كانوا في خط الباطل، قد هدرُوا وانطلق صوتهم من جديد.

«فخطر في عرصاتكم» خطر البعير بذنبه إذا رفعه مرة بعد أخرى

وضرب به فخذه، أي أن هذا الفنيق قد برز من جديد في ساحاتكم، «وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه - ما يختفي فيه - هاتفاً بكم، فألفاكم - وجدكم - لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين» والغرة هي الاغترار والانخداع، «ثم استنهضكم - أي الشيطان - فوجدكم خفافاً» تنطلقون بكل سرعة «وأحمشكم فألفاكم غضاباً»، أحمشكم يعني أغضبكم، فتحرركم بالانفعالات التي يريد لكم الشيطان أن تتحركوا فيها، «فوسمتم غير إبلكم»، والوسم هو كُيُّ الإبل وغيره من الحيوانات، وتقصد أنكم انفتحتم على غير الموضع الذي أراد الله لكم أن تقفوه، فوسمتم غير إبلكم، مع أنه كان من المفروض أن تسموا إبلكم، وتتصرفوا بالأشياء التي هي لكم، ولكنكم أعرضتم عما أنتم مسؤولون عنه وتعرضتم لما ليس لكم فيه حق، «ووردتم غير مشربكم»، أي انطلقتم في غير الماء الذي ينبغي أن تشربوه، وهذا أيضاً كناية عن المواقع التي أخذتم وليس لكم فيها حق، لأن الحق في الخلافة هو لغيركم، ولكنكم انطلقتم إليها مسرعين، «هذا والعهد قريب»، فلم يمض على وفاة رسول الله (ص) إلا أيام قلائل «والكلم رحيب»، والكلم هو الجرح ورحيب: واسع، «والجرح لما يندمل» بفقده «والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة»! لماذا بادرتم قبل أن يدفن رسول الله (ص)؟ لماذا لم تستشيروا أخاه وابن عمه؟ استعجلتم خوفاً من الفتنة «ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، فبهيات منكم» كناية عن التباعد، يعني ابتعدتم عن الحق، «وكيف بكم، وأنى تؤفكون وكتاب الله بين أظهركم»، لماذا هذا الانحراف؟ لماذا هذا البعد عن الحق؟ لماذا هذا الأخذ بالكاذيب مع أن

كتاب الله بين أظهركم «أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة» مشرقة بيّنة «وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، قد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبةً عنه تريدون؟» أرغبتم عن القرآن؟ وقد أراد الله تعالى لكم أن تعتبروه قدوة لكم ليخرجكم من الظلمات إلى النور «أم بغيره تحكمون، بنس للظالمين بدلاً» من يبدل القرآن بغيره إلا الظالم «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»، والقرآن هو أساس الإسلام في قواعده وأحكامه وشرائعه كلها.

حطب الفتنة:

«ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها»، والمراد من النفرة هنا ذهابها وعدم انقيادها، يقال: نفرت الدابة أي صعب الإمساك بها، وهذا يعني أنكم لم تلبثوا إلا ريث أن يسكن هذا الهياج للدابة أو هذا الاستعصاء في قيادها، «ويسلس - يسهل - قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها» أي لهبها، فتشعلون النار، «وتهيجون جمرتها» حتى تبرز وتتوقد لتكون أشد إحراقاً، «وتستجيّبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء» والحسو هو الشرب شيئاً فشيئاً، والارتغاء هو شرب الرغوة، وهي اللبن المشوب بالماء أو هو زبد اللبن، ويضرب هذا الكلام مثلاً لمن يظهر شيئاً ويريد غيره، أو لمن يعينك ولكنه يجرّ النفع إلى نفسه، فهو يوحى إليك بأنه يريد إعانتك، ولكنه في الحقيقة يجرّ النفع إلى نفسه، «وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء» الخمرة هي ما وارك من شجر وغيره، يعني أنكم تتحركون

بشكل سري ومخادع للمكر بأهل بيت النبي (ص)، «ونصبر (ويصبر) منكم على مثل حَزِّ المدى» مثل حَزِّ السكاكين «ووخز السنان في الحشا».

هكذا كانت سيِّدة نساء العالمين (ع) تعيش أَلَم الواقع في انحرافه عن الخط المستقيم، باعتبار أنها تعيش الرسالة كلها في قلبها وعقلها، وتعتبر الرسالة حياتها كلها.

ثم بدأت في الدفاع عن حقها فقالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لإرث لنا»، لما تنسبونه إليه (ص) أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» «أفحكم الجاهلية تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»، «أفلا تعلمون؟ بلى، قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته»، وأن البنت ترث من أبيها.. وهنا دخلت الزهراء (ع) في الاحتجاج الفقهي القرآني على حقها في الإرث.

القسم السادس : الاستدلال على حقها في فدك:

الظاهر - كما يبدو من بعض كتب السيرة^(١) - أن الزهراء (ع) طالبت بفدك في بداية الأمر، على أساس أنها نحلة نحلها النبي (ص) لها، وعطية أعطائها إياها في حياته، ولكن القوم رفضوا كلامها، باعتبار أنه مجرد دعوى تحتاج إلى بيّنة، وجاءت بعلي والحسين (ع) وأم أيمن، لكن شهادتهم رُدّت، هذا مع أن طلب البيّنة من فاطمة أمر عجيب ومخالف لقوانين باب القضاء الإسلامي،

(١) راجع كلام المؤرخين والروايات الواردة في ذلك، كتاب: «قادتنا كيف نعرفهم...»، ج: ٤، ص: ٢١٦ وما بعدها. ومسنّد فاطمة، ص: ٣٧١. وعوالم الزهراء، ص: ٦٠١، ٦٠٢.

مثل قانون «على المدّعي البيّنة وعلى المنكر اليمين»، وقانون «اليد أمانة الملكية». ومن الواضح أن فدك كانت تحت يد الزهراء (ع)، وعليها عاملها، وكانت تستثمرها في حياة أبيها. كما جاء في الروايات - فلا تطالب هي بالبيّنة لكونها صاحبة اليد واليد أماره الملكية، ولا تطلب البيّنة من صاحب اليد، بل تطلب من المدّعي الذي يدّعي شيئاً على خلاف اليد، ثم إن الاغرب من ذلك أن ترفض شهادة عليّ والحسنين (ع) وهم من هم في الطهارة والصدق والأمانة والقداسة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، بل كيف ترفض دعوى فاطمة وتردّ مع أنها أصدق الناس بعد أبيها كما تقدم في الحديث عن عائشة، وهي سيدة نساء المؤمنين، فلا تدّعي باطلاً ولا تقول شططاً، وهي من أهل بيت العصمة والطهارة!

ثم بعد رفض قضية النحلة أسدلت سيدتنا الزهراء (ع) الستار حول «النحلة» ودخلت في إثبات حقها عن طريق قصة الإرث، ففدك إن لم تكن عطية نحلها لها النبي (ص) حال حياته، فإنها بطبيعة الحال ستكون ميراثاً لها بعد وفاته، لأن فدك كانت خاصة برسول الله (ص) ومما أفاء الله به عليه.

مناقشة مسألة الإرث قرآنيّاً:

ونراها تحدثت عن «الإرث» بالطريقة التي لا تخلو من شدة في الأسلوب، حيث قالت: «أيها المسلمون أغلب على إرثي»، ثم توجهت إلى أبي بكر لتقول له: «يا بن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جنّت شيئاً فرياً، أفعل على عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦]، وقال في ما اقتصر

من خبر يحيى بن زكريا (ع) إذ قال: ﴿فهب لي من لدنك ولياً* يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ [مريم: ٥ - ٦]، وقال: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ [النساء: ١١]، وقال: ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [البقرة: ١٨٠].

قضية الميراث بشكل عام:

لقد أرادت الزهراء (ع) أن تطرح مسألة الإرث في الخط العام، ومسألة إرث الأنبياء بشكل خاص، أمّا في الخط العام فاستشهدت بقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وقوله عز وجل: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وهاتان الآيتان مما اتفق المسلمون على أنهما تعالجان مسألة الإرث بشكل عام دون فرق بين شخص وآخر، وبين نبيٍّ وغير نبيٍّ، فالخطاب موجّه إلى المسلمين أو الناس جميعاً كتشريع يحكم الواقع الإسلامي كلّهُ، والزهراء (ع) وأبوها رسول الله (ص) مسلمان لهما ما للمسلمين - بقطع النظر عن الخصوصية التي لا دخل لها في التشريع العام -، وعليهما ما على المسلمين.

إرث الأنبياء:

أما مسألة الميراث في الدائرة الخاصة، وهي إرث الأنبياء، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل يرث أولاد الأنبياء آباءهم أو أنهم لا يرثونهم، فيكون هناك استثناء في مسألة الميراث؟

إن الزهراء(ع) في معالجة هذا الأمر استدلت بآيتين تحدّثتا عن إرث أولاد الأنبياء لأبائهم.

الأولى قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾، وظاهر كلمة الإرث هنا أن سليمان ورث داود كما يرث الولد أباه، باعتبار علاقة النبوة.

الآية الثانية، وهي ما حكاه تعالى عن زكريا(ع): ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ يعني: هب لي ولداً يرثني، لأن من خصوصية الولد في امتداد الأب به أنه يرث ما عنده.

وقد قيل في ردّ هذا الاستدلال: إن الإرث هنا إرث العلم والحكمة، أو إنه إرث النبوة^(١)، أي ﴿وورث سليمان داود﴾ يعني أنه ورثه في النبوة، فكان نبياً مثله، وكذلك الأمر بالنسبة لزكريا، حيث كان يدعو الله أن يرزقه ولداً يرث النبوة التي تميّز بها، ويرث خط النبوة لآل يعقوب، باعتبار أن الله جعل فيهم النبوة، وربّما يقال إن هذا هو الأولى، لأن مسألة أن يرث سليمان داود فيما تركه ليست شيئاً مهماً يتحدّث الله عنه، أو أن يطلب النبي زكريا من الله ولداً ليرث ماله، فيتعين أن تكون الوراثة وراثة العلم والنبوة^(٢).

ولكننا نقول في مناقشة هذا الرأي بطريقة موضوعية، إن العلم لا يورث وإنما ينقل بالتعليم والاكتساب، فالفرق بين عملية إرث المال وإرث العلم، هي أن المال يورث من دون أن يعاني الوارث أيّ جهد في ذلك، فإن كان

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج: ٢١، ص: ١٨٤.

(٢) م.ن.

المال بحوزة شخص ومسجلاً باسمه من ناحية شرعية وقانونية، فبمجرد أن يموت ينتقل المال تلقائياً إلى الورثة ويسجل باسمهم شرعاً وقانوناً. فالإرث هو للأشياء التي تنتقل تلقائياً بمجرد موت المورث، وهذا أمر يتم في المال - كما بيّنا..

أما العلم فلا يورث بهذا المعنى لكلمة الإرث، فلو كان الأب عالماً ومات فهل يرث الابن علم أبيه؟ كلا، لأن دور ولد العالم أو النبي بالنسبة لعلم أبيه هو أن يتعلم منه كما يتعلم أي تلميذ آخر، فولد النبي أو ولد العالم إنما يأخذ علم أبيه من خلال تعلمه عنده تماماً كما يأخذ غيره علم أبيه من خلال تتلمذه عليه، فابن العالم وغيره من تلامذة العالم سيان بالنسبة لأخذ علمه، وبالتالي فالعلم لا يورث، وإنما ينتقل بطريقة تختلف عن أية عملية نقل أخرى، فالبيع يحتاج إلى إيجاب وقبول، والإيجار يحتاج إلى إيجاب وقبول، والصلح يحتاج إلى إيجاب وقبول، والهبة كذلك، فكل عملية نقل تحتاج جهداً من الناقل والمنقول إليه، والتعليم يحتاج إلى إلقاء وتلقٍّ، وعملية النقل الوحيدة التي لا تحتاج إلى جهد من الوارث ولا من المورث هي إرث المال.

ولذلك فقوله: ﴿وورث سليمان داود﴾ لا تعني وراثته لعلم أو نبوة، لأن ذلك ليس مما يورث بشكل تلقائي، لأن العلم يكتسب بالتعليم، والنبوة تكون باصطفاء الله لبعض خلقه ولا تكون بالميراث، ويزداد الأمر وضوحاً إذا عرفنا أن سليمان كان عالماً ونبياً في زمن أبيه داود، فلا معنى ليرث من بعده العلم والنبوة، فقد حدثنا القرآن أنه كان يأتي الخصمان إلى سليمان فيحكم بطريقة معينة، ويأتیان إلى داود فيحكم بطريقة أخرى، وهذا قوله

تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعِلماً﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، فالله هنا رجّح أسلوب سليمان على أسلوب داود، وإن كان المنبع واحداً، وبهذا فلا يصدق أن سليمان ورث العلم عن داود، فلقد كان عالماً في حياة أبيه، وبعد مماته كان عالماً من خلال إفاضة الله عليه العلم ومن خلال جهده في تحصيله.

ولو قيل إن سليمان ورث النبوة عن داود، لقلنا إن النبوة ليست إراثاً بل هي لطف يعطيه الله من يشاء، فإذا كان الله قد أعطى النبوة لداود ولسليمان، فلا يعني ذلك أن سليمان ورث النبوة عن أبيه، فهي لا تورث، فسليمان أصبح نبياً على الأساس نفسه الذي صار به داود نبياً، وبالتالي فليس كل ابن نبى نبياً، وإنما قد يجعل الله بعض أولاد الأنبياء أنبياء، وقد يكون بعض أبناء الأنبياء فسقة وكفرة كابن نوح.

وهذا هو المراد من قول زكريا: ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضىاً﴾ [مريم: ٥-٦]، فالمقصود هنا الإرث الطبيعي فيما يرثه الأبناء من الآباء، والدليل على ذلك:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ [مريم: ٥]، وهم الأقرباء، حيث إن النبوة لا يخاف عليها من الأقرباء أن يسلبوها وإنما يخاف على المال من ذلك. وأما النبوة فيخاف عليها من الكفرة والعصاة، سواء كانوا من الأقرباء أو من غيرهم.

وثانياً: نرى زكريا يتحدث في آية أخرى عن الموضوع نفسه، حيث

يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، ولم يتحدث عن أية صفة أخرى، فهو طلب ولدًا طيباً وحسب، ما يدل على أن قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴿يراد به الولد الذي يرث ما أتركه أي أن يكون وليّ ولدًا، لأن من خصائص الولد بالنسبة للأب هو أنه الوارث له، فحينما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ فهذا يعني أنه يطلب ولدًا طيباً يرثه في ما ترك.

وثالثاً: لو فرضنا أنه قال: هَبْ لِي نَبِيًّا، فما معنى ﴿وَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، فهل يعقل أن يكون هناك نبي غير مُرضٍ عند الله سبحانه وتعالى؟ فعندما يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴿، فكأنه يقول: رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا طَيِّبًا يحمل صفة الولي في كونه وارثاً لأبيه، وإلا لو كان المقصود الولد الذي يرث النبوة والعلم، فما علاقة هذا بقوله: ﴿وَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؟

فهذه الوجوه الثلاثة تعني أن المراد هنا هو الإرث الطبيعي الذي يتميز به الأولاد بالنسبة لأبائهم، وهو إرث ما عند الأب، وليست المسألة هي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد إرث المال لاهتمامه بالمال وأهميته عنده، لكن هذه الخصوصية إنما ذكرت ليتعين المطلوب، وهو أن الولي هو الولد وليس عمًّا أو خالاً أو غير ذلك، فهي ضيّقت مفهوم الولي لتحصره بالابن فقط، وعلى هذا الأساس كان استدلال الزهراء (ع) التي أرادت أن تقول لأبي بكر - بكل موضوعية واستدلال علمي - إن الله تحدّث عن أن أبناء الأنبياء يرثون آباءهم، فلماذا لا أرث أنا أبي؟

وتبقى هناك آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فقد يقال: ما علاقتها بالإرث حتى تستشهد بها الزهراء (ع) في مطالبتها بفدك؟

والجواب أن هذه الآية التي وردت في مقام الوصية هي الآية الأولى - في ترتيب النزول - التي تحدثت عما يتركه الميت من بعده، وذلك قبل تشريع الإرث، والآية أرادت أن يأخذ الأقربون الخير الذي يتركه المورث والذي يمتد من خلال الوصية في الإرث، وذلك في علاقة الأبناء بما تركه الآباء، بناءً على القول الذي يقول إن آيات الإرث ناسخة لآيات الوصية.

ثم تصنيف الزهراء (ع) بعد أن قدّمت القرآن أمام دعاوها: «وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي»، أي أنكم تدّعون أنه ليس لي مكانة ولا منزلة ولا إرث من أبي «ولا رحم بيننا»، فكأنني - وهذا هو تصوركم - أجنبية عنه، «أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها»؟!

اقرأوا القرآن وسترون أنه عندما يتحدث عن خط عام ويخصص بعض الناس ويخرجهم عن العموم، فلا بد أن يذكر ذلك في آية أخرى، لأنه إذا كان هناك خاص وعام في التشريع، فعندما يذكر القرآن العام لا بد أن يذكر الخاص أيضاً، لا سيما إذا كان هذا الخاص يتعلق بشخص أو بأشخاص معينين.

«أم تقولون إن أهل ملّتين لا يتوارثان»، أم هل تقولون إن الكافر لا يرث المسلم لأن أهل الملّتين لا يتوارثان «أولست أنا وأبي من أهل ملّة

واحدة» ، فأنا مسلمة وأبي مسلم وهو نبي الإسلام؟!

«أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي» ، فأنتم تقولون إن آية الإرث لا تشمل النبي(ص)، وعلى ذلك فهي لا تشملني بالتبعية، فلو كانت المسألة كما تقولون، أليس النبي الذي أرسله الله بالقرآن هو أعلم بشمولية الآية القرآنية؟ وإذا كانت هناك خصوصية تخرجه منها أفلا يجب أن يكون عالماً بذلك، وإذا كان عالماً به فلماذا لم يحدثني عنه؟ أليس من المفروض أيضاً أن يكون ابن عمي علي(ع) عالماً بذلك وهو القائل: **«علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»^(١)، لا سيما إذا كانت المسألة تخصّه بالذات، لأنها تخصّ زوجته، وهو سوف يتصرف من خلال تصرف زوجته أو إذنّها بهذا الإرث، وقد قال النبي(ص) من خلال ما يرويه السنّة والشيعة: **«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»**^(٢).**

وعلى ضوء ذلك يمكن ملاحظة أن الزهراء(ع) كانت تتحدث بلغة علمية فقهية موضوعية قرآنية.

«فدونكها» أي خذها **«مخطومة مرحولة»** ، والخطام الذي يوضع في أنف الناقة لجرحها، ومرحولة من الرحل، وهو شبيهه بالسرج الذي على الفرس، أي خذها كاملة، فسوف **«تلقاك يوم حشرك»**، لأنه في يوم القيامة لا بد لكل إنسان أن يحتج بما لديه، **«فنعلم الحكم الله»** فإذا لم أجد من يأخذ

(١) راجع فضائل الخمسة، ج: ٢، ص: ٢٣١-٢٣٢، وقد تقدم نقله عن مصادر أخرى.

(٢) م: ٢، ج: ٢، ص: ٢٥٠، نقله عن عشرات المصادر.

لي بحقي اليوم فالله تعالى لا يضيع عنده حق، «والزعيم محمد والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم». فهي هنا تتكلم بلغة القرآن في إثارة المسؤولية من خلال إثارة ما سيلاقيه الإنسان يوم القيامة.

العهد المسؤول:

«ثم رمت بطرفها نحو الأنصار»، لتبيّن لهم أنهم أعطوا العهد لرسول الله (ص) في أن يحفظوه، والمرء يحفظ في ولده، «يا معشر النقيبة» أي الفتية «وأعضاء الملة» أي أعوان الملة «وحضنة الإسلام، ما هذه الغميمة في حقي»، أي المطعن في حقي «والسنة عن ظلامتي»، أي لماذا أنتم ساكتون عن ظلامتي كما لو كنتم نائمين «أما كان رسول الله (ص) أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟! سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة»، وهذا مثل يضرب لمن يخبر بكيئونة الشيء قبل وقته، وأصل المثل كما في القاموس أن رجلاً كانت لديه ناقة عجفاء وكان رغامها يسيل من منخريها لهزالها، فقليل له ما هذا الذي يسيل: قال ودكها أي الدم، فقال السائل: «سرعان ذا إهالة»، تعبيراً عن هذا الرغام الذي ينزل من أنف الناقة، فهي (ع) تريد أن تقول لماذا استعجلتم إحداث البدع وترك السنن والأحكام وتخاذلتم عن نصره الحق «ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول»، فأنتم تستطيعون أن تأخذوا لي بحقي «أقولون مات محمد (ص)، فخطب جليل استوسع وهنه» أي اتسع خرقة، لأن الوهن هو الخرق، «واستنهر فتقه» أي اتسع

«وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال» أي قلت وضافت «وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى»، والنازلة هي الأمر الشديد، «لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة»، أي الداهية «أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتمكم، في ممساكم ومصبحكم (يهتف في أفنيتمكم) هتافاً، وصراخاً، وتلاوة، وألحاناً» أي أنه أعلن ذلك في الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ «ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾» [آل عمران: ١٤٤].

تقريع الأنصار:

«إيها بني قيلة» مصطلح يطلق على الأنصار «أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنندي ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة»، أي مع ما عرفتموه وتعرفونه، فلقد خبرتموه جيداً «وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة» أي الدرع «توافيكم الدعوة فلا تجيبون» دعوتنا «وتأتكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت»، باعتبار أنهم كانوا من الكرماء ومن الطيبين «والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت»، لأن الله اختارهم ليكونوا أنصاراً لرسوله «قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم»، والمراد

بالبهم الشجعان، «لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون»، أي على ما كان عليه العهد في زمن النبي (ص)، «حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك» إلى أن انتصر الإسلام واستطاع أن يمتد في المنطقة والعالم، «وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق - اجتمع - نظام الدين، فأئى حِزَم بعد البيان» بعد أن تبين الأمر ووضح بشكل جلي، أي كيف تتركون سبيل الحق بعد أن تبين لكم «وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام»، فكأنها تستنهض الروح الإسلامية التي كانوا عليها، فلقد كانوا يهرعون عندما يهضم أي حق «وأشركتم بعد الإيمان؟! بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض» أي إلى سعة العيش «وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض» أي أبعدتم الشخص الذي يملك الشرعية «وخلوتم بالدعة» أي الراحة والسكون «ونجوتم بالضيق من السعة، فمجبتم ما وعيتم» أي ما طرحتموه «ودسعتم الذي تسوغمتم» أي تقيأتم ما أكلتموه، فكأنكم تقيأتم الوعي الإسلامي الذي جهد أبي في زرعه في نفوسكم وعقولكم «فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد، ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني»، فأنا أعلم أنني أتكلم ولا فائدة في كلامي، لأنكم سكنتم إلى الواقع الذي أنتم فيه «بالخذلة (بالجذلة) التي خامرتكم» وقد خذلتُموني «والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس»،

فلديّ مشاعر وآلام وأحزان أحاول أن أعبر عنها، «ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثّة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها» والاحتقاب هو حبل يشدّ به الرجل إلى بطن البعير، أي أمسكوها، فكأنها تريد أن تقول: شدّوها على أنفسكم وذواتكم «دبرة الظهر» والدبرة هي الجرح الذي يكون في ظهر البعير «نقبة الخفّ»، عندما يكون خف البعير رقيقاً يقال له نقبة، باعتبار أنه سهل النقب «باقية العار، موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنّما عاملون، وانتظروا إنّما منتظرون».

جواب أبي بكر:

إلى هنا تكون فاطمة الزهراء (ع) قد انتهت من خطبتها، وقد أجابها أبو بكر بعد الخطبة، فقال: «يا بنت رسول الله، لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، (و) رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، إن عزوانه - أي نسبناه - وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلاء، أثره على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبّكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلّتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله (ص) ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وإنّي أشهد الله وكفى به شهيداً، أني سمعت

رسول الله (ص) يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة، ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا يحكم فيه بحكمه، وقد جعلنا ما حاولته - أي ما أردته من فذك - في الكراع والسلاح، يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم أنفرد به وحدي، ولم أستبد بما كان الرأي عندي، وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك - أي أعطيك مما لدي - لا تزوى - لا تمنع - عنك ولا ندخر دونك، وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا ندفع مالك من فضلك، ولا يؤضع من فرعك وأصلك، حكمك نافذ في ما ملكت يداي - أمّا فذك فليست لي - فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك (ص)؟!

ردّ الزهراء (ع) :

فقالت (ع): «سبحان الله، ما كان أبي رسول الله (ص) عن كتاب الله صادقاً»، أي أن النبي (ص) لا يمكن أن يقول ما تقوله - يا أبا بكر - لأنه هو الذي جاء بالصدق وصدق به، وهو الذي بلغ كتاب الله إلى الناس، فكيف يمكن أن يخالفه في هذا الأمر فيقول ما تنسبه إليه «من أننا معاشر الأنبياء لا نورث»، مع أن كتاب الله يقول إن الأنبياء يورثون، كما تقدم من ذكر آياته؟

«ولا لأحكامه مخالف، بل كان يتبع أثره» أي أثر الكتاب «ويقفو سوره، أفجتمعون إلى الغدر اعتلاً عليه بالزور» أي مضافاً إلى غدركم بنا، تكذبون على رسول الله (ص) «وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من

الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً، يقول: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، ويقول: ﴿وورث سليمان داود﴾، فبين الله عز وجل في ما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة المبطلين، وأزال التظني «أي كل ظن على خلاف ذلك» والشبهات في الغابرين، كلاً، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون».

تعقيب أبي بكر:

فقال أبو بكر: «صدق الله ورسوله وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين وعين الحجة، ولا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت، غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر، وهم بذلك شهود».

ردّ الزهراء (ع) مجدداً:

فالتفتت فاطمة (ع) وقالت: «معاشر المسلمين المُسرّعة إلى قيل الباطل، المغضية - الساكتة - على الفعل القبيح الخاسر، أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها. كلاً، بل ران على قلوبكم» أي أن هناك حاجزاً بين قلوبكم وبين الانفتاح على الحقيقة «ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأوّلتم، وساء ما به أشرتكم، وشرّ ما منه اغتصبتكم، لتجدنّ والله محمله ثقيلاً، وغبّه وبيلاً، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه من (البأساء و) الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا

تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون».

ثم عطف على قبر النبي (ص) وقالت :

قد كان بعدك أنباء وهنبئة لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
إلى آخر أشعاره التي تقدمت.

هذه هي قصة الزهراء (ع) في خطبتها البليغة المتنوعة في مواضيعها وأسرارها، والتي تدلّ على مكانتها الرفيعة، وما كانت (ع) تملكه من علم ووعي بالإسلام كله عقيدةً وشرعيةً، وما كانت تملكه من وعي للواقع وفهم للناس آنذاك ، وما كانت عليه من فهمٍ للقرآن الكريم في حججه وبراهينه كلها، وما تحلّت به من قوة في المنطق وصلابة في الحق وشجاعة في التحدي.

إن هذه الخطبة تقدم لنا الزهراء (ع) في هذا الموقع العلمي الروحي المنفتح على الحقيقة كلها وعلى الله ورسوله وكتابه، فإذا أردتم أن تتعرفوا على الزهراء (ع) فاقرأوها في كلماتها.. واقرأوها في سيرتها.. واقرأوها في جهادها.. واقرأوها في مواقع التحدي.. واقرأوها كلاً متكاملاً، لتكون قدوة لنا في الروحانية والعلم والمسؤولية والجهاد بالكلمة والموقف.

إن مشكلتنا هي أننا نفهم الزهراء مجرد مأساة، مع أنها تمثل فرح العلم والروحانية والروح والجهد، لأنها كانت ابنة رسول الله (ص) عقلاً وروحاً وفكراً.. كان عقلها من عقله، وقلبها من قلبه، وعلمها من علمه،

وحياتها في خط حياته ..

هذه خطبة الزهراء (ع) ما مع تشتمل عليه من بلاغة وحكمة . ولا غرو في ذلك ، فهي ربيبة القرآن قمة البلاغة والحكمة ، وهي ابنة محمد (ص) سيد الحكماء والبلغاء ، وهي زوجة علي (ع) الذي سنّ للبلاغة نهجها .

ذيلٌ مختلق :

وقد جاء في بعض الروايات ذيلٌ لهذه الخطبة يشتمل على كلمات تُجلّ الزهراء أن تكون قد تلفظت بها ، لأنها شتائم لأمير المؤمنين ، وهذا ما نجزم بعدم صدوره عنها (ع) ، لا لعصمتها فحسب ، بل لأن علاقتها بأمير المؤمنين التي كانت كأصفي ما تكون العلاقات ، ولأن معرفتها بأن علياً يتصرف طبق التكليف الشرعي ووصية الرسول ، تفرضان تكذيب هذا الذيل وما جاء فيه من كلمات التقرير لعلّي (ع) ، كما أشرنا إلى ذلك في ما سبق ، ومما جاء في ذيلها الكلمات التالية :

يا بن أبي طالب ، اشتملت شملة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين . المتهم .، نقضت قادمة الأجل . قادمة بمعنى قوادم الطير وهي ريشه ، والأجل : الصقر .، فخانك ريش الأعزل . ما لا يقدر على الطيران .، هذا ابن أبي قحافة يبتزني . يسلبني . نحلة أبي ، وبلغة . البلغة : ما يتبلغ به من العيش . ابني ، لقد أجهد في خصامي ، وألفيتة . وجدته . ألدّ في كلامي ، حتّى حبستني قيلة . وهم الأنصار . نصرها ، والمهاجرة وصلها ، وغضّت الجماعة دوني طرفها ، فلا دافع ولا مانع ، خرجت كاظمة ، وعدت راغمة ، أضرعت . خضعت ،

والخطاب لعلي - خدك يوم أضعت حدك، افترست الذئاب وافترشت التراب،
ما كففت قاتلاً ولا أغنيت طائلاً - أي ما فعلت شيئاً نافعاً - ولا خيار لي، ليتني
متّ قبل هنيئتي ودون ذلّتي، عذيري - نصيري - الله منه - من أبي بكر - عادياً -
متجاوزاً - ومنك حامياً، ويلاي في كل شارق، ويلاي في كل غارب، مات
العمد ووهن العضد، شكواي إلى أبي وعدواي - طلبي الذي أستعدي به - إلى
ربي ..^(١).

(١) عوالم الزهراء، ص: ٤٧٧، نقلاً عن الاحتجاج. والملفت أن هذا الذيل غير موجود في بلاغات النساء.

الخاتمة

- دروس الزهراء (ع)
- الأسئلة والأجوبة
- قصيدة: هذه هي الزهراء (ع)

في هذه الخاتمة نتعرض لثلاثة أمور:

الأول : وفيه شبه تلخيص للدروس والعبر التي يجب أن نأخذها من مدرسة الزهراء (ع).

الثاني : إدراج مجموعة من الإجابات عن أسئلة متنوعة ترتبط بالزهراء (ع) بشكل أو بآخر، وربما وجد القارئ فيها بعض الأفكار التي تقدّم بيانها في مطاوي الكتاب، ولكننا ولوجود بعض الأفكار الجديدة، ولخصوصيات في الأسئلة نفسها، وإضافات أخرى مع وجود فوائد أخرى للقارئ، حرصنا على أن ندرج الإجابات في الكتاب.

الثالث : إدراج قصيدة شعرية ترتبط بموضوع الكتاب، وهو الحديث

عن الزهراء القدوة وحياتها وجهادها في سبيل الله سبحانه ...

دروس الزهراء (ع)

في ثنايا المطالب السابقة، تعلّمنا الكثير من الدروس من مدرسة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، واستفدنا من تعاليمها وانتفعنا من مواعظها وخطبها، والآن ونحن في نهاية هذه الزيارة لسيدتنا فاطمة، لا بد أن نذكّر ونشير إلى جملة من الدروس التي لا بد أن نتقنها جيداً من تعاليم هذه الإنسانية العظيمة، ليكون ولاؤنا لها ولأء حقيقياً وحبنا لها صادقاً، لأن الحب ليس مجرد نبضة قلب وخفقة شعور، بل هو - مضافاً إلى ذلك - التزام صادق وعمل وممارسة، وإليك بعض هذه الدروس التي مرت الإشارة إلى معظمها إن لم نقل كلها، ولكن أحببنا التذكير بها وجعلها خلاصة لسيرة هذه الإنسانية العظيمة.

١ - كونوا للإسلام:

إن نداء فاطمة (ع) للمؤمنين والمؤمنات هو أن يكونوا للإسلام بعقولهم وقلوبهم وعواطفهم وحركاتهم وأفعالهم وأقوالهم وكل حياتهم، كما كانت هي للإسلام في كل ذلك رغم حياتها القصيرة.

فقد كانت للإسلام عندما وقفت مع رسول الله (ص) وخففت عنه الأذى الذي لحقه من المشركين، وكانت آنذاك في عمر الطفولة، وقد احتضنته وخففت عنه الهموم والآلام حتى قال عنها إنها «أم أبيها».

وكانت للإسلام عندما عاشت مع أمير المؤمنين (ع) ورعته وخدمت بيتها وأولادها بما يرضي الله ورسوله.

وكانت للإسلام عندما بذلت وأنفقت وجاهدت في سبيل الله .. وكانت للإسلام بكل وجودها وكيانها وحياتها. هذا هو نداء فاطمة (ع): كونوا للإسلام واعملوا من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى.

نداؤها: أن هناك أكثر من قضية تنتظركم على طريق الإسلام، فإذا كان الموقف يستدعي الجهاد فجاهدوا، وإذا كان يفرض أن تقفوا وتتوحدوا وتجمّدوا كل خلافاتكم بالرغم من كل مآسي التاريخ وآلامه فافعلوا، وليكن الهدف الكبير والعنوان الأساس الذي تقدّسونه هو الإسلام لا مذاهبكم الضيقة وعصبياتكم المختنقة وأنانياتكم القاتلة. اعملوا من أجل الدعوة إلى الله ودينه الذي ارتضى ليكون الدين هو الأقوى والأعزّ والأرفع من خلال ما تطرحونه من فكر وما تتحركون به من خطوات.

٢ - الجار ثم الدار:

لقد مرّ معنا أن الزهراء (ع) كانت تقوم ليلها وتدعو للآخرين ولا تدعو

لنفسها، ولما سألها ابنها الإمام الحسن (ع) عن ذلك أجابته: «يا بني، الجار ثم الدار».

إن قولها هذا يعني أنها كانت تعيش هموم الناس قبل همومها، وآلامهم قبل آلامها، وكانت تتطلع إلى أحلامهم قبل أن تتطلع إلى أحلامها الشخصية.. وأن يصل الإنسان إلى هذا المستوى الذي يجعله منفتحاً على هموم الناس قبل أن ينفث على همومه، مع أنه مثقل بالآلام والهموم، فتلك قمة الإنسانية والروحانية، وتلك هي قصة أصحاب الرسالات الذين يفكرون بالناس قبل أن يفكروا بأنفسهم، وهي قصة صعبة، وقد سقط الكثيرون ممن كانوا يحملون الرسالة في حركتهم، سقطوا عندما تحولت الرسالة عندهم إلى جسر يعبرون من خلاله إلى تحقيق رغباتهم ونزواتهم..

وإننا نكرر دائماً القول: بأننا لن نكون رساليين إذا حولنا الرسالة إلى مهنة ولم نعشها كقضية ورسالة، ولن نكون رساليين إذا لم نحب الناس الذين يعيشون معنا في ساحة الرسالة، ولكي نصل إلى هذه المنزلة، يلزمنا أولاً تربية أنفسنا على محبة الناس، ومن ثم نربي من حولنا ومن يصله صوتنا على ذلك، لأن الإنسان الذي يحمل في قلبه البغض للناس، لن يستطيع أن يملك مفتاح قلوبهم، لأن مفتاح القلوب هو المحبة المنفتحة على إنسانية الإنسان، وقد جاء في كلمة الإمام أمير المؤمنين (ع): «احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك»^(١)، فقلع الشر من صدرك هو الخطوة

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٧٨.

الأولى لتقتله من صدور الآخرين، فهناك قيمة إنسانية عليا تدعوك لتعيش هموم الآخرين: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك..» «أحب لأخيك ما تحب لنفسك وكره له ما تكره لها»^(١)، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٢). ولكن يوجد معادلة أخلاقية قيّمة أرفع من سابقتها ركّزها الإسلام وهي: «أنت والآخرون ولكن الآخر أولاً وأنت ثانياً».

أيُّ سموٍّ هو هذا السمو؟ وأي ارتقاء هذا الارتقاء؟ أن يعيش الإنسان هموم الآخرين وينسى همه، حتى إذا فرغ من همومهم ذكر همه، وهذا ما يميّز أهل البيت (ع): ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر: ٩]، ﴿ويطعمون الطعام على حبه - حب الطعام، أي وهم يشتهونه كما هو أحد التفسيرين - مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً. . ﴿[الإنسان: ٨ - ٩]، فقد قدموا المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم وهم لا يبعون إلا رضا الله، وهذه قصة أهل البيت (ع)، أنهم عاشوا لله سبحانه، وماتوا في سبيل الله سبحانه، وقد قالها علي (ع) عندما أخبره النبي (ص) بمقتله: «أوفي سلامة من ديني؟» فأجابه النبي (ص): «بلى، فقال (ع): إذا لأبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت علي»^(٣).

ولذا صرخ - عندما ضربه ابن ملجم بالسيف على أم رأسه - في فرحة

(١) بحار الأنوار، ج: ٧١، ص: ٢٢٢ و ٢٢٥.

(٢) م. ن، ج: ٦٩، باب: ١١٤، ص: ٢٥٧، رواية: ٢٠. ومستدرک الوسائل، ج: ١٢، ص: ٢٣٥.

(٣) هذا مضمون القصة، فراجعها في سيرة المصطفى، السيد هاشم معروف الحسني، ص: ٢٥٠،

دار القلم، بيروت، ط: ٣، ١٩٨١ م.

لشهادة، مع أن الآلام تفتك بجسده، صرخت روحه وروحانيته بين يدي ربه: «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله فزت ورب الكعبة»^(١)، لأن الإنسان السائر على خط الرسالة لا يعيش ضعيفاً أمام الألم، لأن فرحه بالله يشغله عن الآلام.

ولهذا رأينا الحسين (ع) كيف كان يحتضن ولده وهو يرفرف بين يديه كالطير المذبوح، ورغم قساوة هذا الموقف التي لا تدانيها قساوة، قال وهو يشعر بالفرح الروحي: «هُونَ ما نزل بي أنه بعين الله»^(٢)، فما دام الله يراني وأنا أجاهد وأضحى وأقدم أولادي قرابين ويمتلئ جسدي بالجراحات الجسدية، فلا يهم كل ذلك ما دام أنه بعين الله.

وهكذا كانت السيدة الزهراء (ع) تفكر بالناس قبل نفسها، وبالجار قبل الدار، لتعطينا درساً بليغاً حاصله: أن على الإنسان - ذكراً كان أو أنثى - أن يتخلص من أسر ذاته ولا يعيش في سجن الذات.

قصة ابن طاووس:

وقد قرأت للسيد الجليل ابن طاووس صاحب كتاب «إقبال الأعمال» في أعمال ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، وهي ليلة القدر على أصح الروايات، ما مضمونه: فكرت بالأعمال المروية ليلة القدر، فوجدتها كثيرة لا أستطيع أن أقوم بها جميعاً، ففكرت بأن آتي بأهم الأعمال وأولاهها،

(١) بحار الأنوار، ج: ٤٢، ص: ٢٣٩.

(٢) م. ن، ج: ٤٥، ص: ٤٦.

فوجدت أن الدعاء من أهم الأعمال، ففكرت أن أبدأ بالدعاء لأبويّ، لكنني رأيت أنهما مسلمان مؤمنان صالحان، وذلك يشفع لهم عند الله سبحانه، ثم فكرت أن أبدأ بسائر المسلمين والمسلمات، فرأيت أن إسلامهم يشفع لهم عند الله فيغفر لهم ربهم ويعفو عنهم لأنهم آمنوا، وإن كانوا قد ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾، لكن ﴿عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ١٠٢]، ثم يقول: فكرت أن أبدأ بالكفار والجاحدين لنعم الله والمستخفين بحرمة، فأخذتني الشفقة عليهم لأنهم لا يرتبطون مع الله برابط يمكن أن يكون شافعاً لهم، وقلت في نفسي إن هؤلاء لا يتمسكون بأي حبل من حبال الله، فعليّ أن أبدأ «ليلة القدر» هذه بالابتهاال إلى الله أن يهدي هؤلاء ويفتح عقولهم على الحق ويحرك خطواتهم في طريق الاستقامة، لأن جنايتهم على الربوبية أشد من جناية العارفين بالله.. يقول: ولما فرغت من الدعاء لهم دعوت لأهل التوفيق والإسلام ثم دعوت لنفسي ومن يهمني أمره^(١).

هكذا يجب أن يكون شيعه أهل البيت (ع)، أن يفتح الواحد منهم قلبه للناس بالمحبة والرحمة.

٣- الثبات في المواقف:

نتعلم من حياة الزهراء (ع) وسيرتها الثبات في المواقف والصبر في

(١) القصة منقولة بالمعنى، ولترجع في إقبال الأعمال، ج: ١، ص: ٣٨٤، تحقيق: جواد القيومي، قم- إيران، ١٤١٤ هـ.

الشدائد، إذ لم يشغلها مرضها وألمها وحزنها على رسول الله (ص) بعد وفاته عن الوقوف مع الحق لتدافع عنه بكل ما آتاه الله من قوة، فوقفت وخطبت وتكلمت واحتجت بكل الوسائل لإثبات حق الإمام أمير المؤمنين (ع)، حتى أنها واصلت الاحتجاج إلى ما بعد وفاتها عندما أوصت بأن تدفن ليلاً ويعفى قبرها ولا يشارك في تشييعها الذين ظلموها، وعلينا أن نأخذ من ذلك درساً لنتعلم أنه إذا واجهتنا بعض المشاكل الشخصية أو الاجتماعية، فعلينا أن لا نجعل تلك المشاكل مبرراً للابتعاد عن مسؤولياتنا العامة أو الخاصة. كما أن الزهاء (ع) لم يشغلها كل اهتمامها ببيتها وزوجها وتربية أولادها عن القيام بواجبها الإسلامي بتعليم المسلمات والمسلمين أحكام دينهم وتعاليمه، وعن الحضور الفاعل في كل ساحات الصراع الجهادي والسياسي والثقافي.

٤ - شرعية العمل السياسي للمرأة:

عندما نستذكر الزهاء (ع) ونستعيد حركيتها في الواقع الإسلامي ووقوفها إلى جانب أمير المؤمنين (ع) ومواجهتها لكل الظلم الذي وقع عليه وعليها وخروجها إلى نساء المهاجرين والأنصار لتذكيرهم والاحتجاج عليهم ومخاطبتهم بالحقائق الإسلامية والقرآنية، إننا عندما نستعيد ذلك كله، فإننا نستوحي منه شرعية دخول المرأة في ساحة الصراع السياسي من موقع المسؤولية المنفتحة على الإسلام والمسلمين، لأن الزهاء (ع) هي المرأة المعصومة، وبالتالي فإن ما تقوم به من عمل وتتحرك به أو تتحدث به إنما يمثل شرعية بكل ما تعنيه الشرعية، كما أننا نستطيع أن نستفيد شرعية

العمل السياسي للمرأة من القرآن أيضاً، من خلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، فإن المعروف يتسع لكل عدل وكل حق في الحياة، والمنكر على عكسه تماماً، فالمعروف لا ينحصر بالصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات وأعمال الخير، كما أن المنكر لا ينحصر بشرب الخمر وأكل مال اليتيم وغيرها من المحرمات، بل هو يتسع لكل الظلم والباطل في الحياة.

إن المعروف والمنكر يتجاوزان ذلك ويتجاوزان معنى الحركة الفردية في واقع المسلمين ويمتدان إلى الحركة العامة والاجتماعية المتعلقة بقضايا المسلمين العامة. والآية الشريفة، كما نلاحظ، لم تقصر مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بالمعنى الذي ذكرناه للمنكر والمعروف - على الرجل، بل جعلت المرأة في صف الرجل والمؤمنين إلى جانب المؤمنات في هذه المهمة، وهي مهمة الأمر بالمعروف الذي ينطلق من خلال يد تتحدى وكلمة تثور وقلب يرفض، ومهمة النهي عن المنكر، سواء المنكر السياسي أو الشرعي أو العقيدي أو الاجتماعي، تماماً كما هي مهمة الأمر بالمعروف تشمل الرجل والمرأة معاً. ولهذا رأينا الإمام الحسين (ع) يقول وهو يحدد هدف ثورته: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»^(١)، فجهاد الإمام الحسين (ع) وثورته كانا أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وقد رأينا المؤمنين والمؤمنات معه في كربلاء

يشاركون في أداء هذه المهمة، كما رأينا المؤمنين والمؤمنات من قبل ذلك في مكة والمدينة يقفون مع رسول الله (ص) في كل ساحات الصراع، فكان رسول الله ومعه خديجة، وكان علي ومعه فاطمة، وكان الحسين ومعه زينب التي سارت على نهج أمها فاطمة وتحركت إلى كربلاء ومن ثم الكوفة والشام وقامت بوظيفتها على أتم وجه وجسدت كلمة أبيها أمير المؤمنين (ع): «أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر»^(١).

هكذا كانت الزهاء (ع) رائدة في العمل السياسي والجهادي من خلال معارضتها وثورتها واحتجاجها وخطبها في المسجد - مسجد رسول الله - ومع نساء المهاجرين والأنصار، وهكذا ينبغي أن تكون المرأة المسلمة مقتدية بالزهاء (ع)، غير منشغلة بنفسها وزينتها عن القيام بواجباتها الاجتماعية والسياسية.

٥ - مسؤولية المرأة الثقافية:

عرفنا ممّا مرّ معنا من حياة سيدتنا فاطمة الزهاء (ع) أنها كانت تكتسب العلم عن أبيها رسول الله (ص)، حتى أنها كانت أول مؤلفة في الإسلام، وعرفنا أنها كانت تلقي دروساً إسلامية على نساء المهاجرين والأنصار اللواتي كنّ يجتمعن عندها لغرض التعلم.

والدرس الذي نستفيد منه من ذلك هو أن على المرأة المسلمة والمثقفة

(١) الكافي، ج: ٥، ص: ٦٠، رواية: ١٦.

إسلامياً أن تجعل حياتها في خدمة الدعوة الإسلامية والتبليغ، وهذا يفرض عليها أولاً أن تنمي ثقافتها الإسلامية وتغنيها بالمعارف الإلهية المتنوعة، ومن ثمّ تعمل على القيام بوظيفة الدعوة والتبليغ بما يتناسب مع حجابها والتزامها الشرعي والتزاماتها الزوجية، كما قامت سيدتنا فاطمة (ع) بواجبها خير قيام، ولم تمنعها أعباء البيت وتربية الأولاد من القيام بهذه المسؤولية، ولم يمنعها كون زوجها أمير المؤمنين (ع) مجاهداً في سبيل الله يخرج مع رسول الله من غزوة إلى غزوة ومن حرب إلى أخرى ومن ثم يأتيها وهو مثقل بالجراحات والدماء وتقوم هي بمداواته وتنظيف جروحه وغسل ثيابه وسيفه من الدماء، لم يمنعها ذلك ولا غيره من المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتقها، من أن تقوم بوظيفة التبليغ والدعوة وإرشاد المسلمات إلى أحكام دينهنّ وتعاليمه، والقيام بمسؤولية العلم في حياتها.

ونستوحي من هذه المسألة أن المرأة لا بد أن تتحمل مسؤولية العلم، مسؤولية ما تقرأ وتدرس وتعقل، مسؤولية أن تكتب بحسب إمكانياتها في الكتابة، ومسؤولية أن تنقل ما تعلمه إلى الآخرين ما أمكنها ذلك، كما كانت الزهراء تنقل علمها للآخرين، إننا نتساءل: لماذا لا يكون لدينا كاتبات مسلمات؟! مع أن في نساءنا من الطاقات الكامنة والدفينة ما لو تفجرت لقدّمت للمكتبة الإسلامية وللأمة الإسلامية الكثير من الكتب النافعة والمفيدة، إننا ندعو النساء المؤمنات إلى محاولة تدريب أنفسهن على الكتابة، فقد تكتشف أكثر من واحدة أنها مشروع كاتبة مستقبلية. وإنني أذكر

الشهيدة المجاهدة بنت الهدى، فقد عايشناها في النجف وكانت في البداية تكتب بشكل عادي وبسيط جداً، حتى أننا كنا نصحّ لها بعض ما تكتبه، وأذكر أنني بعدما نشرت قصيدتي «الأساليب القديمة» في مجلة «الأضواء» في سنة ١٣٨٠ هـ، أرسلت إليّ بعض قطع الشعر التي تحاكي فيها تلك القصيدة، وربما كانت عندها بعض الأخطاء كأكثر المبتدئين في الكتابة، ولكنها كانت مثابرة على الدرس والتمرّن على الكتابة والتقدم إلى الأمام، حتى وصلت وأصبحت من الكاتبات المسلمات ينتفع المسلمون والمسلمات بكتابتها.

إن على المرأة أن لا تحتقر طاقاتها أو تستصغر إمكاناتها، فقد يكتشف الإنسان نفسه بالتجربة، فإذا لم يجرب فلن يكتشف نفسه.

إننا ندعو إلى حركة المرأة الفكرية والثقافية وحركة المرأة الأدبية وحركة المرأة السياسية والجهادية وحركة المرأة في خط الدعوة إلى الله سبحانه، وأن تستهدي الزهراء في كل خطواتها، لأننا عندما ندرس شخصية الزهراء، فإننا نجد أنها تمثل الشرعية في كل ما عاشته وانطلقت فيه ودخلت فيه من ساحات، لهذا علينا أن ننطلق لناخذ إيجابيات هذه المرأة العظيمة - وكلها إيجابيات - في حياتها الحركية، حتى نصل إلى مرحلة يتكامل فيها الرجال والنساء في المجتمع الإسلامي، فلا تكون المرأة كميّة مهملة على هامش الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي العام للرجل، فالله تعالى يقول: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض - أولياء في التعاون والنصر والتكامل - يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

٦ - نداء فاطمة للمرأة:

إن نداء فاطمة للمرأة في العالم هو: كوني إنسانة ولا تكوني مجرد أنثى تتحرك بأنوثتها لتسقط إنسانيتها، كوني إنسانة مع الله ومع الناس، إنسانة بالمعنى الروحي والعقلي والحركي، وكوني رسالية تفكر بالرسالة لا بالذات، فتقدم الذات فداءً للرسالة.

وإن الإسلام يقول للمرأة في العالم، وكذلك للرجل، هذه فاطمة سيدة نساء العالمين لا بنسبها، ولكنها سيدة نساء العالمين بفضائلها، ولهذا انطلقوا لتتعلموا منها كيف يكون الحب للإنسان والعطاء للإنسان وكيف تكون المسؤولية الثقافية وكيف تكون المواجهة والمعارضة للظلم والانحراف، ولتكنُ الزهراء(ع) قدوتكم في العبادة وقدوتكم في الأخلاق والجهاد والعطاء والإيثار.

إذا احتفلتم بالزهراء(ع) فليكن احتفالكم بها احتفالاً بالرسالة التي انفتحت عليها في كل حياتها، لأن الزهراء ليست دمة، بل هي موقف.. الزهراء ليست حزناً، إنها فرح الرسالة، فحتى ونحن نحزن عليها نفرح بها وبانتمائنا لها، وحتى ونحن نبكي عليها نبسم لها، لأن الله أرادنا أن نكون في حركة الرسالة كما قال الشاعر: «يغصّ بالدمع وهو يبتسم»، والرسالة فيها فرح وفيها حزن، فيها راحة وفيها تعب، فلننطلق مع عظمائنا رجالاً ونساءً من حيث كانوا مع الرسالة، لأن ذاتهم ذات رسالية، فلننطلق مع ذاتهم الرسالية لا ذاتهم الشخصية، وإن كانت الرسالة قد امتزجت بالذات والذات امتزجت بالرسالة عندهم.

الأسئلة والأجوبة

السبب في غموض شخصية الزهراء (ع):

■ شخصية الزهراء (ع) غير واضحة لدى الشيعة فضلاً عن غيره من المسلمين، فلماذا؟

● في تصوري، إن من أسباب ذلك أن الزهراء (ع) لا تثار إلا في جو المناسبة، ولا يثار غالباً جو الموقف وجو الحركة الرسالية التي قامت بها الزهراء (ع)، مع أننا نستطيع طرح الزهراء كسيدة لنساء العالمين وقدوة للنساء. إننا نطرحها كسيدة لنساء العالمين، لأن السيادة لا تنطلق من نسب فحسب، وإنما من خلال الخصائص، وإننا لا نجد امرأة كانت لها خصائص الزهراء في روحيتها، في إخلاصها لربّها، في ثقافتها ورسالتها، في تعليمها النساء وفي جهادها، لذلك فهي سيّدة من حيث عناصر السيادة الذاتية في شخصيتها، هي سيّدة من خلال حركتها في كل مواقفها، وهي سيّدة نساء العالمين، لأنها - وقد مضى عليها ما يزيد على أربعة عشر قرناً - لا تزال تلهم وتوحي وتعطينا الكثير من دروس الروح ودروس الفكر والجهاد، فالزهراء (ع) هي القدوة في كلّ شيء، لأنها الإنسانية الكاملة في كلّ شيء. وعلينا أن نقدّمها للعالم كله من خلال شخصيتها المتكاملة.

إيصال صوت فاطمة (ع) للعالم:

■ هل قصر الشيعة في إيصال صوت فاطمة إلى العالم الإسلامي؟ ولعلكم تقولون إنها وظيفة المسلمين، فلماذا إذاً نجد حضور فاطمة في ذهن المسلمين ضعيفاً، وحضور غيرها أوضح منها وأجلى؟

● إني أحب للشيعة أن يفكروا كمسلمين، لذلك علينا أن لا نفصل أنفسنا عن الإسلام، تعلموا أن تقولوا نحن المسلمون نفكر بهذه الطريقة، وإذا أردتم فنحن المسلمون في خط أهل البيت (ع)، لأن بعض الناس يستغرق في الكلمة فيحسب أن التشيع غير الإسلام.

أما قضية عدم حضور الزهراء (ع) في ذهن العالم الإسلامي، فأعتقد أن هناك نوعاً من الحضور، ولكن علينا أن نؤكد ونعمقه من خلال شرحنا لجهادها وعلمها ورسالتها، وأما أن غيرها قد يكون له من الحضور أكثر منها كبعض زوجات النبي (ص)، فالسبب في ذلك أن بعضهن انطلقت في ساحة الأحداث الكبيرة والظروف القلقة، والناس عادة تتحدث عن حركة الأحداث في تاريخ الشخص ولا تتحدث عن أحداث الروح والفكر والعلم الذي يحمله الشخص، لا سيما أن الأحداث التي عاشتها الزهراء (ع) كانت أحداثاً لا تلتقي مع توجهات بعض المسلمين، فحاولوا طمسها.

طهارة الزهراء (ع):

■ هل أن (آية التطهير): ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

ويطهركم تطهيراً ﴿[الأحزاب: ٣٣]﴾، تعني أن الزهراء (ع) طاهرة من كل خبث حتى من الدماء الثلاثة؟

● آية التطهير لا تدل على ذلك، وإنما تقصد الطهارة الفكرية والعلمية والروحية والأخلاقية.

درجة الزهراء (ع) الإيمانية:

■ كيف تسنى للصديقة الكبرى الزهراء (ع) أن تصل إلى أكمل درجة إيمانية وصلتها امرأة، هل كان ذلك بسبب النسب والوراثه، أم اللطف الإلهي وحده، أم أن هناك عوامل مشتركة؟

● كيف وأين عاشت الزهراء (ع)؟ لقد عاشت طفولتها مع الوحي الذي ينزل على أبيها رسول الله (ص) صباحاً ومساءً، فكانت تتحسس أجواء الوحي في الصباح وفي المساء، وكانت تعيش مع رسول الله (ص)، فتتعلم منه في كل يوم شيئاً، وكانت تعيش أخلاقه وروحانيته وابتهاالاته في الليل والنهار، وكانت، كما تحدثنا سيرتها، تخرج مع رسول الله في بعض غزواته وتلاحقه في حركة دعوته، وكانت تأخذ منه حناناً وتعطيه حناناً، وتأخذ منه أخلاقاً ويتمثل ذلك في أخلاقها، لذلك عاشت الزهراء (ع) في بيت رسول الله كل روحية رسالته وكل مفرداتها، ولم نعرف أن الزهراء تعلّمت عند معلّم أو قرأت عند شخص آخر، فكل ثقافتها كانت من رسول الله، وكل تربيتها كانت في أحضانه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أعطاه الله لطفاً من ألطافه ورحمة من رحماته، فتكاملت لها الصورة من جهدها عندما

تعلمت من رسول الله (ص) ومن لطف الله بها كما يلطف الله بأنبيائه وعباده الذين ارتضى، ولذا نراها عندما انتقلت من بيت رسول الله العائلي إلى البيت الثاني لرسول الله، وهو بيت علي (ع) الذي عاش مع رسول الله في الليل والنهار، عاشت مع علي (ع) روحانيته وفكره وصبره وجهاده وانفتاحه، واستطاعت أن تحقق لعلّي أعلى نموذج للبيت الإسلامي الذي يتنفس فيه الروحانية والجو الإسلامي كله.

وهكذا كانت فاطمة في سموها الفكري والروحي، صورته من رسول الله وانفتاحاً على علي (ع)، كانت إنسانة الطهر والنقاء والعصمة.

الفرق بين الزهاء (ع) والنساء:

■ ما الفرق بين فاطمة الزهاء (ع) وبين بقية النساء غير مسألة

العصمة؟

● الفرق أن فاطمة (ع) تملك من العمق الروحي في شخصيتها ما جعل منها رسالة متجسدة، بحيث إنك لا تستطيع أن تجد لها حياة شخصية تنفتح على لهوها وعبثها، والفرق بينها وبين بقية النساء أن الرساليات منهن كانت تأتي الرسالة من خارج ذاتهن، أما هي فكانت رسالتها تنبع من داخل عقلها وقلبها وروحها، لأنها عاشت حياتها كلها مع الرسالة وفي حضنها وفي كنف رسول الله، وانفتحت مع عنفوان الرسالة في بيت علي، وتحركت في عاطفة الرسالة مع الحسنين، لذلك هي لم تعش شيئاً غير الرسالة، وهذا هو الفرق بين العمق والسطح، وهذا هو الذي يجعل منها القدوة كل القدوة.

التشكيك بروايات موت الزهراء (ع):

■ يوجد بعض العلماء الذين يخطبون على المنابر والذين يدرّسون بعض الأخوة، يشككون بالروايات التي تتكلم حول السيدة الزهراء (ع) بالنسبة لسبب وفاتها، فما هو تعليقكم؟

● إن هذه القضايا يجب أن تبحث بحثاً علمياً، سواء من الذين يؤيدون هذه الفكرة أو الذين يعارضونها، إن هذه القضية تاريخية وخلافية، فبعضهم رأى ذلك والآخر رأى غير ذلك، فينبغي ألا تكون مثل هذه القضايا أساساً للغوغاء أو الكلمات غير المسؤولة، بل أن تكون أساساً للبحث والنقد التاريخي. وقد ذكرت أكثر من مرة بأن علينا أن ننقد ما عندنا بطريقة علمية موضوعية قبل أن ينقده الآخرون، لأننا عندما ننقده نفعل ذلك مع المحافظة على العناصر الأساسية لخط الإسلام وخط التشيع، بينما عندما ينقده الآخرون فإنهم ينقدونه بطريقة أخرى، وربما بكثير من التشويه.

غضب لله لا للذات:

■ كيف نوفق بين موقف الزهراء (ع) حيث رحلت وهي غاضبة على الشيخين ومنزعجة منهما، وبين موقف علي (ع) حيث بايعهما، فهناك من يلتبس عليه الأمر، فيرى موقف الزهراء انجراراً وراء العاطفة وأنها غضبت لذاتها وأن موقف علي (ع) كان عقلانياً؟

● إن موقف الزهراء (ع) هو موقف علي (ع). لقد وقف عليّ موقفاً

سلبياً رافضاً، كما وقفت الزهراء موقفاً سلبياً رافضاً، ثم لماذا وقفت الزهراء موقفاً عاطفياً؟ هل أن عاطفتها استجاشت على الخلافة لعلي أكثر من عاطفة علي على نفسه؟ لقد غضبت الزهراء للحق لا للذات، ووقفت للدفاع عن الحق كما وقف علي (ع) للدفاع عن الحق بكل عزيمة وقوة. ولهذا عندما نقرأ «نهج البلاغة»، نجد قوله (ع): «أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير»^(١)، كان هذا الكلام يمثل الاحتجاج من علي (ع) والرفض لما حصل . نعم، بعد ذلك رأى علي (ع) أن مصلحة الإسلام في الصبر «فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى»^(٢)، وقد صدرت عنه كلمة رائعة تفسّر لنا صبره (ع) ومراعاته للجو رغم رفضه لشرعيته، وذلك في رسالته إلى أهل مصر، وهي موجودة في «نهج البلاغة»، وإني لأحب أن يقرأها كل مسلم شيعي حتى يعرف خط علي (ع) في الواقع الإسلامي عندما تتحرك الفتنة والخلافات والمشاكل، فيقول علي (ع): «فما راعني إلا أنثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص)، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله - يعني إن بقيت على الموقف السلبي .. الموقف الرافض .. الموقف غير المتعاون ... أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ - لاحظوا كلمة «المصيبة»، فإنها تعبّر عن مدى إحساسه (ع) بمسؤوليته عن

(١) نهج البلاغة، الخطبة الشقشقية.

(٢) م.ن.

الإسلام - أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما زال كما يزول السَّراب أو كما ينقشع السَّحاب، فنهضت في تلك الأحداث، حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»^(١)، أي ارتاح، وكان يقول: «لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن بها جور إلا عليّ خاصة»^(٢).

وعندما رآه ابن عباس وهو يخصف نعله وهو أمير المؤمنين، اعترض عليه، لأن ذلك لا يناسب مقامه كخليفة، قال ابن عباس: فقال لي (ع): «ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال (ع): والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»^(٣)، إن إمرتكم تحملني عبثاً، فلا تتصوروا أنني أعتز بالإمرة بأنني صرت خليفة للمسلمين، فهذه النعل تفيدني أكثر من إمرتكم، فهي تقيني من الحرِّ والبرد «إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»، لذلك فإن الإمام عليّ (ع) كان يتحرك حيث تتحرك مصالح المسلمين، وحيث تكون سلامة المسلمين، فنرجو أن نفكر بمستوى الإمام علي (ع)، فإن علاقتنا به (ع) ليست السيف الذي ضرب به (عمرو بن عبد ود) أو الذي قسم به (مرحب) قسمين، إن علي بن أبي طالب (ع) موقف وفكر وحركة ومنهج، وعلينا أن نقرأه، أن نقرأ سيرته، فكره، علمه، أن لا نكون مثل الذين قال لهم: «سلوني قبل أن تفقدوني» فيقول له أحدهم: كم شعرة في رأسي.

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

(٢) م. ن، الخطبة: ٧٤.

(٣) م. ن، الخطبة: ٣٣.

إن بعضنا غير مستعد ليقراً «نهج البلاغة»، وغير مستعد أن يقبل أي موقف من مواقف علي(ع) إذا كان يتنافى مع عصبية.. إن الإسلام ليس عصبية، إنه فكر وموقف، وعلينا أن نعيش هذا الموقف، وأن نتزوّد بهذا الفكر.

سيادة النساء في عمر قصير:

■ كانت الزهاء(ع) قصيرة العمر، فكيف أصبحت سيّدة النساء، وهل تستطيع شاباتنا المؤمنات الاقتداء بها، وما هي عناصر القدوة في حياتها؟

● في بعض الأدعية: «اللهم اجعل حياتي قصيرة عريضة ولا تجعلها طويلة ضيقة»، فليست القضية هي أن تعيش مائة سنة، لأن بعض الناس قد يعيشون مائة سنة وعمرهم يتحرك في دهليز الأجواء الثقافية أو الروحية، بينما هناك أناس يعيشون عشرين سنة، ولكنك تشعر أن حياتهم كانت عريضة ممتدة، تؤتي أكلها كل حين.

وهناك بعض الناس يرون أن سنتهم تساوي عشر سنوات، وهناك من ترى أن عمرهم يساوي يوماً أو بعض يوم ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين﴾ [المؤمنون: ١١٣]، كم هو عمر السيد محمد باقر الصدر(رضي الله عنه)؟ ولكنه ترك لنا من التراث ومن الحركية والروحية والقدوة ما يمكننا أن نتجاوز به مئات السنين ونغتنى به، وكم من الذين عاصروه ممن عاشوا عشرات السنين ولكنهم ماتوا وبقي حياً.

والزهاء(ع) عاشت مع رسول الله(ص)، فأخذت منه في طفولتها

وشبابها كل ما استطاعت أن تأخذه، فكان نهارها وليلها معه، وكانت تسمع كل آية تنزل عليه، كما كانت تسمع كل كلمة يقولها للناس في الخارج، وكان يحدثها ويحدث عليها في الداخل، وكانت زوجة علي(ع) في شبابها، وكما كان علي(ع) مع رسول الله(ص) أعظم التلاميذ، كانت هي أيضاً أعظم التلميذات، وهي مع رسول الله(ص) في ما أخذته من علم وروحانية وحركية وانفتاح وإنسانية، حتى أنها كانت تخرج معه في حربه، ولذلك فإنها استطاعت في هذا العمر أن تختصر الكثير من السنين. وبهذا - مضافاً إلى لطف الله بها - كانت سيدة نساء العالمين والمؤمنين.

وعندما طرحها كقدوة، فإننا لا نتحدث عن اقتداء النساء فقط بها، بل هي قدوة للرجال والنساء معاً، لأن عناصرها كانت عناصر الإسلام، وعناصر الإنسان المسلم، لا المرأة وحدها، وإن كان للمرأة في حياتها دور كبير، فالمرأة المسلمة تستطيع أن تأخذ الكثير من الزهراء(ع) عندما تعرف كيف تملأ وقتها، وكيف تنفتح في طاقاتها على العلم والروحانية والحركة بحسب طاقاتها وإمكاناتها.

مناقشة مقولة للعقاد:

■ لماذا ناقش الشهيد الصدر(رضي الله عنه) مقولة (عباس

محمود العقاد) التالية عن فذك، حيث قال ما مفاده: «الزهراء أعظم من أن تدعى ما ليس لها، والخليفة أكبر من أن يأخذ شيئاً بالباطل والظلم».

هل لكم أن تناقشوا ذلك؟

● إن مشكلة الكثير من الباحثين أنهم يريدون أن يتحركوا في الصلح في ما لا صلح فيه، صحيح (أن الصلح سيد الأحكام)، فإذا اختلف اثنان في مسألة مالية فأنت تحلها بأن تعطي هذا نصفاً وذاك نصفاً، لكن عندما تكون القضية حقاً أو باطلاً، فلا إمكانية للصلح بل لا بد من الحسم، ولا بد أن يقف الإنسان إلى جانب الحق وإلا كان مع الباطل.

العقاد يقول إن الزهراء (ع) أعظم من أن تدعى ما لا تستحقه، وإن الخليفة أعظم من أن يأخذ شيئاً بالباطل والظلم، فإذا اتفقنا أن الزهراء (ع) أعظم من أن تدعى ما ليس لها، فإذا هي ادعت ما لها، وإذا ادعت ما لها فهي الصادقة والمصدقة بشهادة الله سبحانه وتعالى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] وبشهادة ابنة أبي بكر «ما رأيت أصدق منها إلا أباه»^(١)، فإذا كانت هي الأصدق فقولها الصدق، وإذا كان قولها الصدق فكل ما خالفه فهو كذب، وعلى ضوء ذلك، فكيف يجتمع هذا مع القول بأنه أعظم من أن يأخذ شيئاً من الباطل، فإن ثبوت الحق في الكلمة الأولى ينتج بطلان الكلمة الثانية.

حق الزهراء (ع):

■ نقل عنكم أن لا حق للزهراء (ع) في ما كانت تطالب به من فدك؟

● فدك حقيقة فاطمية وحقيقة إسلامية.

(١) تقدم ذكر المصدر.

استرجاع «فدك»:

■ يقال إنه لو كان لفاطمة الزهراء (ع) حق بـ«فدك» لأعاد الإمام عليّ هذا الحق لأصحابه في زمن خلافته، لأنه كان قادراً على ذلك؟

● إن قضية فدك لم تكن قضية مال عند علي (ع) وأهل البيت (ع)، كيف وعلي هو القائل: «وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظائنها في غدٍ جدث»^(١)، وإنما كانت فدك بنظرهم رمزاً للخلافة المغتصبة، فلما بويع علي (ع) بالخلافة لم ير مصلحة أن يتدخل بنفسه لاسترجاعها، حتى لا يتهم باستغلال الخلافة لمآربه الشخصية، وربما لأنه وجد أن استرجاعها سيخلق له بعض المتاعب من الذي صرخوا وا سنةً عمره، عندما غيرَ عليّ (ع) بعض المظاهر التي أدخلها عمر كصلاة التراويح.

المطالبة بـ «فدك»:

■ من المعروف بأن أهل البيت (ع) لا تهمهم الدنيا وما فيها، فما هو السر الذي جعل السيدة الزهراء (ع) تطالب الخليفة الأول بـ «فدك»؟

● كانت فدك حقاً للزهراء ، نحلة وعطية من رسول الله أو إراثاً منه، ومن الطبيعي أن تطالب بهذا الحق من دون أن يكون في ذلك إشارة إلى حالة من حالات الاهتمام بالمال والدنيا، فإن مطالبة الإنسان بحقه من خلال

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٤٥ .

حاجاته الطبيعية ومسؤولياته العائلية هو أمر شرعي طبيعي ومحبوب عند الله، هذا أولاً.

وثانياً كانت المطالبة بفدك جسر العبور إلى الخلافة، فإنها الحق الأصيل الذي تكون فدك إحدى مظاهره، ويقال إنَّ أحد خلفاء بني العباس قال للإمام الكاظم (ع) إنني مستعد أن أرجع إليك فدك فحددها، متصوراً أنها المنطقة الموجودة في الحجاز، فقال له الإمام: إذا عرفت لك حدود فدك فإنك لن تعطيني إياها؟ فقال الخليفة العباسي: ما حدودها؟ قال له: حدود فدك هي حدود البلاد الإسلامية كلها^(١)!

لذلك كانت فدك المنطلق ولم تكن الغاية، ويقال إنَّ «ابن أبي الحديد» في شرحه لنهج البلاغة سأل أستاذه: لماذا لم يعط «أبو بكر» فدكاً للزهراء ولو كانت للمسلمين لأعطوها لفاطمة؟ قال له: لو أعطيت فدك لطالبت بالخلافة لعلي، ولذلك رأى أن يقطع الأمر من أول الطريق حتى لا يمتد مطلبها إلى أبعد من ذلك، والله العالم.

إشارات البوطي:

■ سمعنا أخيراً درساً للدكتور البوطي يقول فيه بإنكار الكثير من الروايات والأحاديث والحقائق المذكورة من قبل أمّهات كتب الفريقين، ومنها أن الزهراء (ع) لا حق لها في «فدك»، لأن الرسول (ص) قال: «نحن

(١) تقدم ذكر مصدر هذه القصة.

معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، ويقول أيضاً: **إِنَّ سَيِّدَنَا عَلِيًّا** إذا كان معصوماً فإن مبايعته شرعية وليست خطأ، لأن المعصوم لا يخطئ؟

● نحن نريد لهذه القضايا أن تثار في أجواء علمية موضوعية حتى يمكن الوصول إلى نتيجة موضوعية في هذا المجال، ولهذا نقول: أما النقطة الأولى وهي قصة فدك، فإن الزهراء (ع) في مطالبتها بـ«فدك» أنكرت حديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث، الذي تفرد أبو بكر بروايته، حتى أن زوجات النبي (ص) لم يذكرن أنهن سمعن ذلك من النبي (ص). ثم إذا فرضنا أن هذا الحديث المنسوب للنبي (ص) صحيح، وهو أن الأنبياء لا يورثون، فمن هو الإنسان الذي ينطبق عليه هذا القول: هل هناك غير الزهراء وحدها التي كانت ترث النبي (ص)، بالإضافة إلى زوجاته اللاتي لهن جزء بسيط وهو الثمن، فهل يمكن أن تكون الزهراء (ع) الإنسانية الوحيدة التي ترث النبي بالقرابة وأن لا يكون النبي قد عرفها ذلك؟ والقضية كما نعلم تتصل بحياتها، وكان النبي يحبها أعظم الحب ويقول: **«فاطمة بضعة مني»**، فلو كانت لا ترث لأخبرها وجنبها المتاعب.

أما النقطة الثانية وهي قضية بيعة الإمام، فالواقع أن الإمام (ع) بقي على رأيه في مطالبة بحقه، ولكنه قال: **«لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن بها جور إلا علي خاصة»**، «فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ظمناً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم هذه»، فلم تكن القضية تنازلاً عن الحق، ولكنها كانت تمثل حماية

للإسلام وحفاظاً عليه، وهذا ما يجب أن نتعلّمه وأن لا يستغرق كل واحد منّا في ما لديه من أفكار ليثير العصبية والأجواء الحادة السلبية.. هذه نقطة أساسية، وتبقى للمسلمين خلافاتهم التي يجب أن يبحثوها بشكل موضوعي لا بشكل استعراضي أو بشكل حادّ عصبي، فذلك لا يفيد الإسلام والمسلمين، بل علينا أن نمارس خلافنا في الرأي كما مارسه الأولون، فقد مارسوه فيما لم يكن الاختلاف مضرّة للإسلام، حتى سارت المسيرة الإسلامية في طريقها المستقيم.

موقع الشخصيات التاريخية من واقعنا المعاصر:

■ هناك من يقول إنّ الحديث عن التاريخ وشخصياته عملية تحجّم دورنا المعاصر في حدود الماضي، في حين أنّ المطلوب هو أن نعيش الواقع بظروفه وأن نكيّف تطلعاتنا على أساسه، فبدل أن نستغرق في تاريخ الزهاء (ع)، لماذا لا نبحث عما هو الدور المعاصر للمرأة؟

● الماضي على قسمين: فهناك ماضٍ يموت.. وهناك ماضٍ يحمل عناصر الخلود والبقاء، لأن الحقيقة التي تعيش في الحياة واحدة، ولذلك ليس للحقيقة عمر، ليس لها ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل.

والأشخاص الذين يعيشون في قلب الحقيقة، والذين تنطلق حياتهم من موقع القيم الروحية والأخلاقية التي تمتد في الزمن، هؤلاء لا يموتون، وهؤلاء لا يشعر الإنسان بأنهم جزء من الماضي الذي ذهب، بل يرى أنهم

مظهر للزمن الذي يتجدد، لأنهم يتجددون مع الزمن، ويجددون الزمن.

ونحن عندما نعيش حياتنا المتحركة المتطورة التي تضجّ بالمتغيرات على كل المستويات، قد نحتاج إلى أن نبحث قضية المرأة كإنسان، كيف يمكن أن تعيش المرأة في الواقع، هل أنّ في ذاتها نقصاً في إنسانيتها، وبذلك فإنها تعيش نقصاً في دورها؟ أو أنّ الإنسانية تتكامل في الرجل والمرأة، فللرجل معنى يغني الإنسانية في خصائصه الذاتية، وللمرأة معنى يغني الإنسانية في خصائصها الذاتية. والإنسانية تتكامل مع الرجل والمرأة على أساس أن يحرك الرجل إنسانيته ليغني بها تجربة الحياة، وأن تحرك المرأة إنسانيتها لتغني بها تجربة الحياة.

فالله سبحانه لا يريد للمرأة أن تتحرر من أنوثتها، لأنها جزء من شخصيتها، ويمكن لهذا الجزء أن يحقق الكثير من الإيجابيات في حركتها في الحياة، والله لا يريد للرجل أن يلغي ذكوريته، لأنها جزء من ذاته، ويمكن أن يحقق الكثير من إيجابيات الحياة.

والحديث عن الزهراء(ع) لا يمثل استغراقاً في التاريخ، لأنها بما تحمل من صفات، تمثل الحاضر الحي والمستقبل المشرق، فقد رأيناها في أمومتها كأعظم ما تكون الأمهات، ورأينا قساوة الدور بالنسبة إلى جسدها الضعيف؛ قساوة دورها كزوجة على جسدها، وقساوة دورها كأم على جسدها، لكنها تحمّلت ذلك واعية صابرة.

ثم رأيناها(ع) تقوم بمسؤولياتها الرسالية المتنوعة، فقد حركت الحق في ضمير الأمة، وقدمت الدرس الأكبر في التعامل مع الواقع الذي أحاط

بالأمة بعد وفاة الرسول(ص)، وكانت صاحبة الموقف الذي امتد عبر الزمن وظلّ حياً إلى الآن، وسيظل كذلك.

إنّ دراسة تجربة الزهاء(ع) ليس عودة إلى الماضي لنتحجم فيه، إنّما هو استيحاء الماضي من خلال تجربة رائدة صنعتها شخصية معصومة، وإن هذه التجربة لم تكن في يوم من الأيام مقتصرة على الماضي، بل هي ممتدة مع الزمن حية متجددة.

الزهاء(ع) قدوة للرجال والنساء:

■ من خلال دراسة دور الزهاء(ع) الرسالي وهي ابنة الرسول وزوجة الإمام علي، كيف ترسمون الدور المطلوب من النساء في ضوء ذلك؟

● في أجواء الزهاء(ع)، لا بدّ من استيحاء فكرة هامة.. فكرة تنطلق للرجال وللنساء معاً، وهي أنّ الإنسان الذي يملك طاقة -أي طاقة من الطاقات- ويعيش دوراً في أي مهمة يريد الله منه أن يقوم بها، لا بدّ أن يقوم بدوره كاملاً غير منقوص، ولا بدّ أن يحرك طاقاته ليعلم الناس والإسلام.

إنّ فاطمة(ع) وهي ابنة رسول الله(ص)، كانت لا تترك دقيقة من وقتها إلا وتحركها من أجل القيام بمسؤوليتها، ولهذا فإنّ علينا أن نفكر في الحياة، بأننا مخلوقون للعمل والمسؤولية، لنجعل كل عمل وطاقة من طاقتنا في خدمة الله وفي خدمة الناس، وفي خدمة الحياة.

من فاطمة(ع) نتعلم أنه عندما يكون الإنسان في موقع متقدم في

المجتمع، فليس له أن يعيش بعيداً عن مسؤوليته: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته»^(١)، وسيحشر غداً كلّ إنسان أمام الله، ويحاسب على كلّ دقيقة صرفها في بطالة، وعلى كلّ طاقة أضاعها، وعلى كلّ جهد بدده في غير منفعة.

غداً عندما نقف أمام الله سنعرف قيمة كل الوقت الذي صرفناه، وقيمة كل الجهد الذي بدّدناه، وكل الطاقات التي ضيّعناها في الفراغ.

نتعلّم من خلال فاطمة (ع) التي عاشت كل وقتها، وصرفت كل جهدها، وعاشت كل دورها، وانفتحت على ربها وعلى الإسلام وعلى الرسالة وعلى حياتها الخاصة، ولم تدع جانباً يطغى على جانب.. نتعلّم كيف نكون قريين إلى الله، وكيف نكون منفتحين عليه، وكيف نجعل حياتنا في خدمة الله.. وفي خدمة الإسلام.

موقف الزهراء (ع) على المستوى السياسي:

■ كيف يمكن أن نستوحي مسألة الممارسة النسوية للعمل السياسي من خلال موقف الزهراء (ع) من الخلافة؟

● عندما ندرس حياة السيدة الزهراء (ع)، فإننا نجد أنها انطلقت لتواجه الموقف من موقع التحدي وردّ التحدي، ولم تقف موقفاً سلبيّاً حيادياً.

(١) صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، ج: ١٦، ص: ١٤.

فلقد شعرت (ع) أنّ مسألة الخلافة ليست مسألة علي (ع)، بل إنها مسألة الأمة والرسالة. وكانت تشعر أنها مسؤولة أن تحمي الأمة، وأن تحمي الرسالة.

ولذلك اندفعت في أول موقف خطابي لها إلى المسجد، لتتحدث للمسلمين عن الإسلام، وعن أسرار الإسلام، وعن الواقع الذي عاشه المسلمون، والمصاب الذي حدث في غياب رسول الله (ص).

ثم تحدّثت لهم عن مسألة فدك، التي لم تكن تمثل بالنسبة إليها مسألة مال تريده، ولكنها تمثل بالنسبة إليها مسألة منطلق للحق تريد أن تحركه هناك.

وتحدّثت عن المسألة الأساسية كما لم تتحدث امرأة قبلها. ولم تكتف بذلك، بل إنها واجهت المسؤولين عن هذا الموضوع، بطريقة حاسمة، ثم بعد ذلك طافت على المهاجرين والأنصار، لتذكرهم بحق علي (ع)، ثم جمعت نساء المهاجرين والأنصار في بيتها، وتحدثت إليهن حديثاً قاسياً عن أزواجهن، وكما قلنا إنها أوصت أن تدفن ليلاً كجزء من الاحتجاج.

هذا الموقف الفاطمي الذي يمثل الموقف الإسلامي المتحدي، الذي تقف فيه المرأة لمواجهة الموقف السياسي، وبالطريقة التي تعارض من أجل قضية التغيير.

هذا الموقف يعطينا شرعية حركة المرأة في المجال السياسي، فالزهاء (ع) من أهل البيت (ع) الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ولذلك فإن سلوكها في أي موقع، يعطينا الفكرة بأنه يمثل السلوك الإسلامي الحق.

والزهراء(ع) عندما وقفت هذا الموقف، لم تقفه من خلال خصوصيتها الذاتية، ليقال كما يقول بعض الناس هذا تكليف، والزهراء لها تكليف خاص. فالزهراء تصرفت كمسلمة مسؤولة، حتى رسول الله(ص) كان يتصرف كمسلم مسؤول، وحتى أهل البيت(ع) كانوا يتصرفون كمسلمين مسؤولين.

لذلك فعندما نرى الزهراء(ع) تتحرك في هذا الموقف، فمعنى ذلك أن كل مسلمة تعيش مثل هذا الموقع من التحدي الذي يصيب الواقع الإسلامي، يمكن لها أن تقف موقف الزهراء، ويمكن لها أن تتحرك في هذه الساحة.

وكما وقفت الزهراء(ع)، نجد أن ابنتها السيدة زينب(ع) وقفت الموقف نفسه، لأن المسألة واحدة.. فهناك موقف إسلامي يحتاج إلى دور المرأة من خلال شخصية المرأة التي يمكن أن تضغط على الواقع، وهنا دور إسلامي يمكن أن تتحمله المرأة، وقد تحملته زينب(ع) باعتبار حاجة الموقف الإسلامي إلى ذلك.

التأسي من أجل مجتمع سليم:

■ هل المطلوب من الرجال أن يكونوا الرسول(ص) أو علياً(ع)، ومن النساء أن يكنّ فاطمة الزهراء(ع) مائة بالمائة لنصل إلى حالة المجتمع السليم، أم أن عطاء هؤلاء وخصائصهم تفوق حالة المجتمع السليم، بحيث يحتاج الرجال إلى نسبة مهما كانت من الرسول وعلي، والنساء إلى نسبة من الزهراء(ع)؟

● إن عالم القدوة ليس هو أن تصل إلى مستوى من تقتدي به، ولكن أن تعتبر من تقتدي به النموذج الأعلى للفضائل والقيم التي أثبتت واقعيتها من خلال اتصافه بها وهو بشر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال علي(ع): «ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد»^(١)، ويقول الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

إن النماذج الإنسانية العظيمة في مرتبة الأنبياء والأئمة والأولياء هم القمم التي نزحف إليها، فقد يصل البعض إلى ما يقرب من القمة، وقد يبقى البعض في السفح، ولكن علينا أن ننطلق لنحصل على السعادة من خلال ما تمثلوه لأنهم تمثلوا الإسلام، ولم يكن لدى رسول الله(ص) شيء إلا القرآن والإسلام، ولم يكن لدى علي(ع) وفاطمة(ع) إلا القرآن والإسلام، ولكن الفرق بيننا وبينهم هو أنهم تمثلوا القرآن والإسلام في وجدانهم في ما أعطاهم الله من المعرفة التي لا نصل إليها، لأننا لا نملك الوسائل إلى ذلك.

فلسفة خطبة الزهراء(ع):

■ ما هي فلسفة خطبة الزهراء(ع) على مسامع القوم، مع العلم

أن تلك الكلمات والمفاهيم التي وردت في خطبتها قد سمعها القوم من الأنصار والمهاجرين من الرسول (ص)؟

● قد لا يكونون سمعوها بتفاصيلها التي وردت في الخطبة، ثم إن الله تعالى يقول: ﴿فذكر إن نفع الذكرى * سيذكر من يخشى﴾ [الأعلى: ٩-١٠].

الانفتاح على عطاء أهل البيت(ع):

■ عشنا لحظات طيبة ورائعة مع الفقرات التي شرحتموها من خطبة الزهراء(ع)، فكم هناك من حكم ودروس وعمق في أحاديث أهل البيت(ع) ولكنها كنوز مخفية، فكيف السبيل إلى الانفتاح على هذا العطاء الكبير؟

● لقد تحدثنا أكثر من مرة عن أن مشكلتنا مع أهل البيت(ع) هي أننا حبسناهم في سجن المأساة فقط، وعندما أطلقنا آفاقهم أطلقناها فقط في جانب المعاجز والكرامة، أما فكرهم ومنهجهم في الحياة وخطهم النبوي الأصيل، ومنهجهم القرآني الشامل، وكل ما قالوه وما تحركوا فيه مما يمكن أن يكون جواباً على الأسئلة والاستفهامات والمشاكل التي يتخبط فيها جيلنا وأجيال المستقبل، فليس هناك عمل بالقدر المطلوب لإبرازه وبيانه.. لقد عزلناهم عن حركة الحياة وأدخلناهم في حركة الدموع فضيّقنا واسعاً.

لقد حضرتم في هذا الموسم أكثر من مجلس بمناسبة وفاة الزهراء(ع)، فماذا سمعتم عن فاطمة الزهراء(ع)؟ أنا هنا أتكلم بشكل عام، لأن من الخطباء من يحملون مسؤولية التوعية في خط أهل البيت(ع)، ولكن الجو

العام يتحدث عن المأساة وعن المظلومية، ونحن نؤكد المظلومية، ولكنها كانت مظلومية في خط الرسالة، ولم تكن مظلومية باكية، بل كانت مظلومية تختزن العنفوان والقوة والتوعية والنقد والمواجهة في ذلك كله.

لذلك أقول: أخرجوا أهل البيت (ع) إلى الهواء الطلق وسترون أنهم يصنعون لكل جيل درباً جديداً وحياة جديدة وطريقاً مستقيمة. ادرسوا علياً (ع) في «نهج بلاغته» أيضاً، لا تدرسوه في حركة سيفه فقط، ادرسوا الأئمة (ع) في كل هذا التراث العظيم الذي يتنوع في مواقع المعرفة التي يحتاجها الإنسان، ولقد أطلقت مرة صرخة مدوية: كم من المسلمين مَنْ يحفظ فكر علي (ع) في «نهج البلاغة» .. فنحن نحفظ قتل «مرحب» وقتل «عمرو بن عبد ود»، ولكن ما هو فكر علي (ع) في العلاقات الإنسانية، ما هو فكره عندما يتحدث عن الله تعالى وعن الرسول (ص) وعن الرسالة، وعن الحياة في أوضاعها كلها، اقرأوا «نهج البلاغة»، وإذا لم تستطيعوا أن تحفظوا خطبة طويلة فاحفظوا الكلمات القصار التي في آخر النهج، فكل كلمة قد لا تتعدى السطر أو السطرين، لكنها تحمل من الفكر ومن الوعي ومن حركة الحياة ما يمكن أن نملأ به كتباً.

لذلك فإن مشكلة علي (ع) وأهل البيت (ع) والزهاء (ع) في قمتهم هي عدم استفادة الناس منهم، ألم تسمعوا علياً حينما قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنني بطرق السماء أعرف مني بطرق الأرض»^(١)، فقام إليه

(١) شرح نهج البلاغة، ج: ١٣، ص: ١٠٢.

شخص وقال : كم شعرة في رأسي ؟!

إنَّ الكثيرين منا في ما يتحدثون به وفي ما يتناقشون به ومما يثرونه من أشياء هامشية، قد يقولون لعلّي(ع) وللزهاء(ع) وللأئمة(ع) كم شعرة في رأسي، لأن ضيق الفكرة هنا هو ضيق الفكرة نفسه هناك، ولقد أراد علي(ع) من خلال رسول الله(ص)، وكذلك أراد لنا أبناؤه وزوجته الطاهرة(ع)، أن ندخل الحياة من الباب الواسع، ولكننا نريد أن ندخلها من الزوايا المنغلقة، فمشكلة أهل البيت(ع) أنهم أرادوا أن يفتحوا لنا أبواب الوعي، ونحن نريد أن نجرّ ذكراهم إلى جوّ التخلف، لأن المتخلفين لا يحبون إلا أن يعيش الآخرون معهم في أجواء التخلف.

الافتداء بالزهاء(ع):

■ ما هي الأمور التي يمكن أن تقتدي بها المرأة المسلمة بالسيدة

الزهاء(ع)؟

● أن تخلص لبيتها كما أخلصت السيدة الزهاء(ع) لبيتها في مسؤوليتها في البيت بالرغم من ضعفها الجسدي، وفي إخلاصها لزوجها ولأولادها، وفي إخلاصها قبل أن تتزوج لبيتها الأبوي، ولقد كانت تخدم رسول الله وترعاه بعطفها وحنانها حتى قال عنها(ص)«أم أبيها».

وأن تقتدي المرأة بالسيدة الزهاء(ع)، فذلك يعني أن تكون لها شجاعة الوقوف مع الحق مهما كانت النتائج والظروف بحجم طاقاتها وقدراتها، مع المحافظة على الحدود الإسلامية في حياتها، وأن تقتدي بالزهاء(ع) يعني

أن تتثقف وتتعلّم لتعلّم النساء، كما الزهراء - وهي العالمة غير المعلّمة - فقد كانت الزهراء (ع) كما يروى في سيرتها، تعلّم النساء اللاتي يأتينها بين وقت وآخر.

الزهراء (ع) المعصومة... أم الأئمة المعصومين:

■ يُستفاد من عصمة الأئمة (ع) أنهم كانوا أئمة للناس وقادة، فما هي الفائدة من عصمة الزهراء (ع) إذا لم تكن إماماً للناس؟

● أولاً: إن مسألة العصمة تنطلق من لطف الله سبحانه بمن يمنحه العصمة.

ثانياً: إذا كانت العصمة لا تعطى إلا لمن له دور في الحياة، فإن الزهراء (ع) كان لها دور كبير في حياتها مع رسول الله ومع أمير المؤمنين (ع) وتربيتها للإمامين الحسنين (ع)، ما يجعلها في موقع اللطف الإلهي بمنحها للعصمة. وبعبارة أخرى، إذا كانت الإمامة بالمعنى المصطلح تحتاج إلى العصمة، فإن الزهراء كانت في موقع الإمامة لأنها النموذج والقدوة.

ثالثاً: إن وصول الزهراء (ع) إلى مرتبة العصمة يراد منه أن تشعر المرأة بأنها ليست ناقصة الإيمان وأن الرجل لا يفوق عليها بذلك، لأن بإمكانها أن تصل إلى أعلى مراتب القرب من الله سبحانه وهي مرتبة العصمة، كما وصل الرجال إلى هذه المرتبة، وبالفعل فإن المرأة وصلت إلى درجة العصمة في ما تتمثله مريم (ع) والزهراء (ع). وربما نجد بعض النساء اللاتي لم تنزل فيهن آية عصمة، ولكنهن كنّ لا يبتعدن عن العصمة، كالسيدة زينب (ع)، ومن الممكن للمرأة أن تنفتح وتقرب من العصمة عندما تعيش مسؤوليتها أمام الله وأمام رسالتها.

بنات رسول الله (ص):

■ هل صحيح أن الرسول (ص) كان لديه بنات غير السيدة الزهراء (ع) من السيدة خديجة (ع)؟

● المشهور أن للرسول (ص) أربع بنات، زينب زوجة أبي العاص، ورقية وأم كلثوم، يقال تزوجهما عثمان، والزهراء (ع)، وإننا نلاحظ أن الله تعالى تحدث مع النبي (ص) عن بنات ﴿قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فهو لم يتحدث عن ابنة واحدة، وإنما تحدث عن بنات، ما يدل على أن هناك أكثر من بنت لرسول الله (ص).

الزهراء (ع) القدوة:

■ هل يكفي حب الزهراء (ع) من دون سعي عملي لتطبيق منهج القرآن كما طبقته هي (ع) لتحشر المرأة مع الزهراء (ع)؟

● الزهراء (ع) عاشت مع رسول الله (ع) ومع علي (ع) ومع الحسن والحسين (ع) وفي وجدان الأئمة (ع) وكلّ العاملين، المهم أن تعيش المرأة الإسلام في طاعة الله، وفي الدعوة لدينه والعمل في سبيله، كما عاشته الزهراء (ع) ولو بنسبة معينة.

فاطمة سيّدة نساء العالمين:

■ في أحد الحوارات التي قمت بها مع أحد أخواننا السّنة قال لي: إنكم تقولون إنّ فاطمة هي سيّدة نساء العالمين، مع العلم أن مريم (ع)

هي سيّدة نساء العالمين، مستنداً بذلك على القرآن؟

● القرآن لم يقل إنها «سيّدة نساء العالمين»، القرآن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، والمراد بالاصطفاء الاختيار، وهو اختيارها لتمثيل فيها قدرة الله سبحانه وتعالى، في أن تلد ولداً من دون أب، وهو النبي عيسى (ع)، وقد ورد من طريق السنة والشيعية معاً أن الزهراء (ع) هي سيّدة نساء العالمين^(١)، وأن مريم هي سيّدة نساء عالمها.

يمكن الرجوع إلى المرأة الفقيهة:

■ إنّ الزهراء (ع) مع كل عظمتها لم تدخل دائرة النبوة والإمامة، فهل يمكن للمرأة في عصرنا أن تدخل دائرة المرجعية؟

● في كتبنا الفقهية، كما في كتب الكثير من العلماء، يقولون من خلال القاعدة الفقهية، إنّ المرجعية في الفتيا تنطلق من خلال الثقافة الفقهية المميزة، فإذا بلغت المرأة الثقافة الفقهية المميزة، فيمكن أن يرجع إليها في الفقه تماماً كما يرجع إلى الرجل، فالقضية من ناحية القاعدة هي في الثقافة الفقهية التي إن توفرت عند شخص جاز تقليده بدون فرق بين المرأة والرجل، ولكن مشهور الفقهاء لا يوافق على ذلك.

(١) تقدم ذكر المصدر.

■ لقد قرأنا عدداً من كتب السنة في الأحاديث النبوية، فلم تذكر هذه الكتب أحاديث عن فاطمة الزهراء (ع)، فما هو السبب؟

● هناك كتاب «مسند فاطمة» للسيوطي، وهو من علماء السنة، يذكر فيه الكثير من الروايات التي رويت عن الزهراء (ع).

قصيدة: هذه هي الزهراء (ع)

وفي نهاية المطاف، أحببنا وتتميماً للفائدة، أن ندرج قصيدة شعرية رائعة لسماحة السيد يصور لنا فيها حياة هذه الإنسانية المعصومة، وهي مستلّة من ديوانه «يا ظلال الإسلام»:

يا فتاة الإسلام.. هذي هي الزهراء... هل تبصرين قدس السماء
عاشَ في وعبِها، رسالة وجدانٍ، كما الوحي في هدى الأنبياءِ
كلُّ أحلامِها الرسالة... ترعاها بقلبٍ يفيضُ باللألاءِ
هي بنتُ الرسولِ.. حسبُ الذرى الشَّماءِ مجداً إطلالةُ الزهراءِ

عاشتَ العمرَ طفلةً.. يُرهقُ الآلامَ إحساسُها.. بعنفِ العذابِ
لم تجدْ أمها الحنونَ لترعاها حناناً في لهفةٍ وانسيابِ

رفرف الموتُ حولها... فتهاوتُ آمانياتُ الصِّبَا، على الأعتابِ
ومَشَتْ في طفولةِ العمرِ تحيا رقرقاتِ الدموعِ في الأهدابِ

يا لروحِ الطفولةِ الغضُّ يجتاحُ ابتساماتها بكاءً الليالي
والأمانى ترتاعُ في قسوةِ الإعصارِ، حتى يَجُنَّ بالأهوالِ
غيرَ أنَّ الرسالةَ الطهرَ توحى بالهدى السَّميحِ في رحابِ الجلالِ
ليشدَّ القلوبَ، في موعِدِ الإيمانِ، بالعزمِ في طريقِ النضالِ

فإذا الطفلةُ الفتيةُ روحٌ يتحدَّى بالحقِّ وحي الدموعِ
عاشت الفجرَ مشرقاً فاستثارت كلَّ أحلامِها لصحوٍ بديعِ
ومَشَتْ في خُطى أبيها رسولِ اللهِ ترعاهُ بالحنانِ الوديعِ
كلماتُ تحنو، وبسماتِ حبٍّ وحنينٍ إلى الجلالِ الرفيعِ

فإذا بالفتاةِ أمَّ أبيها في انسيابِ الروحِ الحنونِ الطَّهورِ
كان جوعُ الحنانِ يأكلُ، في حسِّ اليتامى، لديه دَفءَ الشعورِ
وإذا بالزهراءِ، في لوعةِ اليتيمِ، تغذيه بالحنانِ الكبيرِ

تفرش القلب وهو غضُّ لبلواه، فيغفو بهدهداتِ السرورِ

إنّها قصةُ الرسالةِ تطوي بخطاها فجائعَ الأيامِ
حسبُها أن تفجّرَ الروحَ بالينبوعِ ينسابُ بالهدى والسلامِ
فإذا بالمدى امتدادُ حياةٍ تتسامى بالطهرِ والإلهامِ
كلُّ آفاقِها الرسالةُ، في فكرٍ رحيبٍ منضّرٍ بالسلامِ

وتهادتُ مع الشبابِ، كما يخطرُ باللفظِ، في الحياةِ الربيعُ
وعليّ يخطو كما الفجرُ ينهلُ فتَهْتَزُّ بالعطورِ الربوعُ
روحُه البكرُ ملتقى الأريحيّاتِ، فمنها تَفَجَّرَ الينبوعُ
وعلى هديهِ، استراحتْ خطى التاريخِ فالأرضُ من شذاه تَضُوعُ

وعليّ يهفو إلى الطُّهرِ، في جوٍّ حميمٍ، يضمُّه الإسلامُ
كلُّ أحلامه تطوفُ مع القمّةِ، تهتزُّ حولها الأنغامُ
وعلى اسمِ الزهراءِ ترتاحُ دنياه وينسابُ في خطاها السلامُ
وإذا بالسماءِ توحى... ففي الأرضِ لقاءً، وفي السماءِ ابتسامُ

هو كفؤُ الزهراءِ، لا النسبِ العاليِ هداةً، ولا المقامِ العظيمِ
إنَّها قصَّةُ الحياةِ، إذا أشدَّت خطاها نحوَ السَّماءِ النجومُ
هو صنوُ الذُّرى التي يهدرُ ينبوعُ فيها، وتستريحُ الكرومُ
حسبُه روحه التي امتدَّ فيها الخلقُ الرَّحْبَ والسَّماحِ الكريمِ

يا لروحِ الزهراءِ يخشعُ في أعماقِها النورُ في ابتهاجِ الدَّعاءِ
في سموِّ السَّجودِ لله في إشراقةِ الروحِ بالدموعِ الوضاءِ
أيُّ سرِّ في القلبِ إذ تنبضُ الخفقةُ فيه بأمنياتِ السماءِ
كلُّ أحلامِهِ النجاوى النَّدِيَّاتِ مع الله في ربيعِ الرجاءِ

والتسابقُ تستغيثُ وتلتاعُ وتهفو وتلتقي بالنداءِ
ربُّ يا باعثِ الحياةِ شعاعاً في الصحارى، في الليلةِ الظلماءِ
هبْ نعيمَ الإيمانِ، في يقظةِ الطَّهرِ للآهين عن غدِ الأمانِ
إنهم غافلون عن موعدِ النورِ إذا اهتزَّ فجرُهُ بالضياءِ

ربُّ هبْ للذين تكدحُ دنياهم وتشقى في قبضةِ الضَّراءِ

راحة الروح والحياة، التي تملأ بالعزم أعين الضعفاء
أعطى قومي حسّ المحبة في جوّ حميمٍ على صعيد الإخاء
واحتضنّ لوعة اليتامى بنعماك بلطفٍ منضّر الآلاءِ

ويطوفُ الدعاءُ في همسات الروح ينسابُ من هدى الزهراءِ
وإذا بالطفولة الغضة البكرِ تناجي في همسة الأنداءِ
قال أمّاه.. أنتِ تذوين.. في عسف الليالي وفي جنون الشتاءِ
والدعاءُ الحزينُ لهفةٌ قلبٍ صعّدتها حرارة الأرزاءِ

أنتِ أنتِ الطُّهرُ الذي يرشفُ الفجرُ نداه في روعةٍ ونقاءِ
دعوة الروح منك تسمو إلى الله فتهمي مساكبُ الأشداءِ
ويعيش الرّضوانُ واللّطفُ والرّحمةُ فيها من خالق النّعماءِ
دعوة تخرقُ الحواجزَ مهما امتدّ في دربها الفضاء النّائي

وتطوفُ الطفولة الطهرُ بالحبّ سؤالاً كلفَتَ الأحلامِ
لمَ هذا الحرمانُ، فالكلماتُ البيضُ تلتاعُ في ابتهاجِ السلامِ

كلُّ هذا الدعاءِ للنَّاسِ... أمَاهُ ودنيَاكِ مَرْتَعُ الآلَامِ
 إِنَّنَا يَا بُنَيَّ .. للجارِ ثم الدار.. إِنَّا على هُدَى الإسلامِ

نحن نحيا للمتعبين الذين استنزفتْ جُهدَهُمْ صُرُوفُ الزَّمانِ
 هؤلاء الذين يحيون بالآلامِ، إن عاش غيرهم للأمانِ
 إِنَّنَا للمعذَّبين... لمن عاشوا الليالي في غمرةِ الأحزانِ
 كلُّ تاريخِنَا.. رسالُهُ حبٌّ وجهادٌ لكلِّ قلبٍ عَانٍ^(١)

و

(١) يا ظلال الإسلام، ص: ٢٣٢، الطبعة الثالثة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥م.

الفهرس

٥	تقديم
٧	مقدمة
١٧	الفصل الأول: الزهراء قدوة
١٩	نحن والتاريخ
٢٠	تاريخنا.. جذورنا
٢٠	المثل الأعلى
٢١	الحق لا يؤرخ
٢٣	أهل البيت (ع): مثل أعلى وقيمة مستمرة
٢٥	الفرق بين الحب والولاء
٢٧	لماذا القدوة؟! ..
٢٩	في حركة القدوة والقيمة لافرق بين الرجل والمرأة
٣١	المرأة قدوة للرجل والمرأة معاً
٣٧	الزهراء (ع) وحاجتنا للقدوة
٣٨	الزهراء (ع) مظهر الفضائل ورمز الطهارة
٣٩	سر الاهتمام بالزهراء
٤١	استعادة التاريخ والوحدة الإسلامية
٤١	١. الوحدة لا تمنع من دراسة التاريخ بطريقة علمية

٤٢	تحكم العاطفة في حركة البحث
٤٣	اعتماد العقل القطعي
٤٤	٢. التاريخ جزء من ثقافتنا فلا يمكن إلغاؤه
٤٤	كيف ندرس التاريخ؟
٤٥	٣. الوحدة ليست بإنتاج إسلام بلا مذاهب
٤٦	بعدنا عن المنهج القرآني
٤٩	كيف نثير ذرياتنا التاريخية؟

الفصل الثاني: صفحات من حياة سيدة النساء ٥٣

٥٥	ولادة الزهراء (ع) مولد المرأة المسلمة
٥٩	الزهراء في بيت النبوة
٥٩	إنّا أعطيناك الكوثر
٦٠	أخوات فاطمة
٦١	طفولتها الرسالية
٦٣	أشبه الناس برسول الله (ص)
٦٥	أحب الناس لرسول الله (ص)
٦٦	مراقبتها وملاحقتها للرسول (ص)
٦٨	انفتاحها على قلبه
٧٠	شخصيتها من شخصية أبيها
٧١	دمعة وابتسامة
٧٣	مشروعية البكاء وحدوده
٧٨	الحزن الرسالي
٧٩	الصديقة: صلة الوصل بين النبوة والإمامة
٨٠	في بيت الزوجية
٨٠	قصة زواجها بعلي (ع)
٨١	لا كفؤ لفاطمة غير علي
٨٣	قصة خطبة علي (ع) ابنة أبي جهل

٨٦	رعايتها لزوجها
٨٧	الإخلاص والوفاء له
٨٨	أعطت الراحة والروح والسعادة لبيت زوجها
٨٩	عاشا (عليهما السلام) للإسلام
٩٠	أنس الرسول ببيت فاطمة
٩٠	الانسجام الكامل بينها وبين علي
٩١	الزهراء أكبر من أن تشتم علياً (ع)
٩٢	تقاسم مسؤولية البيت
٩٤	البيت بنظر الزهراء محضنٌ لا سجن
٩٦	حزن علي (ع) على البتول
٩٧	وداع الزهراء (ع)
٩٩	تربية أولادها
١٠١	إعدادها لابنتها زينب (ع)
١٠٢	حياتها والمعاناة
١٠٢	قساوة عيشها
١٠٣	ذكر الله خير من الخادم
١٠٧	ظلاماتها
١٠٧	١. الهجوم على الدار
١٠٩	٢. مظالم أخرى
١١٠	ماتت غاضبة على ظالمها
١١٢	دفنها ليلاً
١١٣	تسوية قبرها
١١٤	موضع قبرها
١١٥	٣. منعها فديكاً
١١٨	لماذا لم يسترجع علي (ع) فديكاً؟
١١٩	فديك رمز الخلافة
١٢٠	٤. ظلم التاريخ

٣٦٢	الزهراء القدوة
١٢١	كيف قابلت الظلم ؟
١٢٣	الفصل الثالث: خصالها وفضائلها
١٢٥	الزهراء(ع) في كلام الله تعالى
١٢٥	الآية الأولى: «ويطعمون الطعام...»
١٢٦	بين سموّ العطاء والخوف من الله
١٢٧	قصة الآية في حياة أهل البيت(ع)
١٣٠	الآية الثانية: آية المباهلة
١٣٠	معاني المفردات
١٣١	مناسبة النزول
١٣٣	شرح الآية
١٣٨	شبهة واهية
١٣٩	لآية الثالثة: آية التطهير
١٤٠	١- من هم أهل البيت ؟
١٤٢	السياق
١٤٣	٢- ما معنى الرجس ؟
١٤٤	٣- هل الإرادة التشريعية أو تكوينية ؟
١٤٦	٤- دلالة الآية على عصمة أهل البيت(ع)
١٤٧	الزهراء(ع) في كلمات الرسول(ص)
١٤٧	١- سيدة نساء العالمين
١٤٩	التقييم الدقيق للسيادة
١٥٠	٢- فاطمة بضعة مني
١٥٢	٣- يرضى الله لرضاها
١٥٣	استغراب مدفوع
١٥٤	٤- أم أبيها

١٥٩	منزلتها عند المسلمين
١٦٢	العصمة
١٦٣	حقيقة العصمة
١٦٥	ماذا هم دون سواهم؟
١٦٦	سرّ عصمتها
١٦٨	رواية مخالفة للقرآن
١٧١	كراماتها
١٧٢	هل الزهراء(ع) امرأة غير عادية؟
١٧٥	العبادة
١٧٥	معنى العبادة عند الزهراء(ع)
١٧٦	عبادتها كمّاً وكيفاً
١٧٨	تسبيحها ودعاؤها
١٧٩	أفضل ساعات الدعاء
١٨١	الصادقة
١٨٣	الصدّيقة الشهيذة
١٨٥	العالمة
١٨٥	في مدرسة الرسول(ص)
١٨٦	أهمية العلم عندها
١٨٧	حلقة درسها
١٨٨	أوّل كاتبة في الإسلام
١٨٩	مصحف فاطمة ليس قرآناً
١٩١	حقيقة المصحف
١٩٦	المجاهدة
١٩٦	لم تعيش العزلة
١٩٦	في المعارك
١٩٧	الغاضبة للحق

الزهاء القدوة ٣٦٤

١٩٨	المعارضة للظلم
١٩٩	خطابها للمهاجرين والأنصار
٢٠١	مجيء المهاجرين والأنصار إليها
٢٠٢	طوافها على بيوت الأنصار
٢٠٣	الزهاء رائدة النشاط السياسي للمرأة
٢٠٣	قمة الاحتجاج
٢٠٤	تجاوزت آلامها لإثبات الحق
٢٠٥	الرسالية

٢٠٥	١- لم تتحدث عن نفسها
٢٠٦	٢- لم تعيش لنفسها
٢٠٦	٣- هم الرسالة أولاً
٢٠٧	فرح الرسالة وحزنها
٢٠٨	٤- هم الناس من هم الرسالة

الفصل الرابع: خطبها ومواعظها ٢١١

٢١٣	التركيز على إمامة أهل البيت (ع)
٢١٤	حديث الثقلين
٢١٦	هم مني وأنا منهم
٢١٧	عطاء الأنبياء
٢١٨	آداب شرعية وأخلاقية
٢١٨	١- استحباب أن ينام الإنسان نظيف اليدين
٢١٩	٢- تعاليم قبل النوم
٢٢٠	٣- خيار الناس
٢٢٠	٤- المؤمن الحق
٢٢١	٥- كل مسكر حرام
٢٢٢	من أدعيتها
٢٢٤	حديث ضعيف

٢٢٧	خطبة الزهراء (ع) الشهيرة
٢٣٨	مناسبة الخطبة
٢٣٨	سند الخطبة
٢٣٨	مضمون الخطبة
٢٣٩	الصراحة الشديدة
٢٤١	الإسلام هو الأساس
٢٤٢	مقدمة الخطبة
٢٤٣	أقسام الخطبة ومواضيعها
٢٤٣	القسم الأول: التوحيد
٢٤٣	الحديث عن النعم الإلهية
٢٤٤	فلسفة الشهادة
٢٤٥	إبداع الخلق ومسألة الاستنساخ
٢٤٧	القسم الثاني: أسرار النبوة والبعثة والقرآن
٢٤٧	أسرار النبوة
٢٤٨	عبودية النبي (ص) لله
٢٥٠	سرّ البعثة
٢٥١	بعد رحيله (ص)
٢٥٣	التذكير بالمسؤوليات
٢٥٥	تركة القرآن
٢٥٧	القسم الثالث: أسرار التشريع الإسلامي ومراميه
٢٥٧	الخروج عن جمود الممارسات
٢٥٨	أسرار الأحكام الشرعية
٢٥٩	الإيمان تطهير من الشرك
٢٦٠	الصلاة تنزيه عن الكبر
٢٦٤	الصلاة خير موضوع
٢٦٦	الزكاة تركية ونماء
٢٦٨	الصوم تثبيت للإخلاص

الزهراء القدوة	٣٦٦
بالحج يشاد الدين	٢٧٠
القسم الرابع : العدل والإمامة وأسرار أخرى للتشريع	٢٧١
العدل تنسيق للقلوب	٢٧١
الطاعة والإمامة	٢٧٢
الإمامة أمان	٢٧٣
الجهاد عز للإسلام	٢٧٣
الصبر موجب للأجر	٢٧٤
الأمر بالمعروف مصلحة العامة	٢٧٦
برّ الوالدين وقاية	٢٧٧
صلة الرحم تطيل العمر	٢٧٨
حكمة القصاص والوفاء بالنذر	٢٧٩
وفاء المكيال	٢٨٠
النهي عن الخمر تنزيه عن الرجس	٢٨٠
اجتناب القذف	٢٨١
ترك السرقة	٢٨١
تحريم الشرك	٢٨١
القسم الخامس : الدفاع عن الحق والحقيقة	٢٨٣
حديث الزهراء (ع) عن شخصيتها	٢٨٣
صفات النبي (ص)	٢٨٤
دور علي (ع)	٢٨٨
تقريع المنافقين	٢٩٠
حطب الفتنة	٢٩٢
القسم السادس : الاستدلال على حقها في فدك	٢٩٣
مناقشة مسألة الإرث قرآنياً	٢٩٤
قضية الميراث بشكل عام	٢٩٥
إرث الأنبياء	٢٩٥
العهد المسؤول	٣٠٢
تقريع الأنصار	٣٠٣

٣٠٥	جواب أبي بكر
٣٠٦	ردّ الزهراء (ع)
٣٠٧	تعقيب أبي بكر
٣٠٧	ردّ الزهراء (ع) مجدداً
٣٠٩	ذيلٌ مختلق
٣١١	الخاتمة
٣١٤	دروس الزهراء (ع)
٣١٤	١- كونوا للإسلام
٣١٥	٢- الجار ثم الدار
٣١٨	قصة ابن طاووس
٣١٩	٣- الثبات في المواقف
٣٢٠	٤- شرعية العمل السياسي للمرأة
٣٢٢	٥- مسؤولية المرأة الثقافية
٣٢٥	٦- نداء فاطمة للمرأة
٣٢٦	الأسئلة والأجوبة
٣٢٦	السبب في غموض شخصية الزهراء (ع)
٣٢٧	إيصال صوت فاطمة (ع) للعالم
٣٢٧	طهارة الزهراء (ع)
٣٢٨	درجة الزهراء (ع) الإيمانية
٣٢٩	الفرق بين الزهراء (ع) والنساء
٣٣٠	التشكيك بروايات موت الزهراء (ع)
٣٣٠	غضب لله لا للذات
٣٣٣	سيادة النساء في عمر قصير
٣٣٤	مناقشة مقولة للعقاد
٣٣٥	حق الزهراء (ع)
٣٣٦	استرجاع «فدك»
٣٣٦	المطالبة بـ «فدك»

٣٦٨	 الزهراء القدوة
٣٣٧	 إثارات البوطي
٣٣٩	 موقع الشخصيات التاريخية من واقعنا المعاصر
٣٤١	 الزهراء (ع) قدوة للرجال والنساء
٣٤٢	 موقف الزهراء (ع) على المستوى السياسي
٣٤٤	 التأسّي من أجل مجتمع سليم
٣٤٥	 فلسفة خطبة الزهراء (ع)
٣٤٦	 الانفتاح على عطاء أهل البيت (ع)
٣٤٨	 الاقتداء بالزهراء (ع)
٣٤٩	 الزهراء (ع) المعصومة... أم الأئمة المعصومين
٣٥٠	 بنات رسول الله (ص)
٣٥٠	 الزهراء (ع) القدوة
٣٥٠	 فاطمة سيّدة نساء العالمين
٣٥١	 يمكن الرجوع إلى المرأة الفقيهة
٣٥٣	 قصيدة: هذه هي الزهراء (ع)



للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

حارة حريك قرب مستشفى الساحل

تلفون: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٨٢١٣٩٢ - فاكس: ٠١/٣١٤٨٢٤

Int:www.dar-almalak.com Email:dam@dar-almalak.cm